عدد من المؤلفين

مختارات
من القصص الاميركي اللاتيني المعاصر

ترجمة

صالح علماني   عاصم الباشا

القصة القصيرة العالمية
١٠

القصة القصيرة العالمية

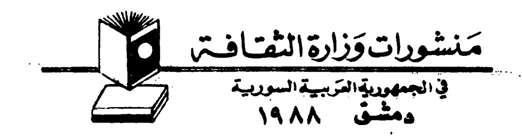
« ١٠ »

عـدد من المؤلفين

مختارات
من القصص الاميركي اللاتيني المعاصر

ترجمة

صالح علماني عاصم الباشا



مختارات من القصص الأميركي اللاتيني المعاصر / ترجمة
صالح علماني ، عاصم الباشا .- ط ١ .- دمشق :
وزارة الثقافة ، ١٩٨٨ .- ٢٦٠ ص ؛ ٢٥ سم .- (القصة
القصيرة العالمية ؛ ١٠) .

القصص من تأليف عدد من المؤلفين .

١-٣٦٨ م ع ل م ٢- العنوان ٣- علماني
٤- الباشا ٥- السلسلة
مكتبة الأسد

الايداع القانوني ع - ١٩٨٨/٣/٣٥٠

خوان رولفو
« المكسيك »

* ولد خوان رولفو في بلدة « سايولا » ، التابعة لولاية خاليسكو المكسيكية عام ١٩١٨ .

* عاش في طفولته الانتفاضات الفلاحية التي عصفت بالمكسيك ، وكانت أكثر عنفاً في مقاطعته منها في مناطق البلاد الاخرى . وقد كان لهذه التجربة أثراً كبيراً في تكوينه الادبي فيما بعد

* بدأ حياته الادبية بالكتابة لمجلة « خبز » التي كانت تصدر في مدينة غوادى لاجارا ، حيث ظهرت قصصه القصيرة الاولى .

* انتقل بعد ذلك إلى مدينة مكسيكو ، وهناك كتب ونشر مجموعته القصصية « السهب الملتهب » عام ١٩٥٣ ، وروايته « بيدرو بارامو » عام ١٩٥٥

* عكس في قصصه القصيرة حياة الفلاحين البائسة والموحشة في مقاطعة خاليسكو حيث الارض الجافة القاحلة ، وصراع هؤلاء الفلاحين في سبيل الحياة تحت ظروف قاسية من الظلم الاجتماعي .

* بالرغم من أن رولفو لم يكتب سوى رواية واحدة ومجموعة قصصية تضم خمس عشرة قصة قصيرة فقط ، فانه برز كأحد أهم ممثلي الرواية الاميركية اللاتينية المعاصرة .

قل لهم ألا يقتلوني

— قل لهم ألا يقتلوني ، ياخوستينو هيا ، اذهب وقل لهم هذا ، من قبيل الرحمة ، هكذا قل لهم . قل لهم ألا يفعلوا ذلك رحمة بي .

— لاأستطيع ، ثمة رقيب هناك لايود سماع أي شيء عناك .

— اجعله يسمع . استغل حيلك وقل له انني اكتفيت فزعاً . قل له ألا يفعل ذلك محبة بالاله .

— ليست قضية مخاوف. يبدو وكأنهم ينوون قتلك فعلاً . وأنا لاأريد العودة اليهم مرة أخرى .

— اذهب مرة أخرى . مرة أخرى فحسب ، وانظر ماتحصل عليه .

— لا ، لا أرغب بالذهاب ، فأنا ابنك واذا مضيت إليهم كثيراً سينتهون إلى معرفة من أكون وستراودهم فكرة اعدامي أنا أيضاً . من الأفضل ترك الامور على حالها .

— اذهب ، خوستينو وقل لهم ان يرأفوا بي . قل لهم هذا لاغير .

ضغط خوستينو على أسنانه وطوح برأسه قائلاً :

— لا .

وظل يهز رأسه طويلاً .

– قل للرقيب ان يسمح لك بمقابلة العقيد. واحاك له مدى شيخوختي ، تفاهة قيمتي . ماذا سيجني من قتلي لامربح في ذلك . لابد ان يكون عنده قلب آخر الامر . قل له ان يفعل ذلك لينقذ روحاً .

نهض خوستينو عن كومة الحجارة التي كان قاعداً عليها وسار حتى باب الحوش ، ثم استدار ليقول :

– أنا ذاهب . اذن ، وماذا لو أعدموني أنا أيضاً ؟ من سيعنى بزوجتي وبالابناء ؟

– العناية الالهية ياخوستينو ، هي ستعنى بهم . اهتم بمضياك إلى هناك ولنر ماتفعله من أجلي . هذا هو المُسلِّح الآن .

* * *

جاؤوا به عند الفجر . وقد انقضى الآن بعض من الصباح وهو مازال هناك ، مقيداً إلى السقالة ، منتظراً ، ماكان يستطيع البقاء هادئاً . كان قد حاول النوم للحظة ، عله يهدأ ، لكن الوسن هجره . وانتفى الجوع أيضاً . ماكان يرغب بشيء ، ان يحيا فحسب . فالآن ، بعد أن أدرك جيداً انهم سيقتلونه ، غمرته رغبة جامحة في الحياة ، كتلك التي تعتري المبعوث لتوه . من كان يعتقد ان تلك القضية القديمة ، الزنخة ، التي حسبها قد دفنت ، قضية اليوم الذي اضطر فيه إلى قتل دون لوبي . . ولم يفعل ذلك لمجرد الفعل ، كما شاء أهل « اليما » تفسير الامر ، بل لانه كانت لديه أسباب ، وهو يتذكر :

دون لوبي تيريروس ، صاحب مزرعة « الباب الحجري » ورفيقه –

لاضافة المعلومات – اضطر هو ، خوفينسيو نافا ، إلى قتاله لذلك السبب ، لانه صاحب « الباب الحجر » ولانه – وهو رفيقه – بخل عليه بالعلف من أجل ماشيته . تحمل الامر في البدء ، من قبيل الالتزام . اما فيما بعد ، عندما حل الجفاف ورأى كيف كانت تموت مواشيه جوعاً الواحد تلو الآخر بينما استمر دون لوبي على رفضه ولم يعطه علفاً لقطيعه ، عندئذ ، قام بنزع السور وأدخل حيواناته الهزيلة إلى المرعى كي تسأم من الأكل ، لم يرق ذلك للدون لوبي الذي أمر باقامة السور ثانية فقام خوفينسيو نافا بفتح ثغرة ثانية . وهكذا ، تسد الثغرة في النهار وتفتح أخرى في الليل بينما الماشية تنتظر ملتصقة بالسور ، تلك الماشية التي كانت تحيا من رائحة العشب دون ان تصل إليه .

وكان ، هو ودون لوبي ، يتناقشان ويتنازعان ثم يعاودان ذلك دون أن يتوصلا إلى اتفاق ، حتى كان يوماً قال فيه دون لوبي :

– انظر ياخوفينسيو ، سأقتل كل حيوان تدخله إلى المرعى .

فأجاب هو :

– انظر يادون لوبي ، ليس ذنبي ان كانت الحيوانات تبحث عما يريحها ، فهي بريئة . وستتحمل المسؤولية إن أنت قتلتها .

« وقتل عجلاً » .

حدث هذا منذ خمس وثلاثين سنة ، في آذار ، ففي نيسان كنت فاراً في الجبال ولم تجدني نفعاً البقرات العشر التي وهبتها للقاضي ، ولا حجز داري من أجل دفع بدل خروجي من السجن ، بل انهم استولوا بعد هذا على ماتبقى مقابل الكف عن ملاحقتي ، لكنهم ظلوا يلاحقونني . ولهذا السبب جئت لاعيش مع ابني في هذه الارض الصغيرة التي املكها

والتي تدعى « بلودي فينادو » . وكبر ولدي ، وتزوج من ايغناسيا ورزق بثمانية أبناء.ومن هنا ان القضية قديمة ولابد أن النسيان قد طواها ، ولكن ، ليس الأمر كذلك على مايبدو .

« كنت قد حسبت آنذاك ان مئة بيزو ستصلح الامر ، فالمرحوم دون لوبي كان وحيداً مع امرأته ، وولديه اللذين يحبوان . ماتت الأرملة سريعاً بعده ، ويقال إنها ماتت من الحزن ، وأخذوا الطفلين بعيداً ، عند أقارب لهما ، وهكذا فليس ثمة مايخيف من جهتهما .

لكن الآخرين تمسكوا بكوني ملاحقاً ومحكوماً وذلك بهدف اخافتي وسرقتي ، فكلما وصل أحدهم البلدة يخبرني :

– ثمة غرباء في البلدة ياخوفينسيو .

« فأهرب إلى الجبل وأتغلغل بين الاحراش . كنت اقضي أيامي قاضماً الاعشاب لاغير . وكنت اضطر أحياناً إلى الهروب في منتصف الليل ، كمن تلاحقه الكلاب . وقد دام هذا كل العمر . لم يحدث لسنة أو لسنتين . دام كل العمر » .

وهاهم الآن آتون من أجله ، في زمن ماعاد ينتظر فيه قدوم أحد ، كان مطمئناً للنسيان الذي ارتاح إليه الناس ، وظاناً ان أيامه الاخيرة ، على الأقل ، ستمضي هادئة . « هذا – كان يفكر – ماسأجنيه في شيخوختي .

سيتركونني بسلام » .

كان قد استسلم بكل كيانه لهذا الامل . ولهذا يصعب عليه تصور ميتة كهذه ، فجأة ، بعد هذا العمر ، بعد كل عراكه تهرباً من الموت ، بعد

أن امضى أيامه متنقلاً من مكان إلى آخر يجره الرعب ، حتى صار جسده جلداً لاأكثر ، مطواعاً ، مدبوغاً بفعل الايام الصعبة التي اختبأ فيها من الجميع . ثم ، ألم يدع إمرأته ترحل عنه ؟ عندما أفاق ذلك اليوم وعلم أن زوجته قد هجرته ، لم تراوده فكرة الخروج للبحث عنها ، تركها ترحل دون ان يستفسر مع من مضت والى أين،وذلك تجنباً للنزول إلى البلدة . تركها ترحل كما رحلت كل الاشياء الاخرى،دون ان يتدخل في الأمر . الشيء الوحيد الباقي والذي يتوجب الحفاظ عليه هو الحياة ، وسيحافظ عليها كيفما كان . ماكان بمقدوره أن يدعهم يقتلونه ، مااستطاع ذلك ، وبخاصة الآن .

لكنهم جاؤوا به من « بالودي فينادو » لهذه الغاية . مااضطروا إلى ربطه كي يتبعهم ، لقد سار وحده ، مقيداً بالخوف ، أفهموه انه لن يتمكن من الركض بجلده العجوز ذاك ، بساقيه الناحلتين اليابستين وقد شنجهما الذعر من الموت . لانه ماض إليه .

فأدرك وقتذاك الامر ، وبدأ يشعر بذلك العض في المعدة الذي راوده دوماً لدى دنوه من الموت ، والذي يفلت الاضطراب من عينيه ويورم فمه بذلك اللعاب الحامض الذي يضطر إلى ابتلاعه دونما أية رغبة ، وذلك الشيء الذي يثقل قدميه بينما يلين الرأس ويتخبط القلب بكل قواه بين عظام صدره . لا ، ليس بمقدوره الاعتياد على فكرة انهم سيقتلونه . لابد من وجود أمل ما ، لابد من وجوده في مكان ما . لعلهم أخطأوا ، لعلهم يبحثون عن خوفينسيو نافا آخر وليس عنه .

سار بين اولئك الرجال صامتاً ، مسدل الذراعين ، كان النزع الاخير من الليل مظلماً ، بلا نجوم ، والريح تعصف ببطء ، تأخذ في

طريقها التراب الجاف وتأتي بغيره ، وتنضح منها رائحة تشبه رائحة البول التي يحملها غبار الطرقات .

عيناه ، اللتان ضاقتا بفعل السنين ، ترمقان التراب ، هنا ، تحت قدميه ، وعلى الرغم من العتمة .

في هذه الارض كل حياته . عاش فوقها ستين عاماً ، أمسك بها بيديه ، وذاقها كما يذاق طعم اللحم . سار طويلاً وهو يفتتها بعينيه ، يستسيغ كل قطعة منها وكأنها الاخيرة ، مدركاً انها ستكون الاخيرة .

كان ينظر إلى الرجال السائرين بجانبه وكأنه ينوي قول شيء ما . أراد أن يطالب اطلاق سراحه ، ان يدعوه يمضي : « ماآذيت أحداً ياشباب » . هذا ماأراد أن يقوله لهم ، لكنه ظل صامتاً ، وفكر : « سأقولها فيما بعد » .

كان يرمقهم لاغير . وكان بامكانه ان يتصورهم أصدقاء له ، لكنه لم يشأ ذلك ، فهم ليسوا كذلك ، وهو يجهل من هم . كان يراهم بجانبه يتمايلون وينحنون بين الفينة والأخرى لمعرفة الاتجاه الذي تسلكه الطريق .

رآهم لأول مرة عند الاصيل ، في تلك الساعة التي تفتقد صبغتها فيبدو كل شيء محروقاً . كانوا قد اجتازوا السور واطئين نباتات الذرة الطرية . وكان قد نزل إليهم ليقول لهم: ان الذرة تنبت في تلك الارض ، لكنهم لم يتوقفوا . لقد أبصرهم في وقت مبكر ، فقد حالفه الحظ دوماً ورأى الاشياء بشكل مبكر . كان يستطيع الاختباء ، والتسكع لساعات في الجبل ريثما يرحلون ثم يعود ويهبط ، فالذرة لن تنجح على كل حال

لانها بحاجة إلى الري والماء الذي لم يأت فبدأت بالذبول . لن يستغرق جفافها وقتاً طويلاً .

وهكذا فلم يكن ثمة داع للنزول إليهم ، فزج نفسه بين هؤلاء الرجال كمن يدخل في جب لاخروج منه .

والآن ، وهو ماض إلى جانبهم ، كابتاً توسله لإطلاق سراحه ، لايرى وجوههم ، بل كتلتهم في التصاقهم وابتعادهم عنه . لذا لم يعرف إذ كانوا قد سمعوه عندما تكلم قائلاً :

— ماآذيت أحداً أبداً .

هذا ماقاله ، لكن شيئاً لم يتغير . بدا وكأن احداً لم يفطن لذلك . لم تلتفت الوجوه صوبه ، واستمروا على حالهم وكأنهم يسيرون نياماً .

فكر لحظتها انه ليس ثمة مايقال ، وان عليه ان يبحث عن الامل في مكان آخر .

أرخى ذراعيه مرة أخرى وعبر بين البيوت الأولى في القرية محاطاً بأولئك الرجال الاربعة المعتمين بلون الليل الاسود .

* * *

— سيدي العقيد ، ها هو ذا الرجل .

كانوا قد توقفوا أمام عتبة البيت . وقد أمسك هو قبعته بيده علامة احترام ، وانتظر خروج شخص ما . .

فلم يخرج سوى الصوت :

— أي رجل ؟

– من « بالودي فينادو » سيدي العقيد . الذي أمرتنا بجلبه .

فعاد الصوت يقول من الداخل :

– اسأله ما اذا سبق له ان عاش في اليما .

– هيه ، أنت ، هل عشت في اليما ؟ – كرر الرقيب الواقف أمامه السؤال .

– أجل ، قل للعقيد انني من تلك القرية ، واني عشت فيها حتى فترة قريبة .

– اسأله ما اذا كان يعرف غوادا لوبي تيريروس .

– يقول ما اذا كنت تعرف غوادا لوبي تيريروس ؟

– دون لوبي ؟ أجل . قل له انني كنت أعرفه ، وانه مات .

طرأ عندئذ تبدل على الصوت الآتي من الداخل وهو يقول :

– اعرف انه قد مات .

وظل يتكلم وكأنه يحادث أحدهم ، هناك ، إلى الجانب الآخر من جدار الطوب :

– كان غوادا لوبي تيريروس والدي ، وعندما كبرت وبحثت عنه قيل لي أنه ميت . من الصعوبة بمكان ان تنمو عارفاً ان الشخص الذي يمكنك التشبث به لاطلاق الجذور هو ميت . وهذا ماحدث لنا . . . ثم عرفت انه قتل طعناً ، وانهم غرسوا في معدته سيخاً . حكوا لي أنه بقي مفقوداً طوال يومين ، وانه كان مايزال يحتضر عندما وجدوه مرمياً عند جدول ماء ، وانه طلب ان يرعوا عائلته . . .

يبدو هذا وكأن النسيان يحيط به مع الزمن . يحاول المرء نسيانه ، ولكن ، ما لاينسى هو معرفة ان الفاعل مازال حياً ، يغذي روحه العفنة بوهم الحياة الخالدة ، لاأستطيع غفران هذا ، على الرغم من انني لا أعرف ذلك الشخص ، لكن وجوده حيث أعرف يشجعني للقضاء عليه ، لايمكنني السماح له بالحياة . ماكان عليه ان يولد ابداً .

ومن هنا ، من الخارج ، سمع جيداً وبجلاء كل ما قاله الصوت الآمر :

— خذوه وأوثقوه فترة ، ليتعذب ، ثم أطلقوا عليه النار .

قال هو :

— انظروا إلي أيها العقيد ، لم أعد أنفع لشيء سأموت وحدي قريباً منهاراً من العجز . لاتقتلني .

— خذوه . . . عاد الصوت يقول من الداخل .

— . . . لقد دفعت أيها العقيد . دفعت مرات كثيرة . سلبوني كل شيء . عذبوني بأشكال عديدة . قضيت أربعين عاماً مختبئاً كالمصاب بالطاعون ، لاتفارقني مخاوف الموت ولاللحظة واحدة ، لاأستحق الموت على هذه الصورة أيها العقيد . . . دع الاله يغفر لي ، على الاقل ، لاتقتلني . . قل لهم ألا يقتلوني .

كان واقفاً كمن تعرض لتوه إلى الضرب وقد خبط قبعته على الارض صارخاً .

قال الصوت من الداخل :

— قيدوه وقدموا له شيئاً يشربه حتى يسكر كي لاتؤلمه الطلقات .

* * *

وقد هدأ الآن ، أخيراً . كان مكوماً عند أسفل السقالة . لقد جاء ابنه خوستينو الذي كان قد ذهب وآب . . . وهاهو يعود مرة أخرى .

رماه فوق الحمار وربطه جيداً على السرج كي لايقع في الطريق ، وأدخل رأسه في أحد الخرجين حتى لايترك انطباعات كريهة ثم هش الحمار وانطلقا ، عجولين ، ليصلا إلى « بالودي فينادو » باكراً لترتيب مأتم المرحوم .

– زوجتي وأحفادك سيشستاقون إلياك – كان يقول له – سينظرون إلى وجهك وسيظنون انك لست أنت .

سيتخيلون أن الذئاب قد أكلتك ما ان يروا وجهك المليء بالثقوب من كثرة الطلقات التي أطلقوها عليك .

ترجمة : عاصم الباشا



لأننا جد فقراء

كل شيء هنا يمضي من سيء إلى أسوأ . ففي الاسبوع الماضي توفيت عمتي « خاثينتا » ، ويوم السبت ، عندما كنا قد دفناها ، وبدأ الحزن يفارقنا ، أخذ المطر ينهمر كما لم يحدث من قبل . وهذا سبب لوالدي شعوراً بالاحباط ، لأن كل محصولنا من الشعير كان منشوراً تحت الشمس في الفناء . وقد هطل وابل الماء فجأة في دفقات كبيرة ، حتى انه لم يكن لدينا متسع لرفع ولو حفنة واحدة من الشعير واخفائها . والشيء الوحيد الذي استطعنا عمله ، نحن جميع من في البيت ، هو احتماؤنا تحت السقف ، بينما كنا نرى كيف كان الماء البارد يسقط من السماء ليحرق ذلك الشعير الاصفر الذي حصدناه حديثاً .

وبالامس فقط ، عندما أتمت أختي تاتشا اثني عشر عاماً من عمرها ، علمنا أن البقرة التي أهداها إليها والدي في يوم عيد قديسها قد حملها النهر .

لقد بدأ النهر بالتعاظم قبل ثلاث ليال ، عند الفجر . كنت نائماً حينئذ ، ومع ذلك فان الهدير الذي كان يأتي من النهر المندفع جعلني أستيقظ في الحال ، وأثب من السرير دافعاً بيدي اللحاف بعيداً ، فقد ظننت ان سقف بيتنا ينهار . لكني عدت بعد قليل لأنام ، فقد عرفت

أن الصوت آتٍ من النهر ، ولان هذا الصوت صار له ايقاع متشابه حمل النعاس إلي من جديد .

عندما استيقظت ، كان جو الصباح قاتماً لكثرة الغيوم ، ويبدو وكأن السماء كانت تمطر دون توقف . وقد لاحظت أن هدير النهر أصبح أقوى ، وصار يسمع وكأنه أقرب . بينما انتشرت في الجو رائحة كرائحة الحرق . . . انها رائحة العفونة تأتي من الماء الصاخب .

ذهبت لألقي نظرة . . . كان النهر قد فقد ضفتيه ، وارتفع شيئاً فشيئاً على الطريق . كان ينفذ بسرعة عظيمة إلى بيت المرأة التي يسمونها « لاتمبورا » ، وهدير الماء يسمع وهو يدخل إلى الحظيرة ويخرج بدفقات كبيرة من الباب . بينما « لاتمبورا » تمضي في بيتها الذي أصبح جزءاً من النهر ، وهي تحمل دجاجاتها وترمي بها إلى الشارع لتذهب وتختبيء في مكان بعيد لايصله التيار .

أما في الجهة الاخرى ، حيث المنعطف ، فان النهر قد جرف ، ومن يدري منذ متى ، نخلة التمر الهندي . لقد كانت تنتصب هناك ، في فناء بيت عمتي خاثينتا ، حيث لا تظهر هناك الآن أية نخلة تمر هندي . لقد كانت تلك هي شجرة التمر الهندي الوحيدة في القرية ، ولذا فان الناس قد تنبهوا إلى أن هذا الفيضان الذي نشهده الآن هو أكبر فيضان عرفه النهر منذ سنوات بعيدة .

أختي وأنا ، رجعنا مرة أخرى في المساء لنتفرج على الماء الذي أصبح أكثر كثافة وقتامة ، وقد ارتفع الآن أعلى بكثير من مستوى الجسر الذي لم يعد يظهر منه شيئاً . وبقينا هناك لساعات نتفرج على ذلك المشهد . بعدها صعدنا إلى الرابية لنسمع ماالذي يقوله الناس المجتمعون هناك ، لاننا ونحن

تحت ، إلى جانب النهر ، لم نكن نسمع بسبب هدير النهر ، وانما كنا نرى أفواه الكثيرين وهي تفتح وتطبق وكأنهم يريدون أن يقولوا لنا شيئاً . . صعدنا إلى الرابية ، حيث كان الناس يتطلعون إلى النهر وهم يحصون الأضرار التي أحدثها . وهناك عرفنا بأن النهر قد حمل معه أيضاً « سربينتينا » ، بقرة أختي تاتشا ، التي أهداها لها والدي في عيد قديسها . . لقد كانت بقرة جميلة ، لها أذن بيضاء وأخرى حمراء، وعينان بديعتان.

لم أستطع أن أفهم لماذا عبرت « سربينتينا » النهر ، وهي ترى أنه ليس نفس النهر الذي تعبره كل يوم . ولكن ، ربما أتت وهي نائمة ، وإلا ما كانت لتدع نفسها تموت هكذا . مرات كثيرة كنت أوقظها عندما أفتح باب الحظيرة صباحاً ، لاني اذا ما تركتها لتنهض على سجيتها فانها ستبقى طول النهار مغمضة عينيها وساكنة وهي تزفر كما تفعل الابقار عندما تنام .

وهكذا ، لابد أنها كانت نائمة حين حدث لها ماحدث . ربما استيقظت عندما شعرت بالماء الثقيل يصفع أضلاعها . . ربما ارتعدت عندئذ وحاولت الرجوع ، ولكن لدى محاولتها الرجوع وجدت نفسها عاجزة في دوامة تلك المياه السوداء القاسية ، والوحل اللزج . . وربما أطلقت خوارها طالبة المساعدة ، أطلقت خوارها بشكل لا يعلمه إلا الله .

سألت رجلاً رأى البقرة عندما سحبها النهر ، إذا كان قد رأى كذلك العجل الصغير الذي كان معها . ولكنه قال انه لايعرف ان كان قد رآه ، وانه رأى فقط البقرة المرقشة والتيار يحملها قريباً من المكان الذي كان يقف فيه ، وقد رفعت قوائمها إلى أعلى ، ثم انقلبت . وبعد ذلك لم يعد يرى قرونها ولا قوائمها ولا أي أثر لها ، وانه كان مشغولاً

بسحب قطع الحطب من الماء ، وهكذا لم يكن بمقدوره التأكد ما اذا كانت جميعها جذوعاً أم حيوانات تلك التي يجرفها النهر . وبهذا لم نتوصل إلى معرفة يقينية ما اذا كان العجل الصغير حياً،أم أنه ذهب وراء أمه في النهر . . . إذا كان هذا هو مصيره فليرحمه وأمه الله .

ان الحرج الذي وقع في بيتنا مما يمكن ان يحدث في المستقبل ، بعد أن أصبحت أختي تاتشا لاتملك شيئاً . فقد استطاع والدي بعد عمل طويل ، الحصول على « سربينتينا » عندما كانت ماتزال بقرة صغيرة ، وأهداها لأختي ليصبح لديها رأس مال بسيط ، ولا تمضي لتصبح مومساً كما فعلت شقيقتاي الكبيرتان .

فكما يقول والدي ، انهما ضاعتا لاننا كنا فقراء جداً ، وهما كانتا عنيدتين ومتمردتين منذ صغرهما ، وعندما كبرتا ، أصبحتا تخرجان مع رجال من النوع السيء ، وهؤلاء علموهما أموراً سيئة . وقد تعلمتا بسرعة وفهمتا جيداً الاشارات التي كان الرجال يطلقونها بالصفير لمناداتهما في ساعات متأخرة من الليل،فتخرجان ولاتعودان حتى الصباح. أو تخرجان في كل وقت بحجة جلب الماء من النهر . وفي احدى المرات ، ولم نكن نتصور حدوث ذلك ، كانتا هناك في الحظيرة تتقلبان على الأرض وفوق كل منهما رجل .

يومها طردهما أبي من البيت.لقد تحملهما في البداية بقدر ماستطاع ، ولكنه بعد هذا لم يعد يحتمل ، فألقى بهما إلى الشارع . ذهبتا إلى « ايوتلا » أو إلى مكان آخر لاأدري ماسمه . وهما تعملان هناك كبنات هوى .

لقد تألم والدي كثيراً من أجل تاتشا — لانه لايريد لها ان تنتهي إلى ما انتهت إليه شقيقتاها — وها هو يرى أنها أصبحت فقيرة معدمة بعد أن

فقدت بقرتها ، ويرى أنه لم يعد بإمكانها أن تتزوج من رجل طيب يحبها إلى الابد . . . لقد أصبح ذلك صعب التحقيق الآن . أما عندما كانت البقرة موجودة فقد كانت الامور مختلفة ، اذ لم تكن لتعدم حينئذ من يتحمس للزواج منها ليحصل أيضاً على تلك البقرة العظيمة .

الأمل الوحيد الذي بقي أمامنا هو أن يكون العجل الصغير على قيد الحياة . . عسى ألا يكون قد عبر النهر وراء أمه ، لأنه اذا كان قد فعل ذلك فان اختي تاتشا لن تتأخر كثيراً حتى تتحول إلى بنت هوى . . وأمي لاتريد لها هذا المصير .

أمي لاتدري لماذا عاقبها الله هكذا بمنحها بنات من هذا النوع ، مع أن اسرتها – منذ جدتها حتى الآن – لم تعرف نساء سيئات السمعة . فتربيتهن جميعاً كانت ترتكز على مخافة الله ، وكن مطيعات ، ولم يسئن احترام أحد . . جميعهن كن هكذا . فمن يدري من أين أتت هاتان الابنتان بتلك الصورة الخبيثة . هي لاتعرف ، وكلما فكرت بهما تبكي وتقول : « ليحميهما الله الاثنتين » .

ولكن والدي يقول بأن أمرهما قد انتهى وليس ثمة حل . وانما يكمن الخطر في تلك التي بقيت هنا : تاتشا . التي تمضي مثل قضيب البان ، تنمو وتنمو ، وقد أخذت تبرز في صدرها بدايات نهود تتوعد بأنها ستكون كأثداء شقيقتيها : حادة ، متعالية ، طائشة ، ومثيرة للانتباه .

والدي يقول :

– أجل . . إنها ستملأ عيني أي رجل يراها في أي مكان ، وستنتهي نهاية سيئة . . . إني أرى أنها ستنتهي نهاية سيئة .

هذا هو العذاب الذي كان والدي يقاسيه .

وتاتشا تبكي وهي تشعر ان بقرتها لن تعود لأن النهر قد حملها معه . إنها الآن معي ، وهي ترتدي فستانها الوردي وتتطلع إلى النهر من فوق الرابية دون أن تتوقف عن البكاء ، وعلى وجهها تجري خيوط ماء عكر وكأن النهر قد دخل إلى أعماقها .

وأنا احتضنها مواسياً ، ولكنها لاتفهم ذلك ، بل تزداد رغبة في البكاء . ومن فمها يخرج صرير يجعلها ترتجف وتنتفض بكاملها . ويستمر ماء الفيضان بالارتفاع ، وطعم العفونة الذي يأتي من النهر يرش وجه تاتشا المبلل ، بينما نهداها الصغيران يرتعشان ويهتزان إلى أسفل وإلى أعلى دون توقف ، وكأنهما سيأخذان بالتضخم فجأة لتبدأ السير في طريق ضياعها .

ترجمة : صالح علماني



أليخو كاربنتير
"كوبا"

* ولد أليخو كاربينتير في هافانا عام ١٩٠٤ .

* سافر في طفولته إلى فرنسا والنمسا وبلجيكا وروسيا .

* درس المرحلة الابتدائية في باريس . وعندما عاد إلى هافانا بدأ بدراسة الهندسة في جامعتها ، لكنه مالبث أن تخلى عن الدراسة ليشتغل في الصحافة كناقد فني وأدبي —.

* اعتقل لنشاطه الثوري ، وبقي في السجن ستة أشهر . وبعد خروجه من السجن ، غادر وطنه سراً ، وأقام في باريس ، حيث كان على علاقة وثيقة بجماعة السورياليين هناك .

* شارك بالمؤتمر العالمي المعادي للفاشية الذي عقد في مدريد وفالنسيا وبرشلونة خلال الحرب الاهلية الاسبانية عام ١٩٣٧ .

* أقام في كاراكاس (فنزويلا) منذ ١٩٤٥ ، وبقي فيها حتى انتصار الثورة الكوبية عام ١٩٥٩ .

* أصبح نائباً لرئيس المجلس الوطني الكوبي للثقافة ، ونائباً لرئيس اتحاد الكتاب والفنانين الكوبيين الذي تأسس عام ١٩٦١ ، كما شغل منصب المدير لدار النشر الوطنية .

* عمل مدرساً لتاريخ الثقافة في جامعتي هافانا وكاراكاس .

* عمل قبيل وفاته سفيراً لبلاده في باريس ، وتوفي عام ١٩٨٠ .

* من أعمـاله البارزة :

- مملكة هذا العالم (رواية) ١٩٤٩
- الخطى الضائعة (رواية) ١٩٥٣
- حرب الزمن (قصص) ١٩٥٨
- عصر الأنوار (رواية) ١٩٦٢
- كونشيرتو باروكي (رواية) ١٩٧٤
- القيثارة والريح (رواية)

* * *

رحلة إلى البذرة

— ماذا تريد أيها العجوز . . .

— سقط السؤال عدة مرات من أعلى السقالات. لكن الرجل العجوز لم يرد الجواب . كان يمضي متسكعاً من مكان إلى آخر ، مصدراً من حنجرته مونولوجاً طويلاً من عبارات غير مفهومة . كانوا قد انتهوا من انزال قرميد السقف ، وغطوا الاحجار الميتة بموزاييكه الفخاري . وفي الاعلى كانت المعاول تنتزع احجار البناء ، وتدحرجها إلى أسفل عبر قنوات خشبية وسط سحابة كثيفة من الكلس والجص . ومن خلال شرفات الابراج المتتالية التي كانت تخفي مسننات الاسوار ، بدت — مجردة من أسرارها — سقوف صقيلة ، بيضاوية أو مربعة ، وطنف ، واكاليل غار ، ومسننات ، وتيجان أعمدة ، وأوراق مغراة ومعلقة على الواجهات كجلود قديمة لأفعى تبدل جلدها . وكان يشهد عملية الهدم تمثال لسيريس مكسور الانف متشح برداء طويل وتسريحة شعره معرقة بخطوط سوداء ، كان ينتصب في الفناء الخلفي فوق النافورة ذات الاقنعة الممسوحة . وكانت الاسماك الرمادية تتثاءب في حوضها وسط الماء الطحلبي الفاتر ، وتراقب بعيونها المدورة أولئك الرجال ، السود على خلفية من سماء صافية ، الذين كانوا يذلون شموخ البيت الدنيوي .

جلس الرجل العجوز عند قدمي التمثال وعصاه تستند إلى ذقنه . كان ينظر إلى صعود ونزول الدلاء التي تحمل البقايا المعتبرة . كانت تسمع ، مكتومة ، همسات الشارع بينما كانت البكرات في الاعلى توافق صريرها ، الذي يشبه زقزقة طيور كريهة مصدورة ، مع ايقاع الحديد فوق الحجر .

دقت الساعة الخامسة . وخلت الافاريز والسطوح من العمال . لم تبق سوى سلالم يدوية تعد العدة للهجوم في اليوم التالي . أصبح الهواء أكثر انعاشاً ، اذ انه تخفف من العرق ، والتجديفات ، وصرير الحبال ، والمحاور التي تحتاج للتزييت ،والصفعات التي تنزل على الابدان الممتلئة . وجاء الغسق مبكراً بالنسبة للبيت المقشور . لقد اكتسى بالظلال في ساعات كان بها درابزينه العلوي الذي انتزع يوصل عادة إلى الواجهات الحجرية بعض ومضات ضوء الشمس . وضغطت سيريس شفتيها . ولأول مرة نامت الحجرات دون ستائرها ، مفتوحة على مشهد الانقاض .

كانت تيجان الاعمدة ملقاة مابين العشب دون رغبة منها . فيما كشفت أوراق أشواك الاقنثوس عن حالتها النباتية . وغامرت شجيرة لبلابية ومدت فروعها نحو الزخرفة اليونانية ، مدفوعة بذلك الاحساس الأسري . وعندما خيم الايل ، كان البيت أقرب إلى مستوى الأرض . وكان اطار أحد الابواب مايزال منتصباً في الاعلى ، مع ألواح من انظل معلقة بمفصلاته المضطربة .

— ٢ —

عندئذ قام العجوز الاسود ، الذي لم يتحرك من مكانه ، بحركات غريبة ، مقلباً عكازه فوق مقبرة البلاط .

فطارت مربعات المرمر السوداء والبيضاء عائدة إلى الارض لتغطي

التراب من جديد . وبقفزات واثقة عادت الاحجار لتسد الفجوات التي في الجدران . وألواح خشب الجوز المسمرة ثبتت نفسها في أطرها ، بينما عادت لوالب المفصلات لتغرس نفسها في ثقوبها ، بحركة لولبية سريعة ، ومن بين أكوام الحجارة الميتة ، وبمجهود من الورد ، جمعت قرميدات السطح أجزاءها المبعثرة ، وارتفعت في زوبعة طينية رنانة ، لتسقط كمطر فوق هيكل السطح . نما البيت ، وعاد ثانية إلى نسبه الاعتيادية ، قوياً ومكسواً . وصارت سيريس أقل رمادية . وتكاثر عدد الاسماك في بركة النافورة . وبعث خرير المياه نباتات بيجونيا منسية .

أدخل العجوز مفتاحاً في قفل البوابة الرئيسة ، وبدأ بفتح النوافذ . كان يصدر عن عقبيه صوتٌ أجوف . وعندما أضاء المصابيح عبرت رعشة صفراء من خلال زيت الصور العائلية وتمم أناس يرتدون السواد في كل الممرات مع ايقاع الملاعق المتحركة في أطباق الشيكولاتة .

كان دون مارثيال ، مركيز كابيلانياس ، يرقد على فراش الموت ، وصدره مدرع بالنياشين والاوسمة ، تحرسه أربع شموع لها لحى طويلة من الشمع الذائب .

— ٣ —

كبرت الشموع ببطء ، وزالت عنها قطرات العرق . وعندما استعادت حجمها الطبيعي ، قامت راهبة باطفائها مبعدة الشعلة . أصبحت فتائل الشموع بيضاء وتخلصت من أطرافها المحترقة . خلا البيت من الزائرين وغادرت العربات في الليل. ضغط دون مارثيال على لوحة مفاتيح غير مرئية وفتح عينيه .

وباضطراب وهرج ومرج أخذت دعائم السقف تحتل مكانها .

وكذلك قوارير الدواء ، وأنسجة الدمقس ، والايقونة التي فوق السرير ، والصور القديمة ، وقضبان سياج الشرفة كلها ظهرت من بين الضباب . وعندما هز الطبيب رأسه بمواساة حرفية ، أحس المريض بتحسن حاله . ونام بضع ساعات ثم استيقظ وهو تحت نظرة الاب اناستاسيو السوداء والمقطبة . وانقلب الاعتراف بعد أن كان صريحاً ، مفصلاً ومليئاً بالخطايا ليصبح مكتوماً ، عسيراً ، ومليئاً بالتستر . فأي حق – في نهاية المطاف – يملكه ذلك الاب الكرملي للتدخل في حياته ؟ وفجأة ، وجد دون مارثيال نفسه مطروحاً وسط الحجرة . ونهض بسرعة مذهلة بعد أن انزاح ثقل كان يجثم على صدغيه . والمرأة العارية التي كانت تتمطى فوق بروكار الفراش بحثت عن تنوراتها الداخلية ومشدات صدرها ، وحملت معها بعد قليل ، هفهفة حريرها المكبس وعطرها العابق . وفي الاسفل ، في العربة المغلقة ، فوق مسامير المقعد الصغير ، كان مغلف يحتوي على قطع عملة ذهبية .

لم يكن دون مارثيال يشعر بأنه في حالة جيدة . وفيما هو يعقد ربطة عنقه أمام المرآة المستديرة التي على الجدار ، رأى نفسه محتقناً . نزل إلى المكتب ، حيث كان بانتظاره رجال قضاء ، ومحامون ، وكتّاب بالعدل ليقوم بعرض البيت للبيع في مزاد علني . كل شيء كان بلا فائدة . ستذهب ممتلكاته إلى المزايد الذي سيدفع أعلى مبلغ على نغمة ضربات المطرقة فوق المنضدة . حياهم وتركوه وحيداً . كان يفكر في أسرار الحرف المكتوب على هذه الخيوط السوداء التي تنعقد وتنفلت فوق صفائح الموازين الرومانية المخرمة ، ناسجة ومفلتة وعوداً ، وعهوداً ، واتفاقيات ، وشهادات ، واقرارات ، وألقاب ، ومناصب ، وتواريخ وأراض ، واشجار ، وحجارة . فتيلة من الخيوط ، مستخرجة من دواة

الحبر ، تكبل ساقي الانسان ، وتحظر عليه دروباً يرفضها القانون ، مكونة انشوطة حول العنق ، تضغط على حنجرته لدى الشعور بالصوت الرهيب للكلمات التي كانت تخرج بحرية . لقد خانه توقيعه ، لانغماسه في عقلة وتشابكات رزمة الاوراق والوثائق . والانسان الذي من لحم اذ يتقيد بها يغدو انساناً من ورق .

كان الوقت فجراً . وساعة غرفة النوم دقت لتوها معلنة الساعة السادسة بعد الظهر .

— ٤ —

ومرت شهور من الحداد ، مكللة بشعور متزايد من الندم . وبدت له فكرة المجيء بامرأة اخرى إلى غرفة النوم تلك أمراً معقولاً في البدء ، لكن الحاجة إلى جسد جديد أخذت تتحول شيئاً فشيئاً إلى مخاوف متزايدة وصلت إلى حد الآفة . وفي ليلة من الليالي ، فصد دون مارثيال الدم من لحمه بواسطة الحزام ، أحس بعدها بشهوة أكثر الحاحاً ، لكنها دامت لمدة قصيرة . وفي تلك الاثناء ، كان ان رجعت المركيزة من نزهتها على شاطىء المينداريز . ولم تكن نواصي خيول العربة أكثر رطوبة من عرقها ذاته . لكنها راحت ، وطول بقية ذلك اليوم ، ترفس بقوائمها ألواح الاسطبل الخشبية ، وكأن ثبات الغيوم الواطئة قد استثارها .

وعند الغسق ، انكسر دن فخاري مليء بالماء في حوض استحمام المركيزة . ثم طفح الصهريج بأمطار أيار بعد ذلك . وكانت تلك العجوز السوداء التي تحمل دنس العبيد الفارين ، والتي كانت تخفي الحمائم تحت سريرها ، تسير في الفناء وهي تتمتم : « اياك والثقة بالانهار ياطفلتي ، إياك والخضرة الجارية ! » ولم يكن يمضي يوم إلاّ وكان الماء يكشف فيه

عن حضوره . لكن هذا الحضور لم يعد في النهاية إلا فنجاناً سكبت محتوياته على فستان مجلوب من باريس ، لدى العودة من الحفل السنوي الراقص الذي أقامه القائد العام للمستعمرة .

وعاد أقارب كثيرون للظهور . ورجع أصدقاء كثيرون . وشعت ثريات الصالون الكبيرة بضوء ساطع . وأخذت شقوق واجهة البناء تلتئم . وعاد البيانو ليصبح كلافيكورديو . وفقدت أشجار النخيل بعض حلقاتها . وأفلتت الشجيرات المتسلقة الافريز الاول . وصار محيط عيني تمثال سيريس أكثر بياضاً ، وبدت تيجان الاعمدة وكأنها نحتت حديثاً . ومارثيال الذي أصبح أكثر حيوية اعتاد على قضاء امسيات بكاملها في عناق المركيزة ومداعبتها . التجعيدات التي حول العينين والتغضنات التي في الوجه امحت ، وعاد اللحم إلى تماسكه وصلابته . وملأت البيت في أحد الايام رائحة طلاء طازجة .

— ٥ —

كان احمرار الخدين صريحاً. وفي كل ليلة كانت صحائف الحواجز الحائطية تزداد انفتاحاً بعض الشيء ، والتنورات تسقط في الاركان الأقل اضاءة مكونة حواجز اخرى من الدنتيلا . واخيراً نفخت المركيزة لتطفىء المصابيح . وتكلم وحده في الظلام .

انطلقا إلى معصرة قصب السكر في قافلة من عربات الحنطور — الملتمعة بأرداف الخيول الشقراء ، وبقطع الفضة والاصبغة تحت الشمس . ولكن ، في ظل ازهار الباسكوا التي كانت تضفي احمراراً على الرواق الداخلي للمسكن ، أدركا بأن أحدهما لايكاد يعرف الآخر . وسمح مارثيال برقصات لاناثيون وطبولها ، ليروح قليلاً عن نفسه في تلك الأيام

العابقة بروائح عطور الكولونيا ، وحمامات اللبان الجاوي ، ولمم الشعر المشعث ، والشراشف المستخرجة من خزائن تسقط منها لدى فتحها مطرقة من خشب الفيتيفير . كان بخار خمر القصب يدور في النسيم مع ناقوس الصلاة . وأنبأت النسمات الواطئة بالامطار المكتومة ، التي امتص قرميد السطوح الجاف قطراتها الاولى الكبيرة والصاخبة فكان لسقوطها رنة كرنة النحاس . وبعد فجر أطاله عناق لا رشاقة فيه ، سويت خلافاتهما ، واندمل الجرح ، فعادا كلاهما إلى المدينة . واستبدلت المركيزة ، ثياب السفر ببدلة عروس ، وكما هي العادة مضى الزوجان إلى الكنيسة ليستعيدا حريتهما . ثم أعادا الهدايا إلى الاقارب والاصدقاء . ووسط هرج ومرج البرونز وزهو الخيول الفاخرة ، اتخذ كل منهما طريقه إلى بيته . تابع مارثيال زيارة ماريا دي لاس ميرسيدس لفترة من الزمن استمرت إلى اليوم الذي أخذت فيه خواتم الخطوبة إلى مشغل الصائغ لازالة الحروف المحفورة عليها . وبدأت بالنسبة لمارثيال حياة جديدة . واستبدل تمثال سيريس الذي في البيت ذي الشرفات العالية بتمثال لفينوس ايطالية ، والأقنعة المحفورة على حجارة النافورة أبرزت نقوشها قليلاً حين رأت أن المصابيح مازالت مضاءة ، مع أن الفجر قد لون السماء .

— ٦ —

وفي احدى الليالي ، وبعد أن شرب بكثرة وداخ بسبب رائحة التبغ البارد التي خلفها أصدقاؤه راود مارثيال شعور غريب بأن كل الساعات التي في البيت كانت تدق معلنة الخامسة ، ثم الرابعة والنصف ، وبعدها الرابعة ، ثم الثالثة والنصف . . . كان ذلك وكأنه ادراك ناء لاحتمالات أخرى . مثلما يفكر المرء ، في وهنه الليلي ، بأنه قادر على السير على

السقف . كان انطباعاً خاطفاً ، لم يترك أي أثر في روحه التي انتقلت قليلاً إلى التأمل الآن .

كان هناك احتفال كبير في صالة الموسيقى بمناسبة بلوغه سن القصور . وأحس بالسعادة عندما فكر بأنه لم تعد لتوقيعه أية قيمة قانونية ، وبأن السجلات والبيانات ، المليئة بالعث ، أخذت تمحي من عالمه . كان يصل إلى النقطة التي تصبح فيها المحاكم غير مخيفة لأولئك الذين لهم لحوم تزدريها القوانين . وبعد أن توهج الشبان بأنواع النبيذ الكريمة ، نزعوا جيتاراً مطعماً بالصدف كان معلقاً على الجدار ، وقانوناً ،ومزماراً . وأخذ أحدهم بتعبئة الساعة التي عزفت موسيقى تيروليسا البقرات وأغنية البحيرات الاسكتلندية. ونفخ آخر في بوق صيد كان يرقد ملتفاً في علبته النحاسية ، فوق فرشة من اللبد الاحمر ، إلى جانب المزمار المستعرض المجلوب من ارانخويث. ومارثيال الذي كان يغازل فتاة الكمبو فلوريدو بوقاحة اشترك في الضجة أيضاً باحثاً في المفاتيح عن لحن: تريبلي — ترابالا. ثم صعدوا جميعاً إلى العلية وقد تذكروا فجأة بأنه هناك ، تحت دعائم آخذة باسترداد طينتها ، تحفظ بذلات وملابس **بيت كابيليانياس** . وعلى رفوف تعبق بالكافور كانت تقبع بدلات البلاط ، وسيف السفراء ، وعدد من السترات العسكرية المزينة ، وجبة أمير الكنيسة ، ومعاطف عسكرية ذات أزرار من الدمقس وخطوط من الرطوبة في مواضع طيها . موشحة الظلمة بشرائط من السواد ، وتنورات داخلية صفراء ، وعباءات ذاوية وأزاهير مخملية . زي حداد له شبكة صغيرة من الشرابات ، مصنوع لحفلة كرنفال تنكرية ، نهض مصفقاً . فكورت فتاة كمبو فلوريدو كتفيها الملوثين بالغبار تحت شال له لون اللحم الكريولي ، ربما كان ذا

نفع لإحدى الجدات ، في ليالي الحفلات العائلية الكبرى ، لاعادة التأجج إلى النار الساكنة لمترهب من شيعة الكلاريا .

عاد الشبان متنكرين إلى صالة الموسيقى . ومارثيال الذي كان يضع على رأسه قبعة عضو من أعضاء المجلس التشريعي ، ضرب الارض ثلاث مرات بعصاه ، ليعلن ابتداء رقصة الفالس، التي كانت الامهات يجدن فيها رقصة لاتليق بالآنسات ، لما يتخللها من ملامسة للخاصرة ، ومن وضع ليد الرجل على حمالات الكورسيه التي صنعنها جميعاً وقتذاك حسب نموذج « حديقة الموضة » الأخير . كانت الأبواب تزدحم بالجواري وسائسي الخيل والخدم الذين جؤوا من أماكن استخدامهم البعيدة ، ومن الأقبية الخانقة ، ليبدوا اعجابهم ودهشتهم بهذا الاحتفال الصاخب . ثم أخذوا يلعبون لعبة الاستغماية . فاختفى مارثيال مع فتاة الكمبو فلوريدو خلف الستارة الصينية وطبع قبلة على عنقها ، وتلقى بالمقابل منديلاً معطراً ، كان تطريزه البروكسيلي يحتفظ ببعض الدفء الناعم من صدرها . وعندما ابتعدت الفتيات مع أضواء الغسق ، ومضين نحو المراصد والحصون التي كانت ظلالها تلون البحر بلون رمادي مائل إلى السواد ، مضى الشبان إلى قاعة الرقص حيث كانت تختال الفتيات الخلاسيات ذوات الأساور الكبيرة ، دون ان يفقدن أبداً — ومهما كانت الرقصة عنيفة — أحذيتهن عالية الكعوب . ومن وراء جدار مجاور ، في ساحة مزروعة بأشجار الرمان كانت جماعة (الكابيلدو ارارا تريس أوخوس) تطلق رعوداً بالعزف على طبولها ، وكأنها في موسم الكرنفال . وصعد مارثيال وأصدقاؤه على الطاولات والكراسي ليثنوا على رشاقة زنجية ذات شعر رمادي مفتل ، كانت تبدو رائعة الجمال ، بل ومشتهاة ، عندما تنظر من فوق كتفها ، وهي ترقص بايماءات تحد مترفعة .

أخذت زيارات دون ابونديو ، الكاتب بالعدل ، ووصي العائلة بالازدياد . كان يجلس بوقار قرب رأس سرير مارثيال ، ضارباً بعصاه ، التي من خشب الاكانا على الارض ليوقظه قبل الأوان . وما ان يفتح هذا عينيه حتى يقع بصره على معطف من قماش الألباكا تكسوه قشرة الرأس ، معطف جمعت أكمامه اللامعة سندات وايرادات . بقي منها اخيراً معاشٌ معقولٌ ، يتوجب عنده وضع حد لاي نوع من انواع الحماقات . وحينئذ كان ان قرر مارثيال الانضمام إلى معهد سان كاراوس الملكي .

وبعد امتحانات ليست ذات شأن ، أخذ يتردد على الاديرة ، متفهماً أقل فأقل شروحات مؤدبيه . وكان عالم الافكار يقفر شيئاً فشيئاً . وما كان في البداية ندوة مسكونة بالعباءات الجامعية ، والجبات ، والقلائد والشعور المستعارة ، وبالمتجادلين والمتحاورين ، اكتسب الآن سكون متاحف التماثيل الشمعية . لقد قنع مارثيال الآن بالعرض المدرسي للانظمة ، ورضي بجودة ما يقوله أي نص . وكان يقرأ فوق الرسوم التوضيحية في كتاب التاريخ الطبيعي كلمات : « أسد » ، « نعامة » ، « حوت » ، « جاكوار » . وبنفس الطريقة كانت أسماء « ارسطو » ، « القديس توما » ، « بيكون » ، « ديكارت » ، تتصدر الصفحات السوداء حيث تصنف التفسيرات المملة للكون ، على هامش الفصول المكثفة . وشيئاً فشيئاً تخلى مارثيال عن دراستها وأحس انه قد تحرر من عبء ثقيل . أصبح ذهنه مرحاً ورشيقاً عندما تقبل مفهوماً فكرياً للاشياء فقط . ولماذا التفكير بالموشور بينما ضوء الشتاء الواضح يبرز تفاصيل أكبر لحصون الميناء ؟ فتفاحة تسقط من شجرة ليست سوى اغراء للاسنان .

وقدم في حوض حمام لن تتجاوز ان تكون سوى قدم في حوض حمام . في اليوم الذي ترك فيه المعهد ، نسي الكتب تماماً . فاستعاد العفريت خاصيته الجنية ، وأصبح الطيف مرادفاً للشبح ، والشكل المثمن كان حشرة ملسعة ، لها أشواك على ظهرها .

لقد مضى مراراً عديدة ، يمشي مسرعاً ، وبقاب قلق ، ليزور النساء اللواتي يهمسن من وراء الابواب الزرقاء ، عند أقدام الجدران . ان ذكرى تلك التي كانت تلبس حذاء مطرزاً وتضع فوق أذنها أوراق الريحان مازالت تطارده ، في الظهيرات الحارة ، كألم الاسنان . لكن غضب وتهديدات كاهن الاعتراف في أحد الايام جعلته يبكي هلعاً . لقد سقط لآخر مرة بين شراشف الجحيم ، متخلياً نهائياً عن جولاته في الشوارع التي لايرتادها الاقلة من الناس ، وعن جبنه في اللحظة الاخيرة الذي كان يجعله يعود إلى البيت غاضباً بعد أن يدير ظهره لرصيف ما مشقق ـ اشارة إلى نصف الاستدارة التي عليه ان يقوم بها ليطأ عتبة العطورات ، فيما هو يسير مطرقاً .

انه يعيش الآن ازمته الصوفية ، المسكونة بالايقونات ، وقرابين الفصح ، والحمائم الخزفية ، وصور للسيدة العذراء بازار ازرق سماوي ، ونجوم من اوراق ملونة ، وملوك المجوس ، وملائكة بأجنحة البجع ، والجحش ، والثور ، وهيئة رهيبة للقديس ديونيسو ، الذي كان يظهر له في الاحلام بفجوة كبيرة بين كتفيه ومشية مترددة كمشية من يبحث عن شيء فقده . كان مارثيال يصطدم بالسرير ويستيقظ فزعاً ، ويلقي بيده اليمنى على السبحة ذات الخرزات الصماء . وتشع فتائل المصابيح الزيتية بضوء حزين على الصور التي كانت تستعيد لونها الأول .

كان الاثاث يكبر . وأصبح من العسير عليه أكثر فأكثر اسناد ذراعيه على حافة مائدة حجرة الطعام . وغدت الخزائن ذات الاطر المنقوشة أكثر اتساعاً من الامام . وكان مغربيو السلم ، الذين يمدون اجسادهم ، يقربون مشاعلهم من درابزين قرص الدرج . وكانت الآرائك أكثر تقعراً ، والكراسي الهزازة أصبحت تميل إلى الوراء . ولم يعد بحاجة إلى ثني ساقيه عند استلقائه في قاع حوض الحمام المزين بحلقات مرمرية .

وفي صباح أحد الأيام ، بينما كان مارثيال يقرأ كتاباً فاسقاً ، أحس فجأة برغبة إلى اللعب بالجنود المصنوعين من الرصاص الذين يقبعون في صناديقهم الخشبية . أخفى الكتاب من جديد تحت المغسلة ، وفتح درجاً مختوماً بنسيج العنكبوت . لقد كانت طاولة الدراسة أصغر من أن تتسع لمثل هذا العدد من الناس ، ولهذا جلس مارثيال على الارض . وضع رماة القنابل اليدوية في صفوف ثمانية . ثم الضباط الخيالة حول حامل الراية ، ووراءهم حملة فراشي تنظيف المدافع وفتائل المدفعية . وفي المؤخرة نافخي الابواق وقارعي الطبول مع موكب العازفين . وكانت مدافع الهاون مزودة بنابض يمكنها من رمي الكرات الزجاجية عن بعد أكثر من متر .

— بوم ! . . . بوم ! . . . بوم ! . . .

هوت جياد ، وتساقطت طبول . وكان ان ناداه الزنجي « اليخيو » ثلاث مرات ، إلى ان حسم امره وقرر غسل يديه والنزول إلى قاعة الطعام .

منذ ذلك الوقت واظب مارثيال على عادة الجلوس على الارضية المبلطة . وعندما أدرك فوائد هذه العادة ، تعجب لانها لم تخطر له من قبل .

ان الاشخاص البالغين يتعرقون كثيراً لادمانهم الجلوس وسط الوسائد المخملية . وتنبعث من بعضهم رائحة الكاتب بالعدل ـ مثل دون ابونديو ـ لانهم لايعرفون شيئاً عن برودة المرمر عندما يستلقي عليه جسد المرء في أي وقت من الاوقات . ومن الارض وحدها يمكن الاحاطة بمنظور وزوايا الحجرة كلها . ثمة جمال في الخشب ، ومسارات غامضة تذرعها الحشرات ، واركان مظلمة تبقى مجهولة بالنظر إليها من علو المرء وهو واقف . وعندما يهطل المطر . كان ماريثيال يختبيء تحت بيانو الكلافيكورديو . وكانت كل قصفة من الرعد تجعل صندوق الموسيقى يهتز عازفاً كل الالحان . وكانت الصواعق تهوي من السماء لتصنع ذلك القبو الموسيقي ـ أرغن ، أشجار صنوبر تموج مع الريح ، ومندولين الجنادب .

ـ ٩ ـ

في ذلك الصباح حبسوه في حجرته . سمع تمتمات في جميع انحاء البيت والغداء الذي قدموه له كان لذيذاً ومغذياً أكثر من الغداء الذي يقدم في أيام الاسبوع العادية . كانت هناك ست قطع من الحلوى من دكان ألاميدا ، بينما لم يكن بالامكان الحصول على أكثر من قطعتين في أيام الآحاد بعد القداس . كان يتسلى بتأمل صورة مطبوعة ، إلى أن جعله الازيز المتصاعد ، الذي كان يدخل من تحت الأبواب ، ينظر من بين الستائر . كان هناك رجال يأتون مرتدين ملابس سوداء ، ويحملون صندوقاً ذا مقابض برونزية . أحس برغبة في البكاء ، لكن الحوذي ميلتشور ظهر في تلك اللحظة ، وأسنانه تلتمع بابتسامة فوق الحذاء ذا الصرير الذي يلبسه . بدأ يلعب الشطرنج . لعب ميلتشور دور الحصان ، وكان هو الشاه . اتخذا من بلاط الارضية رقعة للشطرنج . كان بامكانه

التقدم من بلاطة إلى أخرى مجاورة ، بينما كان على ميلتشور ان يقفز بلاطة إلى الامام واثنتين إلى أحد الجانبين ، أو العكس . استمر اللعب إلى مابعد الغسق ، عند مرور اطفائية التجارة .

عندما استيقظ ، ذهب ليقبل يد والده الذي كان يرقد على فراش المرض . كان المركيز يشعر بتحسن ، في هيئته وعباراته المعتادة . « نعم ياأبتاه » و « لايا أبتاه » كانتا تندغمان بين كل مجموعة واخرى من سبحة الأسئلة ، مثل أجوبة الشماس في القداس . كان مارثيال يحترم المركيز ، انما لاسباب لم يستطع أحد أن يخمنها . كان يحترمه لانه كان طويل القامه وكان يخرج ، في الحفلات الليلية الراقصة ، وصدره يسطع بالاوسمة ، ولانه كان يحسده على سيفه وعلى شارات ضابط الميليشيا التي فوق كتفيه ، ولانه أكل ، في عيد الفصح ، ديكاً رومياً كاملاً ، محشواً باللوز والزبيب ، وكسب بذلك رهاناً ، ولانه أمسك في احدى المرات بخلاسية من اولئك اللواتي كن يكنسن القاعة وحملها بين ذراعيه إلى حجرته ، ليقوم بجالدها دون ريب . لقد اختبأ مارثيال وراء احدى الستائر ، ورآها تظهر بعد وقت قصير ، باكية ومفتوحة أزرار ملابسها ، وفرح لمعاقبتها ، لانها هي التي كانت تفرغ دائماً صحون المربى التي تعاد إلى الخزانة .

كان الأب كائناً رهيباً وشهماً وكان عليه ان يحبه بعد الله . ولقد كان بالنسبة لمارثيال رباً أكثر من الرب نفسه ، لأن عطاياه كانت يومية وملموسة . لكنه كان يفضل رب السماء ، لانه كان أقل تدخلاً في شؤونه .

— ١٠ —

عندما كبر حجم الاثاث قليلاً وعرف مارثيال كما لم يعرف أحد سواه ماهو موجود تحت الاسرة ، والخزائن ، والمكتبات ، أخفى عن

الجميع سراً خطيراً : ليس للحياة جاذبية بعيداً عن حضور الخوذي ميلتشور . فلا الرب ، ولا والده ، ولا الاسقف المذهب في مواكب الجسد ، كانوا على درجة من الاهمية تساوي أهمية ميلتشور .

لقد جاء ميلتشور من مكان ناء . كان حفيداً لامراء مهزومين . وفي مملكته كانت توجد أفيال ، وأفراس بحر ، ونمور وزرافت . والرجال لايعملون هناك ، كما يعمل دون ابونديو ، في حجرات مظلمة مليئة بالاوراق . وكانوا يحيون لانهم اذكى من الحيوانات . وقد سحب أحدهم تمساح البحيرة الزرقاء الاعظم ، بان أدخل إلى جوفه رمحاً مخبأ في أجساد اثنتي عشرة أوزة مشوية وملتصقة ببعضها بعضاً . وكان ميلتشور يعرف أغاني سهلة الحفظ ، لانه لم يكن لكلماتها من معنى وكانت تتكرر كثيراً . وكان يسرق الحلوى من المطبخ ، ويهرب ليلاً عبر بوابة الاسطبلات . وفي احدى المرات ، قذف رجال الحرس الاهلي بالحجارة ثم أختفى في عتمة شارع امارغورا .

وفي الايام الماطرة، كانت جزمته توضع بجانب موقد المطبخ لتجف. وكان مارثيال يتمنى لو كانت له قدمان تملآن مثل تلك الجزمة . اليمنى منها كانت تدعى **كالامين** . وتدعى اليسرى **كالامبان** . وذلك الرجل الذي كان يروض الخيول الجموحة بوضع اصبعين من اصابعه على شفاهها السفلية فقط، ذلك السيد الذي يرتدي المخمل والمهاميز، ويضع قبعات عالية جداً، كان يعرف أيضاً مدى برودة الارض المرمرية في الصيف ، وكان يخفي حبة فاكهة أو قطعة حلوى مسروقة من الاطباق المخصصة للصالون الكبير . كان لمارثيال وميلتشور مخبأ سري مشترك مليء بالاقراص واللوز يسميانه « اوري، اوري ، اورا » وهما يضحكان ضحكات ذات دلالة . لقد استكشفا معاً البيت من اعلاه إلى أسفله ، وكانا الوحيدين اللذين

يعرفان بوجود سرداب صغير مليء بالقوارير الهولندية تحت الاسطبلات وبوجود اثنتي عشرة فراشة مغبرة قد فقدت اجنحتها في صندوق زجاجي مكسور يقبع في عليّة مهجورة فوق حجرات الخادمات .

— ١١ —

عندما اكتسب مارثيال عادة كسر الأشياء ، نسي مياتشور وأخذ يتقرب من الكلاب. كانت هناك تشكيلة من الكلاب . أحدها منقط ضخم وكلبة صيد مترهلة الاثداء ، وكلب ساوقي أصبح كبيراً على اللعب ، وكلب كثيف الفرو كانت الكلاب الاخرى تطارده في مواسم معينة ، مما يدفع الخادمات إلى حبسه .

كان مارثيال يفضل الكلب « كانياو » لانه يسحب الاحذية من الحجرات ويحفر عن شتلات الورد في الفناء . وهو دائماً أسود اللون بسبب الفحم أو مكسو بالتراب الاحمر ، يلتهم طعام الكلاب الأخرى ، وينبح بلا أي سبب ويخبىء العظام المسروقة عند حافة النافورة . ومن حين لآخر ، كان يفرغ بيضة ، وضعت لتوها ، من محتوياتها بعد أن يقذف الدجاجة التي وضعتها في الهواء بحركة سريعة من مقدمة فمه . كان الجميع يرفسون كانيلو . لكن مارثيال كان يمرض اذا هم اخذوا الكلب بعيداً . فيعود الكلب منتصراً ، ماوحاً بذيله بعد أن يكون قد تُرك مهجوراً فيما وراء المؤسسة الخيرية ، مستعيداً بذلك موقعاً لم تستطع الكلاب الاخرى ، بالرغم من مهاراتها في الصيد والحراسة ، الوصول إليه .

كان كانياو ومارثيال يبولان سوية . ويختاران في بعض الاحيان سجادة صالة الاستقبال العجمية ليرسما على صوفها أشكال غيوم شاحبة تتسع ببطء . وكان هذا يكافهما ضرباً بالسوط . لكن الجلد بالسوط لم

يكن مؤلماً بالقدر الذي يتصوره الكبار . بل كان بالمقابل ذريعة عجيبة لافتعال وصلات من العويل ، واستثارة عطف الجيران . وعندما اعتبرت المرأة الحولاء التي في العليّة أباه « متوحشاً » ، نظر مارثيال إلى كانيلو وضحك بعينيه . وكانا يبكيان أكثر قليلاً ليحصلا على قطعة من البسكويت ، ثم يُنسى كل شيء . كلاهما كان ياكل التراب ، ويتعفر تحت الشمس ، ويشرب من حوض الاسماك ، ويبحث عن الظل والرائحة العطرة قريباً من الحبق . وفي ساعات الحر الشديد ، كانت الاحجار الرطبة تزدحم بالناس . وكانت هناك الأوزة الرمادية ، ذات الجراب المتدلي من بين ساقيها المعوجتين ، وكان كذلك الديك العجوز المنتوف المؤخرة ، والحرباء التي تقول « اورى ، اورا » ، وتطاق من عنقها رباطاً وردياً ، والثعبان الذي ولد في مدينة لاإناث فيها ، والجرذ الذي كان يسد جحره ببذرة من شجرة الكاري . وفي أحد الايام احضروا الكاب إلى مارثيال ، فقال :

– غواو ، غواو !

لقد كان يتكلم لغته الخاصة . لقد أدرك الحرية العليا . وكان يريد أن يصل ، بيديه ، إلى أشياء موجودة خارج متناول يديه .

– ١٢ –

جوع ، عطش ، حر ، ألم، برد ، ماكاد مارثيال يدرك احساسه بكل هذه الوقائع الاساسية ويفقده ، حتى تخلى عن الضوء الذي صار امراً ثانوياً بالنسبة له . كان يجهل اسمه . وبعد أن تجرد من التعميد ، وملحه المزعج ، لم يعد بحاجة إلى الشم ، ولا السمع ، أو البصر . كانت يداه

تلامسان أشكالاً ممتعة . لقد غدا كائناً حسياً ولمسياً تماماً . كان الكون ينفذ إليه من جميع مساماته . عندئذ أغمض عينيه اللتين ماعادتا تميزان الا عمالقة ضبابيين ونفذ إلى جسم دافىء ورطب مليء بالظلام ، حيث مات وحين أحس ذلك الجسم بوجوده مغلفاً بمادته الخاصة، انزلق نحو الحياة.

لكن الزمن جرى الآن بسرعة أكبر ،مقلصاً حجم ساعاته الاخيرة . كانت الدقائق تلق كانزلاق أوراق اللعب تحت ابهام المقامر .

الطيور عادت إلى البيضة وسط زوبعة من الريش . والاسماك تخثرت في بيوضها تاركة خلفها عاصفة من الحراشف السمكية التي تراكمت في قاع البركة . وطوت أشجار النخيل إسعفها لتختفي في الارض كمراوح يدوية مغلقة . وابتلعت الاغصان أوراقها والتهمت الارض كل ماهو منها . صوت الرعد تردد في الممرات . ونما الشعر على جلود القفازات . والبطانيات الصوفية تحللت لتكسو الخراف البعيدة المسلوخة . والخزائن ، ورفوف المكتبات ، والاسرة ، والصلبان ، والموائد ، والنوافذ كلها خرجت طائرة في الليل باحثة عن جذورها القديمة بين الغابات . وكل ما فيه مسامير أخذ يتفكك . وسفينة لايعرف أحد أين كانت ترسو ، حملت بسرعة خاطفة كل مرمر الارضية والنافورة عائدة به إلى إيطاليا . معدات القتال ، والادوات الحديدية ، والمفاتيح ، والقدور النحاسية ، وألجمة الخيول في الاسطبلات ، ذابت كلها لتملأ نهراً معدنياً يندفع في ممرات بلا سقوف ليدخل في شروخ متجهة نحو باطن الارض . كل شيء تحول وعاد إلى وضعه البدائي . الطين عاد طيناً ، مخلفاً خلاء مقفراً مكان القصر .

عندما جاء العمال في الصباح ليستأنفوا عملية الهدم ، وجدوا العمل منجزاً . وكان شخص ما قد أخذ تمثال سيريس ، الذي بيع في اليوم السابق إلى تاجر تحفيات . وبعد أن قدموا شكوى ضد النقابة ، ذهب الرجال ليجلسوا على مقاعد المنتزه البلدي . وعندئذ تذكر أحدهم قصة غامضة عن مركيزة من كابيلانياس ، كانت قد غرقت في عصر يوم من أيام آيار بين ازهار المالانغا في نهر الميندايس . لكن أحداً لم يعر الحكاية اهتمامه ، لأن الشمس كانت ترحل من الشرق إلى الغرب ، والساعات التي كانت تنمو إلى الجهة اليمنى من الساعات ستكون أطول دون شك بسبب الكسل ، وهو الذي سيقود حتماً إلى الموت .

ترجمة : صالح علماني



اونيليو خورخي كاردوسو
«كوبا»

* ولد في مقاطعة لاس بياس الكوبية عام ١٩١٤ .

* تلقى دراسته الابتدائية في قريته ، ثم تابع دراسته الاعدادية في مدينة سانتا كلارا .

* في عام ١٩٣٦ ، نال الجائزة الأولى في مسابقة للقصة القصيرة نظمتها مجلة « سوثيال » عن قصته « المعجزة » . وقد أشار المؤلف نفسه فيما بعد إلى نقاط ضعف عديدة في قصته الفائزة . لكن حصوله على هذه الجائزة شجعه على الاستمرار في كتابة القصة القصيرة .

* مارس مهنا متنوعة ، إلى أن انتهى للعمل ككاتب نصوص اذاعية .

* في عام ١٩٥٢ ، نال الجائزة الوطنية للسلام عن قصته « حديد قديم » .

* يعمل حالياً كملحق ثقافي في السفارة الكوبية في البيرو .

* من أبرز أعماله القصصية :

- أبي ، قل لي كيف ... (قصص قصيرة) ١٩٤٥
- الراوي (قصص قصيرة) ١٩٥٨
- كنت سائراً (قصص قصيرة) ١٩٦١
- الميتة الاخرى للقط (قصص قصيرة) ١٩٦٤
- أناس من الريف (تحقيقات صحفية) ١٩٦٢
- الخيط والحبل (قصص قصيرة) ١٩٧٤

فرانسيسكا والمنية

« إلى الشاعر ، الرفيق والصديق
المولد في بيترو زاد نيبرن ، الذي
حكى لي عن جواب امه هذا »

ــ صباح الخير ــ قالت المنية ، ولم يتمكن الحاضرون من التعرف عليها . بالطبع ، فقد جاءت تخفي جديلتها تحت القبعة ويدها الصفراء داخل جيبها .

ــ أرجو ألا ازعجكم ، ولكن هلا دللتموني على بيت السيدة فرانسيسكا ؟

ــ انظري ــ قالوا لها ، فقد أطل أحدهم من الباب وأشار باصبع الفلاح الغليظة :

ــ هناك ، حيث قصب السكر العالي الذي تعصف به الرياح ، اترين ؟ ستجدين طريقاً تصعد التل . تقع الدار عند القمة .

فكرت المنية : « لقد نفذت المهمة » ومضت في الطريق المذكور بعد أن شكرت الحاضرين ، في صباح شحت غيوم سمائه وسطعت زرقته نوراً .

ألقت نظرة على الساعة وهي سائرة فألفتها السابعة صباحاً . ستحل نهاية السيدة فرانسيسكا في الواحدة والربع من بعد الظهيرة .

« لحسن الحظ ان العمل قليل : حالة واحدة . » قالت المنية لنفسها راضية ، وتابعت المسير في الطريق المحاطة بالزعتر وبالندى . وفعلاً ، فقد كان شهر أيار ، والامطار التي هطلت قبل ذلك لم تكن لتسمح للبذور البرية وللسويقات من البقاء تحت الارض دون ان تخرج للشمس . كانت أغصان السنابل الوليدة كشجرة السيبا كالكاوبا * الشفافة . وجذع الجوافة يطلق قشرته في مواضع متباعدة، مظهراً اللحم النظيف للخشب . لم تحوِ حقول السكر ورقة واحدة صفراء . اخضر كل شيء، من الأرض حتى الهواء ، والازهار تعبق برائحة الحياة . من الطبيعي ان تغلق المنية أنفها ومن المنطقي كذلك ألا تنظر إلى وفرة الاغصان المليئة بالاعشاش ، أو إلى النحلات وأزهارها .

وما العمل فليست هذه مملكة المنية ، وقد جاءت عابرة سبيل .

وهكذا اذا ، مشت المنية في الطرقات، حتى وصلت دار فرانسيسكا.

— رجاء ، أريد مقابلة « بانتشيتا » ** قالت المنية .

— لقد خرجت جدتي باكراً — أجابت الحفيدة الذهبية، خائفة بعض الشيء على الرغم من بقاء الجديلة تحت القبعة واليد في الجيب .

سألت :

— وفي أي ساعة تعود ؟

---

* — السيبا والكاوبا : من الاشجار الاستوائية .

** بانتشيتا : لقب تحبب يطلق على من تحمل اسم فرانسيسكا .

قالت أم الطفلة :

— ومن يدري ؟ ذلك متعلق بمدى انشغالها . انها تعمل في الحقول .

عضت المنية شفتها ، وقد ضاقت ذرعاً من الدوران في هذا العالم الجميل الغريب .

— الشمس لافحة . هل بمقدوري انتظارها هنا ؟

— هذه دار كل قادم . لكنها قد لاترجع قبل المساء ، أو الليل .

« اللعنة » فكرت المنية « سأضيع قطار الخامسة . لا . يفضل البحث عنها » ثم رفعت صوتها قائلة :

— أين بالتحديد يمكنني لقاؤها الآن ؟

— خرجت مع الفجر لتحلب . انها الآن بالتأكيد في حقل الذرة ، تبذر .

— وأين يقع حقل الذرة ؟ — سألت المنية .

— اتبعي السور فتجدين الحقل المفلوح وراءه .

— شكراً — قالت المنية بجفاف وانطلقت ثانية . لكنها حملقت في الحقل المفلوح ولم تر أحداً . طيور مالك الحزين وحدها هناك . أفلتت جديلتها وقالت حانقة : « أيتها العجوز الشمطاء، أين أختبأت ؟ » .

بصقت وتابعت الطريق بدون وجهة محددة .

بعد ساعة من احتراق جديلتها وتقزز منخريها من رائحة الاعشاب الغضة ، التقت سائراً :

— أيها السيد ، هل بامكانك أن تدلني اين أجد فرانسيسكا ؟

– أنت محظوظة – قال السائر – انها منذ نصف ساعة في دار نورييغاس ، فالطفل مريض وراحت لتدلك بطنه .

– شكراً – قالت المنية ، وغذت في السير كالطلقة .

كانت الطريق قاسية ومرهقة . وهي تمضي الآن على أرض مفلوحة، ومعروف كم هو متعب السير على أرض غير مستوية وطرية كاسفنجة حيث يضيع نصف الجهد سدى .

وهكذا وصلت المنية كليلة إلى دار نورييغاس .

– أود مقابلة فرانسيسكا ، اعملوا لي هذا المعروف .

– لقد رحلت .

– وكيف ! هكذا ؟ بهذه السرعة ؟

– أية سرعة ؟ – أجابوها – : لقد جاءت لمساعدتنا بشأن الطفل ، وقد فعلت ، فلم الدهشة اذن ؟

– حسناً – قالت المنية محرجة – : عادة يرتاح المرء قليلاً بعد كل عمل يقوم به ، هذا ماأراه أنا .

– أنت لاتعرفين فرانسيسكا اذن .

– أعرف ملامحها – قالت المنية ببيروقراطية .

فقالت الام :

– وماهي ؟ قولي .

– انها . . . ذات تجاعيد . . وذلك طبيعي ، فقد بلغت الستين .

– وماذا أيضاً ؟

– ستون . . الشعر أبيض .. تكاد تفتقد الاسنان الطبيعية .. الأنف ، لنقل . .

– لنقل ماذا ؟

– حاد . .

– أهذا هو كل شيء ؟

– حسناً . . اضافة إلى الاسم و كنيتين . .

– لكنك لم تتحدثي عن عينيها .

– حسناً . . . ضبابيتان . . أجل ، لاريب أنهما ضبابيتان . . أضفت السنو ن عليهما مسحة دخانية .

– كلا . . لاتعرفينها . . كل مارويته صحيح ماعدا مايتعلق بالعينين . ان نظراتها أكثر شباباً ، ان التي تبحثين عنها ليست فرانسيسكا .

وخرجت المنية مرة أخرى إلى الطريق . كانت تمضي ساخطة ولم تأبه باليد التي خرجت من الجيب وبالجديلة التي أطلت قليلاً من تحت القبعة . سارت طويلاً ، وقالوا لها في دار غونثاليث ان فرانسيسكا على مرمى البصر تقطع الفصة من أجل بقرات أحفادها . لكن المنية لم تجد سوى فصة مقطوعة حديثاً ، ولم تر أثراً لفرانسيسكا .

كانت قدما المنية قد تورمتا داخل الحذاء الملطخ بالوحل ، وقد ابتل قميصها الاسود بالعرق المتفصد . أخرجت الساعة وألقت عليها نظرة :

– يالهي الرابعة والنصف . مستحيل ! سيفوتني القطار !

وقفلت عائدة وهي تكيل اللعنات .

في تلك الاثناء ، وعلى بعد كيلو مترين من ذلك المكان ، كانت فرانسيسكا تقلع الحشائش الطفيلية من حديقة المدرسة . مر بها عجوز من معارفها على صهوة حصانه فابتسم لها وبادرها بتحية عذبة على طريقته:

– فرانسيسكا ، متى ستموتين ؟

استقامت فرانسيسكا ليظهر نصف جذعها من وراء شجيرة الورد ، وردت على التحية قائلة :

– لاوقت لدي ، فالمرء يجد دوماً ماينشغل به .

(نيسان ١٩٧٣)

ترجمة عاصم الباشا



خوسيه فيليكس فوينمايور

(كولومبيا)

* قصاص وصحفي كولومبي .

* ولد ومات في مدينة بارانكيللا (١٨٨٥ - ١٩٦٦) .

* دخل عالم الأدب وهو في الخامسة والعشرين من عمره باصدار مجموعة شعرية بعنوان « ربات الشعر المداريات » .

* قام بنشاط صحفي واسع ، فأسس وأدار عدداً من المجلات .

* ترك بصماته على مجموعة كبيرة من الكتاب الكولومبيين والاميركيين اللاتينيين .

* تمتاز أعماله بحسها الواقعي المرهف ، وتعتمد على التجربة الجمالية المعاشة وهما ميزتان شديدتا الحضور في أعماله كلها .

من أبرز مؤلفاته :

الفضاء (رواية) ١٩٢٧ .

- مغامرة حزينة لأربعة عشر حكيماً (رواية) ١٩٢٨ .

- الموت في الشارع (قصص قصيرة) ١٩٦٧ .

- مع الطبيب في الخارج (قصص قصيرة) ١٩٣٧ .

الموت في الشارع

لقد نبح عليّ اليوم كلب . كان هذا منذ قليل ، على بعد أربع أو خمس أو ست أو سبع كوادرات نحو الاسفل . لم يكن ينبح عليّ بالذات ولم يكن يريد أن يعضني ، لا ، ليس هذا . لقد اقترب مني ، ماطاً جسده ، ومتأهباً في الوقت نفسه لتجميعه ، كان مخطمه ممدوداً مثلما تفعل الكلاب عندما تكون مرتابة تريد أن تشم . بعد ذلك توقف ، سار إلى الوراء دون ان يلتفت ، ثم رقد وأخذ يعوي بعد أن تخلى عن النظر إليّ وراح يتطلع إلى أعلى .

لست أدري لماذا جلست الآن هنا فوق هذا المقعد الحجري، ليلاً ، بينما كنت أمضي إلى بيتي . يبدو انني لن استطيع المسير ولو خطوة اخرى، وهذا غير ممكن ، لان ساقي ، والمسكينتان نحيلتاان جداً ، لم تتعبا يوماً من المسير . يجب علي أن أبحث هذا الأمر .

وللمرة الأولى أيضاً أفكر بأن بيتي بعيد ، وأشعر برنة غريبة لهذه الكلمة . بعيد . أيكون « بعيداً » ؟ نعم . انه « بعيد » . لاني كنت قد نسيت الكلمة .

أنا أقول « بيتي » لكنه ليس سوى مغارة عند مخرج المدينة ، في

بطن الجبل تقريباً ، وأنا مغرم باطلاق تسميات كهذه . فمعارفي ، الذين أطلب منهم السنتات التي احتاجها يومياً ، أدنو منهم قائلاً : كيف الحال أيها الافندي . ان هؤلاء المعارف قلة . وهم في الحقيقة أصدقائي . إنني أبحث عن واحد أو اثنين منهم كل يوم وأريح الآخرين مني ، وبما أني أطلب منهم في فترات متباعدة فقط فانهم لايتهربون ولا يعتذرون . وعندما ألتقي بواحد منهم لايكون دوره في ذلك اليوم ، فاني أحييه : «كيف الحال أيها الافندي » وأتابع المسير بخطواتي التي تجعلني أبدو دائماً وكأني مستعجل بعض الشيء . أما إذا كان دوره فانني أقول له : «كيف الحال أيها الافندي . ضع هنا ثلاثة سنتات ، أو خمسة ، أو سبعة أو عشرة . » فبثلاثة سنتات يصبح لدي ما يكفي للقهوة السادة . اما اذا كان المبلغ خمسة ، فسأجد مايكفي للخبز . واذا كان سبعة ، فقد حصلت على السكر ، وعندئذ انزع حقيبتي عن ظهري ، وأخرج فنجاني وأضع فيه القهوة ، ثم أخرج زجاجة الماء وأصب منها ، وأحرك المزيج باصبعي وهكذا تتضاعف كمية القهوة وتصبح كافية لتناولها مع الخبز . واذا كان المبلغ عشرة فانني أضيف قطعة من معجنات حلوة . ثلاثة ، سيء . خمسة ، عادي . سبعة ، جيد . وعشرة ، تمام . وبسنت واحد أو سنتين فقط ، أو بلا سنت واحد وبلا سنتين ، فلست أدري ، لأن هذا لم يحدث لي أبداً . ان الله يحسن إليّ ، وقد منحني كذلك هبة النظام .

قد أحصل أحياناً على أكثر من عشرة ، وذلك اذا صادفت افندياً في لحظة مناسبة ، وعندئذ قد أنال مايكفي للفطور ، بل وللغداء أحياناً . لكن مسألة الفطور والغداء هذه لاتهمني كثيراً . فالعادة السيئة ، التي لم أستطع التخلص منها ، هي الصيام . وهناك عادة أخرى تخلصت منها ، هي أنني كنت أخترع أموراً لانفق كل النقود ، وقد لاحظت ان ذلك

يسيء إلى صحتي ويضايقني في المشي . عندئذ تخليت عن هذه العادة السيئة ، وأصبحت أخبيء مايبقى لدي لليوم التالي . ولكن حتى ولو كنت أخبيء شيئاً فانني لم أكن اتخلى عن عملي الذي هو المشي . وطبعاً ، لم أكن أطلب شيئاً مادام لدي شيء مخبأ ، واذا ماالتقيت خلال ذلك بافندي يكون دوره يومئذ ، فاني كنت أحييه وأتابع طريقي لان دوره قد تأجل .

في احدى المرات وقعت بمشكلة وفرة النقود . وصلت ليلاً إلى بيت أحد الافندية الذي كان دوره يومها ووجدته في شرفة مدخل البيت ، حيث كان مجتمعاً مع نساء وكل شيء . قلت له : « افندي ، ضع هنا ثلاثة ، أو خمسة ، أو سبعة ، أو عشرة . » عندئذ نهض افندي آخر كان جالساً هناك ووقف أمامي وقال لي أن اكرر ماقلته . كررت . قال لي أن أشرح ماأعنيه بهذا ، وشرحت له ذلك مطولاً . لاني أحب الحديث عن شؤوني ، وهذا هو الشيء الوحيد الذي اتحدث فيه ، لاني أرى يد الله في شؤوني دائماً . عندما التقي مع شخص يبدي اهتماماً بشؤوني ، اتحدث . ولكن من النادر أن أجد شخصاً مثل هذا الافندي . عندها أمضي الوقت صامتاً . الناس يرونني وأنا أمر كالاخرس فيظنون اني لاأحب الكلام ، لكن الامر ليس كذلك ، بل على العكس ، لاني دائم الحديث ، أتحدث مع نفسي . حسناً اذن : لقد مد ذلك الافندي أمام عيني ورقة من فئة الخمسة بيزوات . تطلعت إلى الورقة النقدية في يده ، وقلت له : « افندي أنها ورقة خمسمئة » ، وذلك لينتبه ، اذا ماكان قد أخطأ . فقال لي : « أجل ، خذها » . أخذتها ، ياللهول ، وودعتهم .

أنها مشيئة الله ، فكرت وأنا أسير بأن الله سيخبرني بما علي عمله . وتأخر وصول الوحي إليّ يومين ، أو ثلاثة ، أو أربعة ، أو خمسة أيام . وعندئذ فعلت ما أُوحِيَ إلي : لففت الورقة النقدية بقطعة من الورق

وربطتها في قاع الحقيبة . وهي هناك ، منذ ذلك الحين ، لتكون من نصيب من سيلتقطني من الشارع عندما أموت . وليأخذ الله بيده ليصل إليها ، كمكافأة على عمله الصالح .

أمر غريب أقعدني هنا ، بينما كنت اتابع سيري سوياً . لقد انتهيت لتوي بأنني أحضرت معي ثلاث جرائد فقط بدلاً من الاربع المعتادة . لم يحدث لي شيء كهذا من قبل . ومع اني أرى ذلك فانني أبقى جالساً بدلاً من أن أحمل نفسي على العودة بحثاً عن الجريدة الناقصة . ورباه . لابد أنك تعرف هذا الذي يحدث لي ، وهو أمر سيء دون شك ، لكنك تنفذ ارادتك . انني قلق بسبب عادتي السيئة في فرش جريدتين على الأرض والالتحاف باثنتين اخريين ، فأنا لم أحضر معي سوى ثلاث منها ، ولست أدري الآن ان كان مناسباً أكثر وضع اثنتين فوقي وواحدة تحتي أم وضع اثنتين تحتي وواحدة فوقي . رباه ، انقذني من هذه الورطة ، لأني أشعر بعدم الرغبة في العودة للبحث عن الجريدة التي تنقصني .

منذ زمن كانت لدي بطانية . الله هو الذي حقق لي هذه المعجزة ، لأنه قادني للمرور أمام أحد البيوت في الوقت الذي يقف فيه رجل عند الباب قائلاً : « خذ هذه وارمها بعيداً . » وقد سمعته . تطلعت ، ورأيت البطانية . فقلت للرجل : « كيف الحال أيها الافندي ، ألقي بها هنا ان كنت تريد رميها » ، واعطاني الرجل اياها .

كان ذلك زمناً طيباً . وقد بدأ عندما كنت متعباً من طلب مكان للنوم ، اليوم هنا ، وغداً هناك ، لانهم ما كانوا يمنحونني مكاناً أنام فيه لأكثر من مرة واحدة . كنت أطلب أن يسمحوا لي بالنوم في المطبخ ، أو تحت عريشة ، أو أي مكان في الفناء ، أي مكان على ألا يكون في الشارع ،

فوق مقعد حجري ، مثلما أنا الآن ، لانه لدي رغباتي ، وثمة أمران لا أسمح بهما : النوم على مقعد حجري ، واستجداء الطعام. انهم يردون علي دائماً بوجوه شريرة ، سواء أقالوا نعم أم لا . ويقتضي الامر أحياناً ان أترجى بيتين ، أو ثلاثة ، أو أربعة ، أو خمسة بيوت قبل أن أحصل على مكان للنوم . وعندما طلبت الاذن في أحد الايام للسماح لي بالذهاب وراء فناء أحد البيوت لقضاء حاجة، رأيت حفرة في الأرض، من يدري ان كانت من فعل خنازير أم أن كلباً هو الذي حفرها . قست أبعاد الحفرة بعيني ووجدت أنها مناسبة لطولي وعرضي ، وكانت جافة تماماً . نظرت إلى البيت ، فكان المطبخ يخفيه . نظرت أمامي إلى الشارع ، وكانت هناك فتحة في السور تؤدي إلى الرصيف . وفكرت بالامر بسرعة . ثم مضيت في الحال لأكلم بالموضوع أهل ذلك البيت ، وشرحت لهم قضيتي : انني أحضر للنوم متأخراً دوماً ، عندما يكون الجميع قد ناموا، وأخرج باكراً جداً ، قبل أن يكون أحد قد استيقظ ، والفتحة موجودة هناك للدخول والخروج دون ان يشعروا بي ، وبما اني لن ازعج أحداً ، فليسمحوا لي بالنوم في حفرة الفناء التي لاترى من البيت لأن المطبخ يخفيها . لقد شرحت كل هذا جيداً . وكان اولئك اناس طيبون ، فسمحوا لي .

عندما حشرت نفسي في الحفرة ، في الليلة الاولى ، ظننت ان برودة الارض لن تدعني أغمض عيني . لكن الله ساعدني ، لاني شعرت بالدفء بعد قليل . وهذا ما كان يحدث لي في كل ليلة .

في احدى الليالي، وفي وقت لم أكن انتظره ، انهمر علي وابل من الماء ، لكن ذلك حدث في الفجر ، عندما كنت على وشك الاستيقاظ ،

فخرجت وجففت نفسي بالنسيم ، وأنا سائر . وفيما أنا أمشي حضر إلى ذهني جزء من السور فيه قطعة من التوتياء موجودة على بعد ثلاث ، أو أربع ، أو خمس ، أو ست ، أو سبع خطوات من الحفرة . وفي تلك الليلة ، حركت صفيحة التوتياء قليلاً ونزعتها من مكانها ووضعتها كغطاء للحفرة ، ثم أعدتها إلى مكانها في الصباح ، دون أن ينتبه أحد إلى ذلك ، وتابعت عمل ذلك كل يوم ،ولتمطر ماشاءت . ان فكرة قطعة التوتياء هذه لم تأتني من الله ، لان الله طيب ، واستخدام قطعة الصفيح دون تصريح كان عملاً يجب ألا أفعله ، انه فعل شر ، لكن تغطية الحفرة كان عملاً صالحاً . وعلى كل حال ، فقد سامحني الله ، لانه في اليوم التالي لقطعة التوتياء ، بعث إلي بالبطانية .

لقد دام ذلك الزمن الطيب إلى أن اكتشفني الأولاد . أنا أقول أن الكلاب طيبة والأولاد أشرار . هذا يعني انني لم أصادف صبياً طيباً ، ولا كلباً شريراً . ولكن الله خلق من كل شيء دون ريب .

لم يزعجني أي كلب في يوم من الايام ، بل ان بعضها يتبعني ، يريد أن يعيش معي ، وهذا أفهمه جيداً . الكلاب لاتبحث عن طعامي وانما عن مصاحبتي ، لانها تعلم جيداً أن لاطعام لدي ، ولأنها تستطيع أن تشم حقيبتي كذلك . يمر أحدها ويراني ، فيشد نفسه ، ويرفع رأسه ، ثم يتراخى . يصطف ورائي ويأخذ بالتقدم إلى أن يسير بجانبي ضابطاً خطواته المتواثبة على ايقاع خطواتي الهادئة المديدة . وهكذا أمضي معه ، نمضي معاً ، ونحن نتبادل النظرات . ويخفق فيه الأمل ويخفق أكثر وأكثر بذيله . إلى أن انظر إليه النظرة الاخيرة وأحرك رأسي مفكراً : لاأستطيع العيش معك أيها الافندي الكلب . فيفهمني ، ويمضي مبتعداً بخطوات أكثر تواثباً وأشد حزناً .

ماالذي جرى لهذا الكلب اليوم . علي أن أبحث هذا الامر .

إن الصبيان الذين التقيت بهم دائماً هم أشرار . يتفوهون بكلمات قذرة وقبيحة . يمعنون النظر إلى الشخص ، ويقذفونه بالحجار ويصرخون مطلقين عليه ألقاباً . اذا كان هنالك صبي بمفرده ، فانني اعلم أنه يتظاهر بأنه لايراني ، لكنه يتهيأ بينه وبين نفسه منتظراً الفرصة المناسبة . أما اذا كانوا اثنين ، أو ثلاثة ، أو أربعة ، أو خمسة صبيان فان الخطر الذي اتعرض له يكون أكبر ، لانهم يسفرون حينئذ عن وجوههم ، أنهم ينسون الخوف عند اجتماعهم معاً ويحاول كل منهم ان يتفوق بالشر على الآخرين . ويبدو لي أن ذيولاً تنمو لهم وهم في هذا الحال أيضاً ، لكنها ليست كذيول الكلاب وانما كذيل الشيطان ، ولهذا لايستطيع رؤية هذه الذيول من هو مع الله .

في الحقيقة اني أعلم ان عظامي ، وبسبب نحولي ، أخذت تبرز إلى الخارج أكثر فأكثر ، وهذا منظر يحبه الأولاد الذين ليسوا مع الله . ويفرحهم كذلك سروالي الممزق ،الذي بقي ممزقاً كما هو لأني لاأرقعه ، والمطوي عند قصبتي ساقي ، فوق حذائي الذي أفتحه كثيراً في مقدمته كي تتهوى أصابع قدمي ولاتبعثان رائحة كريهة . ولعل أكثر ما كان يهيجهم هو لحيتي التي نمت فجأة وتركتها على سجيتها ، وهي ليست سوى شعيرات خفيفة مبعثرة وطويلة بعض الشيء ، لكنها ، وهذه حقيقة ، ناعمة كالحرير ، ولهذا السبب أمرر يدي دوماً فوق وجهي .

أنا أعلم كل هذه الامور ، لكنني أدافع عن نفسي . وأحد أساليبي في الدفاع اني لاأهرب منهم ، واذا صرخوا أتظاهر بانهم لايصرخون علي. ولاأتيح لهم كذلك لا الوقت ولا المكان ليطلقوا علي أي لقب يبقى عالقاً

بي ، لأنهم لايرونني متخاذلاً أو وأنا أجوب تلك الاماكن التي تزدحم بالناس ، حيث يذهب البعض ويجيئون وكأنهم مشغولون أو على عجلة من أمرهم ، ويبدو آخرون وكأن ريحاً قد ألقت بهم هناك لا لسبب أو أنهم ينتظرون ان تحمل لهم نفس الريح التي قذفتهم شيئاً ، لايعرفون ما هو . أنا لاأذهب أبداً إلى هذه الاماكن . أنا أمشي بحثاً عن أفنديتي ، وبعد أن أجدهم أتابع المشي ، والمشي .

والطريقة الاخرى للدفاع عن نفسي اذا جاء صبي أو مضى من أمامي ، أو اذا كنت لاأشعر به وهو يسير ورائي ، هي انني أمشي دائماً وأنا عابس ومتيقظ لتفادي أي حجر قد يقذفه نحوي . ولو لم أكن كذلك ، فمن يدري كم من المرات كانوا سيهشمون رأسي بحجارتهم .

ما فعله الأولاد بحفرة نومي ، لم يكن لاني لم أتخذ الاحتياطات اللازمة. فأنا لاأعرف كيف اكتشفوني.هذا مالم أستطع التوصل إلى معرفته. ففي احدى الليالي شعرت بوخز في جسمي ، وكانوا قد ألقوا أشواكاً في حفرتي . وفي ليلة أخرى، الليلة التالية، تورم جسدي لانهم وضعوا في الحفرة قذارة شحوم . وفي الليلة الاخيرة ، وهي ليلة تالية أيضاً ، تلوثت بالبراز تماماً عندما فتحت البطانية . لقد كان في البطانية كثير من البراز مما جعلني أدرك أن ذلك كان من فعل أكثر من صبي واحد .

خرجت من الحفرة ونظفت نفسي بالتراب ، وبعد أن دعكت نفسي جيداً ، فكرت : لماذا فعلوا ذلك معي ؟ لكن الله سمح بهذا .

من الواضح أن الامور السيئة التي تحدث للمرء ، هي طبيعية من ناحية أخرى دون ان يعرف أحدنا ذلك إلا فيما بعد ، عندما يحين الوقت . وهذا مايحدث دائماً .

ففي تالك الليلة قلت لنفسي انني لن أنام . أعدت قطعة التوتياء إلى موضعها في السور وخرجت من الفتحة . لقد تركت البطانية هناك ، مع أنه كان بامكاني أخذها معي وغسلها ، لكنني تركتها هناك .

سرت ، وسرت ، وكأن الوقت نهارٌ . تابعت المسير سوياً ، لم أنعطف عند أي مفرق ، بل سرت باتجاه مستقيم . وبعد ذلك رأيت أن هذا هو الطريق . لقد أصبحت خارج المدينة عندما توقفت . وهناك رأيتها . . مغارتي ، تلك التي ستصبح بيتي منذ هذه اللحظة . دخلت منحنياً . كان شكلها نصف الدائري يجعلها مكونة من صالة وحجرة . استلقيت دفعة واحدة.وفيما أنا غير مستيقظ وقبل أن أغفو كذلك،الهمني الله فكرة الجرائد ،وساعدت أنا في هذه الفكرة ، باعمال ذهني : لابد من أربع جرائد . . اثنتان على الارض واثنتان كغطاء .

وأصبح حالي منذ ذلك الحين أفضل منه في أي وقت مضى . فعندما أكون في بيتي يمكن للمطر أن يهطل ماشاء له الهطول ، دون ان ابتل ، ودون ان أضطر لتغطية أي شيء بالتوتياء . كما انني لم أر أي صبي في تلك الانحاء .

هنا أملك العشرة سنتات اللازمة ليوم غد . وزجاجة مائي مُتلئة . فاذا مارأتني أمي وهي في الحياة الاخرى بهذا الحال ، فانها ستكون سعيدة لان ابنها لاينقصه أي شيء . الشيء الوحيد الذي ينقصني الآن هو الجريدة ، لكن هذا ليس مهماً ، لاني قررت أن أضع واحدة على الأرض وأتدثر باثنتين ، وقد انتهيت من هذه المشكلة . ولو وقف عمي على حالتي لأسعده أن يعلم انني ــ وان لم أصبح اسكافياً ــ بحثت بالقابل عن طريقي الخاص وانني لاأعاني الحاجة في هذا الطريق .

هنالك أمر يجب علي أن اتحراه ، وهو انني لم أعرف أبداً من هو أبي . وبما أنهم لم يخبروني بذلك ، فقد فكرت بأنه علي ألا أعرف الامر ، ولهذا لم أتحر عنه .

كانت أمي تعمل كثيراً . كانت تغسل كل شيء ، وتخيط ،وتكوي ، وتطبخ . لم تكن تسمح لي بمساعدتها . كانت تقول لي : أنت لاتعرف في هذه الامور ، اذهب إلى اللعب . وكنت ألعب في الفناء ، كان فناء صغيراً ، لكنني كنت أستطيع الركض من أحد أطرافه إلى الطرف الآخر . واتسلى بغرس عصا في الارض والقفز من فوقها . وفي بعض الاحيان لم أكن أشعر برغبة إلى اللعب ، لكنني كنت ألعب كي تراني أمي ، لأنها كانت تحب أن تراني وأنا ألعب .

وفي أحد الايام جاء عمي ليعيش معنا . أمي قالت لي : هذا هو عمك . كان شخصاً عريضاً جداً . كنت أنظر إليه من خلف فيبدو لي وكأنه لارأس له ، أو أن رأسه لم تكن رأساً . كانت أمي تعد المائدة مع الشرشف لنا . وكنا نأكل نحن الاثنين فقط ، لانها كانت تذهب وتجيء ، متابعة العمل . وكان عمي يصنع كرات من الخبز بعد أن ينتهي من تناول طعامه ، ويمررها في الصحن ويأكلها . كان يقول لأمي انه يفعل ذلك ليسهل عليها غسل الصحون . ويقول لي : افعل أنت هذا أيضاً ، فهكذا تساعد أمك . وكنت أفعل ، لأطيعه ، انما لم يكن يروقني عمل ذلك .

لقد نسيت كل ذلك الطعام . لم يعد شيئاً يذكر بالنسبة لي . وما أذكره الآن هو تلك الشرائح من الموز الفج التي كانت أمي تسمح لي بأخذها وهي تقليها . وفيما بعد ، عند وضعها في صحن على المائدة ، لم تكن تعجبني كما هي الحال عندما آكلها قريباً من أمي ، في المطبخ .

وفي أحد الايام توفيت والدتي . أخذت أبكي ، لكن عمي امسكني من إحدى ذراعي ، وأخرجني إلى الفناء، وقال لي وهو يشير إلى أحد الاركان : اجلس هناك ، ولاتبك أبداً لان الرجال لا يبكون .

تولى عمي مسؤولية كل شيء . قال لي : يجب أن نبيع كل شيء ، هذا واجب عليّ أن أقوم به على أكمل وجه .

وفي يوم آخر ، اغلق الباب . ثم قال لي : خذ هذا وهلم بنا . حملت كيساً كبيراً ، وآخر متوسطاً ، وآخر صغيراً وسرت وراءه . وصلنا إلى سفينة . أخذ الاكياس مني ولم يسمح لي بالصعود . قال لي : قد تقع . انتظرني هنا . تأخر لفترة طويلة ، واخيراً عاد وهو يحمل لفافة بيده . وقال لي : « لم يعد لك أم ولا عم ، ستصبح من اليوم رجلاً وعليك أن تؤمن مستقبلك . أريدك أن تصبح اسكافياً . انها مهنة شريفة وتدر نقوداً كثيرة . لن يقال إني تخليت عنك وتركتك لمصيرك ، مع أن هذه هي مشيئة الله . ان يبحث كل منا عن طريقه الخاص . اني اقدم لك هذا ، وبه يمكنك ان تبدأ العمل كاسكافي . » سلمني اللفافة وعاد إلى المركب .

بدأوا بفك الحبال ، وأنا ما أزال واقفاً على الضفة ، منتظراً ان يطل عمي لأقول له صارخاً : وداعاً ياعماه . وشق المركب الماء، زافراً بقوة ، وأخذ بالابتعاد . كان المركب يمضي وأنا واقف أفكر بأنه من الافضل ألايطل عمي الا عندما يبتعد المركب إلى مسافة بعيدة ، حتى تصله صرخة وداعي حينئذ إلى هناك . لانه بدا لي أن اطلاق صرخة من الضفة حتى مركب بعيد ، هو كافلات عصفور سيتابع الطيران إلى حيث لايراه المرء . لكن عمي لم يطل .

عندما أخذت اللفافة منه ، لاحظت انها ثقيلة . وسرت وقتاً لابأس

به دون أن أفتحها ومع انني لم أتصور ماالذي تحتويه . فاني لم أشعر بالفضول لمعرفته . أو ربما كنت أشعر بكثير من الفضول ولهذا السبب تأخرت في فتحها . أو انني ، ودون أن أدرك ذلك ، كنت أعرف ما بداخلها ، لأن عمي أخبرني بذلك : فما أحمله هو علتي كاسكافي .

واخيراً جلست على مقعد حجري ، مثلما أنا الآن ، ونزعت لفافة الورق ، ورأيت . . . كان قالب حذاء . طبعاً ، يجب أن يكون شيئاً من عدة الاسكافي . وأفضل خاطر راودني هو أن أبحث عن حذّاء . ولابد أن عمي كان يفكر بأنني سأفعل ذلك،فبهذا القالب، سأجد حذّاء يتخذني شريكاً له في محله .

ذهبت إلى أحدهم وقدمت له اللفافة ، دون ان أقول أي كلمة . نظر إلى وجهي ، وقفل لي : ماالذي تحمله هنا . ثم تناول اللفافة وفتحها . قال هذا قالب فردة حذاء يسرى ، أين قالب اليمنى . لم أفهم ماقاله ولم أعرف بماذا أرد عليه . عاد ينظر إلى وجهي وهو يمسك ورق اللفافة المفرود والقالب بيد واحدة،ثم ألقى بهما على الارض وقال : هذا لاينفع لشيء ، والآن انصرف من هنا . ذهبت مسرعاً دون أن أتجرأ على التقاط الورق والقالب ، وفيما أنا أسير في الشارع ، أدركت ان عمي قد أخطأ ولم ينتبه إلى خطئه ، لكنني شكرت طيب نيته رغم انه أخطأ . وعندما سمح الله بحدوث ماحدث فلأنه لايريدني أن أصبح اسكافياً .

حينئذ رأيت كم هي كبيرة الكلمات التي قالها لي عمي : أنت الآن بلا أم ولاعم . أخذت أتطلع في كل الانحاء ورأيت انني لم أعد أملك أيضاً الطاولة التي كنت آكل عليها ولا الباحة التي كنت ألعب فيها . وفكرت : لابد من وجود شيء في الدنيا . لم أكن أعرف الناس ولا

الشوارع . نظرت إلى داخل نفسي وفكرت : لاأستطيع البقاء مع الناس لان كلاً منهم له معشره وأنا فقدت معشري . مابقي لي من الدنيا اذن هو الشوارع ، وفي الشوارع أستطيع أن أبحث عن طريقي الخاص . وهذه هي مشيئة الله ، كما قال عمي .

أنا أعرف الطريقة التي يقود بها الله أحدنا .. انه يمسك بالأعنّة التي تحركنا . ومن الافضل ألا يعتاد المرء منا على عادات سيئة ، وان يترك لله أمر التحكم بشد مكابحه تماماً . فهكذا يمضي أحدنا وهو أكثر أماناً ، لانه يشعر عندها بالدفعات التي يدفعه إياها الله ، مهما كانت صغيرة . ولهذا شعرت بالدفعة التي دفعني اياها يوماً ، عندما كدت أن أصير عامل رفش ممن يحمّلون الرمل ، وقد تركت الرفش في الحال . وقد دفعني الله في مرات أخرى وأحسست بذلك . أما عندما أنطلق في الشارع ، سائراً ، فإنه يفلتني ، لأن هذا هو طريقي ولست بحاجة هناك إلى أية دفعات ، فأبدو حينئذ وكأني لا املك أية مكابح .

هنالك خطر قد سيطر علي،ألا وهو البحث عن سر المرأة . لقد قلت لنفسي : علي ان أتحقق منه . وأخذت أمعن النظر إلى النساء ، لكن السر لم ينكشف لي في أي واحدة من النساء اللواتي دققت النظر فيهن . رأيت احداهن جالسة في أحد الايام ، فبدت لي كأمي ، لكنها نهضت وعندئذ لم تعد تشبهها . وفي مرة أخرى كانت تسير أمامي امرأة وكانت تشبه أمي بصرتها المكورة وحركاتها . هذا مارأيته أنا ، ولكن ماان تجاوزتها ورأيت وجهها حتى ذهب التشابه. وحدث لي أيضاً انني كنت أسير في أحد الايام ساهماً ، وفجأة سمعت صوت أمي ، رفعت رأسي فرأيت امرأة تتكلم ، لكن صوت أمي لم يعد إلى سمعي .

عندئذ أخذت أفكر بأن أمي أصبحت تبدو وكأنها تتكرر مفتتة إلى

أجزاء، وإلى أجزاء صغيرة أيضاً، موزعة مابين نساء أخريات. وقد أعجبني ذلك في البدء، فكنت الاحقهن بحذر بينما السر يجول في خاطري ويأخذ بالانتشار في جسدي كله.

وفيما بعد، أصبحت اتضايق لانه لايمكن لأي امرأة أن تكون كأمي في أي شيء. وعندها ماعدت أجدهن متشابهات، وكنت أفكر أول الامر انني أنا الذي أرفض وجود التشابهات، لأنها موجودة فعلاً. وقد رأيت الحقيقة اخيراً، عندما أخذت أشعر بالدفعات. فهذه التشابهات غير موجودة، وسر المرأة هو الذي كان يفرضها علي كمصيدة. ولم تعد بي رغبة بعدها للبحث عن سر المرأة.

لقد أنعم الله علي. فتحت حمايته وبانقيادي للأعنة، وجدت طريقي الخاص في هذه الدنيا. ان مهنتي هي المسير، وهذا يروقني. أما الطعام فانني أحصل عليه بالقول فقط: كيف الحال أيها الأفندي. وللذي الآن بيت. وقد حررني الله من كل انواع القاق.

وهو الذي أجلسني اليوم هنا ولايريدني أن أنهض وأسير. يالغرابة ذلك الكلب. ألا يوجد في هذه الانحاء أي صبي يحمل حجراً بيده؟ لا. لايوجد أحد. لاوجود إلا للشارع. لكن الشارع نفسه بدأ يختفي. انه يتخلى عني. والمقعد الحجري الذي أجلس عليه أخذ يرتفع كغيمة ويحماني في العزلة والصمت. انني أرى الآن أمي. أنها واقفة أمام باب المطبخ، لكنها لم ترني. أناديها: هل ستقلين لي شرائح الموز ياأماه؟

ترجمة: صالح علماني

غابرييل غارسيا ماركيز

"كولومبيا"

* ولد في أراكاتا (كولومبيا) في السادس من آذار ١٩٢٨ .

* عندما نشر روايته الأولى « عاصفة الاوراق » عام ١٩٥٥ ، كان قد أصبح معروفاً في الاوساط الادبية بقصته القصيرة « يوم واحد بعد السبت » التي نالت الجائزة الاولى في مسابقة لجمعية الكتاب والفنانين الكولومبيين .

* في عام ١٩٦١ ، نشر روايته الثانية « ليس لدى الكولونيل من يكاتبه » .

* وفي عام ١٩٦٢ ، نشر مجموعة قصصية اثارت الاهتمام به ، وكانت بعنوان « مأتم الماما الكبيرة »، ثم ألحقها برواية اخرى هي « ساعة النحس » .

* لكن عمله الادبي الكبير هو روايته التي صدرت فيما بعد (١٩٦٨) بعنوان « مئة عام من العزلة » ، والتي ترجمت إلى جميع اللغات العالمية وأوصلت مؤلفها إلى جائزة نوبل للآداب عام ١٩٨٢ .

* من أعماله الاخرى :

- خريف البطريرك (رواية)
- قصة موت معلن (رواية)
- الحكاية العجيبة لارينديرا الساذجة وجدتها القاسية (مجموعة قصص)

الرحلة الأخيرة
للسفينة الشبح

سيرون الآن من أنا ، قال ذلك بصوته الرجولي الاجش ، بعد سنوات عديدة من رؤيته لأول مرة عابرة المحيطات العظيمة التي عبرت في احدى الليالي ، دون أضواء ودون ضجة ، مقابل البلدة كقصر ضخم غير مأهول ، وكانت أطول من القرية كلها وأكثر ارتفاعاً بكثير من برج كنيستها ، وتابعت الابحار في الظلام باتجاه المدينة الاستعمارية المحصنة ضد القراصنة في الجانب الآخر من الشاطىء ، حيث ميناء النخاسة القديم والفنار الدوار الذي تصل حزمة من أنواره الكئيبة كل خمس عشرة ثانية إلى القرية ، فتحول مظهرها إلى معسكر قمري بيوته فسفورية وشوارعه كصحراء بركانية ، ومع انه كان يحصل على اذن من أمه ليستمع حتى ساعة متأخرة من الليل إلى قيثارات الريح اللياية على الشاطىء ، فإنه مازال يذكر عابرة المحيطات وكأنه يراها الآن كيف كانت تختفي عندما تضرب أنوار الفناء خاصرتها ثم تعود إلى الظهور من جديد عندما يبتعد النور عنها ، أي أنها كانت سفينة متقطعة تظهر وتختفي عند مدخل الخليج ، وهي تبحث بالتقدير ، كمن يسير متلمساً طريقه وهو نائم ، عن العلامات الطافية على سطح الماء التي تشير إلى موقع قنال الميناء ، حتى بدا وكأن شيئاً قد أربك مؤشرات التوجه فيها ، لأنها حادت نحو الصخور القريبة من سطح الماء ، واصطدمت ، وتحطمت نتفاً ثم

غاصت دون أية ضجة ، مع أن صدمة بالصخور كتلك ، كانت ستحدث ولابد دوياً كدوي الحديد، وانفجاراً في الآلات يجمدخوفاً أكثر التنانين استسلاماً للنوم في الغابة الخرافية التي تبدأ اعتباراً من آخر شوارع المدينة وتنتهي في الطرف الآخر من العالم . وهكذا فقد ظن هو نفسه بأنه كان في حلم ، وخصوصاً في اليوم التالي ، عندما رأى مياه الخليج الساطعة ، وفوضى ألوان أكواخ الزنوج على تلال الميناء ، ومراكب المهربين القادمين من جزر غوايانا وهم يستلمون شحنات من الببغاوات البريئة وقد ملأوا حويصلاتها بالماس ، وفكر : لقد نمت وأنا أعد النجوم وحلمت بذلك المركب العظيم ، وطبعاً ، اقتنع تماماً بهذا حتى انه لم يرو لأحد مارأى ، وما عاد يتذكر تلك الرؤيا إلى أن أتت الليلة نفسها من شهر آذار التالي ، عندما كان يسير على الشاطيء باحثاً عن علامات تشير إلى وجود الدلافين في البحر ولكن ما رآه هي عابرة المحيطات الخيالية ، قاتمة ، متقطعة ، وماضية في الاتجاه الخاطيء ذاته الذي سارت به في المرة الأولى ، عندها كان متأكداً تماماً ، هو وحده فقط ، من انه مستيقظ . . اذ هرع ليروي ما رآه لأمه، التي أمضت ثلاثة أسابيع وهي تزجره يائسة : لأن دماغك أخذت تتعفن وأنت تمضي حياتك بالمقاوب ، تنام في النهار وتتسكع في الليل كالاشرار . وبما أنها كانت ستذهب إلى المدينة في تلك الايام لتشتري مقعداً مريحاً تجلس عليه لتفكر بزوجها الميت ، لأن الكرسي الهزاز الذي لديها قد اهترأت أخشابه السفلية المقوسة بعد احدى عشرة سنة من الترمل، فقد استغلت الفرصة لتطلب من النوتي الذي يقود المركب أن يقترب قليلاً من منطقة الصخور البحرية ليستطيع ابنها رؤية ماراه حينئذ في نافذة البحر : أعشاب نامية مابين ربيع الاسفنج ، وأسماك البارغو الوردية وأسماك الكورفين الزرقاء وهي تغطس في أقل المياه عمقاً

في البحر . ورأى كذلك بعض لمات الشعر المستعار الشاردة من ركاب سفينة استعمارية غارقة ، ولكنه لم ير أثراً لعابرتي المحيطات الغارقتين ولا مايشير إلى غرقهما ، ومع ذلك ، فقد بقي مصراً حتّى أن أمه وعدته أن تخرج معه لتراقب البحر في آذار القادم ، مؤكدة ذلك ، دون ان تدري أن الشيء الوحيد المؤكد في مستقبلها هو أريكة من أزمان فرنسيس دراك اشترتها من مزاد تركي ،وجلست لتستريح عليها تلك الليلة بالذات ، وهي تتنهد : آه ياعزيزي المسكين « هولوفيرنيس » ، لو انك ترى كم هو جميل التفكير بك على هذه الحواشي من القطيفة وهذا الحرير الموشى وكأنه عرش ملكة ، ولكنها كلما أطنبت في استحضار زوجها الميت فار دمها وتحول أكثر فأكثر إلى مايشبه الشيكولاتة في قلبها ، وكأنما هي لم تكن جالسة وانما كانت تركض ، وغطت جسدها حبيبات عرق بارد ، وانتابتها قشعريرة ، وأصبح تنفسها مشبعاً بالتراب ، إلى ان عاد هو في الصباح فوجدها ميتة على الاريكة ، ومازال بعض الحرارة تسري فيها ، لكنها متعفنة تقريباً كمن تالدغه الافعى ، وقد حدث الشيء ذاته بعد ذلك لأربع سيدات ، قبل أن يلقوا بالاريكة القاتلة إلى البحر ، بعيداً ، حيث لاتسبب أذى لاحد ، فقد استخدمها الكثيرون طوال قرون إلى أن فقدت القدرة على بعث الراحة في من يجلس عليها ، وهكذا أصبح عليه أن يعتاد على روتين بؤسه كيتيم ، يشير إليه الجميع على أنه ابن الأرملة التي أحضرت إلى القرية أريكة المصائب ، ويعتمد في معيشته على ما يسرقه من السمك من الزوارق أكثر من اعتماده على الصدقات العامة ، بينما أخذ صوته يكتسب خشونة ولم يعد يذكر رؤياه القديمة حتّى ليلة من ليالي آذار عندما نظر مصادفة نحو البحر، وفجأة، يا أماه ، هاهو ، حوت الاميانت الهائل ، الحيوان الفحل ، تعالوا وشاهدوه ، وراح

يصرخ بجنون ، تعالوا لرؤيته ، كان يصرخ بصوت كعواء الكلاب وذعر النساء ، حتى ان الرجال المسنين تذكروا حينئذ هاع أجداد أجدادهم واختبأوا تحت الاسرة وفي اعتقادهم أن «وليم دامبيه» قد عاد من جديد ، أما الذين خرجوا إلى الشارع فلم يحاولوا رؤية الجهاز المستحيل الذي كان يفقد اتجاهه في تلك الحظة ويتحطم في كارثته السنوية ، بل انهالوا على الصبي صفعاً وتركوه محطماً . ويومها قال ، وقد ريّل غضباً ، سيرون الآن من أنا ، ولكنه كان حذراً في عدم اطلاع أحد على قراره وانما أمضى السنة كلها وفكرة « الآن سيرون من أنا » مسيطرة على ذهنه ، وهو ينتظر قدوم يوم ظهور السفينة ليفعل فعاته ، وأتى اليوم الموعود ، فسرق زورق صيد ، وعبر به الخليج وأمضى طوال مابعد الظهيرة منتظراً ساعته العظيمة قريباً من الصخور البحرية الوعرة التي تقع قرب ميناء النخاسة ، مقابل الخليط البشري الذي تزخر به منطقة الكاريبي ، غارقاً في مغامرته حتى أنه لم يتوقف كما كان يفعل دائماً أمام دكاكين الهندوس ليتفرج على تماثيل الموظفين الاستعماريين المنحوتة من العاج فوق ظهور الفيلة ، ولم يسخر من الزنوج الهولنديين وهم على دراجاتهم الطريفة ، ولم يفزع ، كما في مرات سابقة ، وهو يرى الملاويين ذوي البشرة التي تشبه أفعى الكوبرا والذين جالوا العالم مفتونين بحيوان خرافي في حانة سرية حيث يبيعون شرحات برازيليات مشوية على الفحم ، لانه لم يعر انتباهه لشيء ، إلى أن طواه الليل ولفه بكل ثقل النجوم ، وعبقت الغابة بروائح عطرة من الغاردينا والسمندر المتفسخ ، وهو يجذف بالزورق المسروق نحو مدخل الخليج ، وقد اطفأ المصباح كي لا يلفت انتباه شرطة الحراسة ، وكل خمس عشرة ثانية كان يبدو وكأنه في قمة الكمال كلما مرت عليه حزمة الضوء الخضراء المنبعثة من الفنار ، ثم يعود ليصبح انسانياً في الظلام ، وهو يعلم انه يسير قريباً من العلامات

التي تحدد مكان قنال الميناء ليس لانه كان يرى بريقها الجائر يشتد أكثر فأكثر وحسب وانما لأن تنفس المياه كان يصبح أكثر كآبة أيضاً ، وهكذا كان يجذف ساهماً في تأملاته حتى انه لم يعرف من أين أتاه فجأة نفس مرعب من سمكة قرش ولا لماذا أصبح الليل قاتماً جداً حتى لكأن النجوم قد ماتت فجأة ، وما حدث هو أن عابرة المحيطات كانت هناك بكل حجمها الذي لايمكن استيعابه ، أماه ، انها أكبر من أي شيء كبير في العالم ، وقاتمة أكثر من أي شيء آخر على الارض أو في الماء ، ثلاثمائة ألف طن لها رائحة سمك القرش تمر قريباً من الزورق حتى انه كان يستطيع تمييز خطوط التحام الصفائح المعدنية ، دون ان يصدر ضوء واحد من عيون الجاموس اللانهائي ،ودون أي همسة تخرج من الماكينات ، ودونما روح ، تحمل معها جوها الصامت ، وسماءها الفارغة الخاصة ، وهواءها الميت الخاص ، وزمنها الراكد ، وبحرها الضائع الذي يطفو عليه عالم متكامل من الحيوانات الغريقة ، وفجأة اختفى كل ذلك عند مرور حزمة ضوء الفنار ، وعاد الكاريبي الصافي للحظة كما كان ، وليلة آذار ورائحة البجع المعتادة ، كلها عادت ، وبقي وحيداً مابين العلامات الطافية ، لايعرف ما يفعل ، وهو يسأل نفسه مذهولاً إذا ما كان يحلم حقاً وهو مستيقظ ، ليس الآن فقط وانما في المرتين السابقتين أيضاً ، ولكنه ماكاد ينتهي من التساؤل حتى أتت نفخة أطفأت العلامات الطافية من أولها إلى آخرها ، وعندما ابتعد ضوء الفنار عادت العابرة للظهور وقد بدأت اجهزة توجهها تنحرف . وكأنها لاتدري في أي مكان من البحر المحيط هي موجودة ، تبحث بلهفة عن القنال اللامرئي ، ولكنها تنحرف في الواقع نحو الصخور القريبة من سطح الماء ، إلى أن أتاه الوحي البليد ، واكتشف ان حادثة العلامات الطافية تلك هي آخر

مفتاح من مفاتيح السر السحري ، فأضاء مصباح الزورق ، كان ضوء أحمر ضئيلاً ليس به ما يستنفر أحداً في أبراج الحراسة الساحلية ، ولكنه كان بالتأكيد ، كشمس شرقية بالنسبة لقائد السفينة ، فبفضله صححت العابرة خط سيرها ودخلت من مدخل القنال الفسيح في مناورة انبعاث سريعة ، وعندها أضيئت جميع أنوارها في اللحظة ذاتها ، وعادت مراجلها تلهث ، واشتعلت النجوم في سمائها وغاصت جثث الحيوانات إلى القاع ،وانتشرت قعقعة صحون ،وعبقت رائحة حساء الغار في المطابخ ، وسمع هدير جوقة موسيقية على السطوح القمرية والتم — تم في شريانات عشاق عرض البحر في عتمةالقمرات ،أماهو فكانمايزال مشحوناً بالغضب المتراكم ،ولم تذهله الانفعالات ولمتخفه الاعجوبة ،وانما قالبتصميمأشد من كل مامضى ، الآن سيرون من أنا ، كراخو ، الآن سيرون ، وبدلاً من أن يبتعد إلى أحد الجانبين حتى لاتصدمه الملك الآلة الهائلة راح يجذف أمامها ، لانهم سيرون الآن من أنا ، وتابع توجيه السفينة بالمصباح حتى تأكد تماماً من انقيادها له فأجبرها على تغيير اتجاهها من جديد عن وجهة الميناء ، وأخرجها من القنال اللامرئي وقادها ، وكأنها خروف يجري يسحبه من رسنه ، نحو أنوار القرية النائمة ، وبدت سفينة حية لاأثر فيها لأيّ خدش تحت حزمة الضوء المنبعثة من الفنار والتي لم تعد تخفيها الآن وتجعلها لامرئية وانما أصبحت تضيئها كل خمس عشرة ثانية ، ثم بدأت صلبان الكنيسة تظهر وتتميز ، وكذلك بؤس البيوت ، والوهم ، بينما تابعت عابرة المحيطات المضي وراءه ، ولحقت به بكل ماتحمل ، قبطانها النائم على جانب القلب ، وثيران المصارعة المغمورة بالثلج في خزائن مؤونة الطعام ، والمريض الوحيد في مشفاها ، والمياه اليتيمة في خزاناتها ، وقائد دفتها الاجنبي الذي كان يخلط ولاشك مابين أنوار القرية وأنوار

الميناء لأن جئيراً مختلفاً انطلق من العابرة في تلك اللحظة ، ثم انطلق مرة أخرى فابتل هو بقطرات البخار التي تساقطت عليه،ومرة أخرى،فكاد الزورق الذي ليس ملكاً له يغرق ، ثم مرة أخرى ، ولكن الوقت كان قد فات فهاهي ذي تعرجات الشاطىء،وحجارة الشارع ،وأبواب بيوت الذين لم يصدقوه ، القرية كلها مضاءة بأضواء عابرة المحيطات المخيفة،وبالكاد تمكن من الابتعاد من أمامها ليسمح بوقوع الكارثة ، وهو يصرخ وسط الهيجان، هاهي ذي،أيها القوادون، وذلك قبل لحظة من أن تشق مقدمتها الفولاذية الرهيبة الأرض ويسمع صوت التهشم الواضح للتسعين ألفاً وخمسمائة كأس من كؤوس الشمبانيا التي تحطمت واحداً بعد الآخر من المقدمة وحتى المؤخرة ، عندئذ بان الضوء ، ولم يكن حينها صباح يوم من آذار وانما ظهيرة يوم أربعاء لاهب. واستطاع هو أن يتمتع برؤية جميع الذين لم يصدقوه وهم يتأملون فاغرين أفواههم أكبر عابرة محيطات في هذا العالم وفي العالم الآخر وقد ارتطمت مقدمتها بالبر أمام الكنيسة ، وهي أكثر بياضاً من أي شيء ،وأكثر ارتفاعاً بعشرين مرة من برج الكنيسة وأطول من القرية بحوالي ست وتسعين مرة ، واسمها المكتوب بحروف معدنية بارزة « هالالكسيلِلاغ » ، بينما ماتزال تقطر منها المياه القديمة الخاملة التي علقت بها من بحار الموت .

— ١٩٦٨ —

ترجمة صالح علماني

بحر الزمن الضائع

قبيل نهاية شهر كانون الثاني هاج البحر من جديد وبدأ يفرغ على القرية أكواماً من القاذورات . وبعد عدة أسابيع من نزق البحر الذي لايطاق ، كان كل شيء قد تلوث . لقد أصبح العالم منذ ذلك الحين ، حتى كانون الأول القادم على الاقل ، عديم الجدوى ، ولم يعد أحد يسهر إلى مابعد الساعة الثامنة . أما في السنة التي جاء فيها السيد هربرت ، فلم يثر البحر ، حتى ولا في شباط . وانما على العكس من ذلك ، أصبح أكثر نعومة وبريقاً ، وفاح منه في لياليآذار شذى الورد .

أخذ « توبياس » يتنشقه ، فوجدت السرطانات دمه حلواً ، مما جعله يمضي الجزء الاكبر من الليل وهو يبعدها عن فراشه ، منتظراً أن يغير النسيم من اتجاهه فيتمكن من النوم . وقد تعلم في سهاده الطويل تمييز كل تبدل في الهواء . وهكذا فانه عندما استنشق رائحة الورد لم يكن بحاجة لفتح الباب كي يعرف انها رائحة البحر .

استيقظ متأخراً . كانت « كلوتيلدي » توقد النار في فناء البيت . وكان النسيم منعشاً وجميع النجوم في مواضعها ، ولكن عدّها حتى الافق كان يكلف جهداً بسبب اختلاطها بأضواء البحر . وبعد أن تناول القهوة ، أحس « توبياس » ببقية من مذاق الليل في حلقه . وقال متذكراً

ـ لقد حدث شيء غريب في الليل .

لم تشعر كلوتيلدي طبعاً بأي شيء . لقد نامت نوماً ثقيلاً حتى انها لم تعد تذكر أحلامها .

قال توبياس :

ـ لقد كانت رائحة ورد . . وأنا متأكد أنها أتت من البحر .

قالت كلوتيلدي :

ـ لست أدري كيف تكون رائحة الورد .

ربما كانت على حق . فالقرية قاحلة ، وارضها قاسية مشققة من ملح البارود . وبين الحين والحين فقط ، كان يأتي أحدهم بباقة أزهار من مكان آخر ليلقي بها في البحر في الموضع الذي يلقون فيه بالموتى .

قال توبياس :

ـ إنها نفس الرائحة التي كانت تنبعث من الغريق من جواكاميال .

ابتسمت كلوتيلدي :

ـ حسناً ، اذا كانت رائحة زكية ، فيمكنك أن تثق بأنها ليست آتية من هذا البحر .

لقد كان بحراً فظاً حقاً . فبينما لاتسحب الشباك معها سوى القاذورات عديمة الجدوى في بعض الفترات ، تكون شوارع القرية مغطاة بالسمك الميت بعد انحسار الامواج الهائجة . ولايخرج الديناميت إلى سطح الماء سوى بقايا من حطام السفن الغارقة .

والنساء القليلات اللاتي بقين في القرية مثل كلوتيلدي ، كن يلتهبن

بالحقد . كزوجة جاكوب العجوز ، الّتي استيقظت مبكرة أكثر من عادتها هذا الصباح ، وبعد أن رتبت البيت ، جاءت لتناول الفطور وعلى وجهها إمارات الضيق .

قالت لزوجها .

ـ رغبتي الاخيرة هي أن أدفن حية .

نطقت ذلك وكأنها ترقد على فراش الاحتضار ، ولكنها كانت تجلس على طرف المائدة في غرفة الطعام ذات النوافذ الواسعة ، حيث يتدفق ضوء آذار وينتشر في جميع أرجاء البيت . وفي مواجهتها جلس العجوز جاكوب مثيراً جوعه الساكن ، كان قد أحبها كثيراً منذ زمن بعيد ، ولم يكن يتصور أي ألم لاتكون زوجته مصدراً له .

تابعت قائلة :

ـ أريد أن أموت وأنا متأكدة من انهم سيدفنوني تحت التراب كالناس الشرفاء . والطريقة الوحيدة للوصول إلى ذلك هي أن أرتحل إلى مكان آخر واستعطف من هم هناك كي يدفنوني وأنا حية .

قال جاكوب العجوز بهدوء شديد :

ـ لاحاجة بك لأن تطلبي ذلك من أحد ، فسآخذك أنا بنفسي .

فقالت :

ـ هيا بنا اذن ، لاني سأموت قريباً .

تمحصها جاكوب العجوز باهتمام . كانت عيناها فقط شابتين . أما مفاصل عظامها فقد أصبحت عقداً ، ولها مظهر الارض الخربة ، إنه أولاً واخيراً ، مظهرها الذي كان دائماً .

قال لها :

– انك أحسن حالاً من أي وقت مضى .

فتنهدت قائلة :

– لقد شممت هذه الليلة رائحة ورود .

وقال لها جاكوب العجوز مهدئاً :

– لاتقلقي لهذا ، فما هي الا أمور تحدث لنا نحن الفقراء .

قالت :

– لاشيء من هذا . . لقد ابتهلت إلى الإله دائماً ان يمنحني علامة من علائم الموت قبل وقوعه ، لأموت بعيدة عن هذا البحر . ورائحة الورد ، في هذه القرية ، ليست سوى انذاراً من الله .

لم يخطر ببال جاكوب العجوز سوى ان يطلب منها امهاله بعض الوقت ليرتب الأمور. فقدسمع ان الناس لايموتون عندما يجب أنيموتوا، وانما عندما يريدون ذلك، ولهذا حل به قلق جدي لتنبؤات زوجته . حتى انه سأل نفسه ان كانت ستواتيه الشجاعة عندما تحين اللحظة ليدفنها حية .

في الساعة التاسعة ، فتح المحل الذي كان في السابق دكاناً . وضع كرسيين وطاولة صغيرة عليها رقعة دومينو أمام الباب ، ولعب طيلة فترة الصبح مع خصوم مروا من هناك مصادفة. ورأى القرية من موقعه أطلالاً ، والبيوت المشققة المغطاة ببقايا أصباغ قديمة حورتها الشمس ، وجزءاً من البحر في نهاية الشارع .

وكالعادة ، لعب قبل الغداء ، مع دون ماكسيموغوميث . لم يتصور

جاكوب العجوز خصماً أكثر انسانية من هذا الرجل ، الذي اجتاز حربين أهايتين ، وفقد في الثالثة عيناً واحدة فقط . فكان جاكوب العجوز ، وبعد أن يخسر ، متعمداً ، دورة دومينو، يصر عليه أن يبقى ليلعب دورة أخرى .

سأله عندئذ :

– قل لي يادون ماكسيمو ، هل أنت قادر على دفن زوجتك وهي حية ؟

وقال دون ماكسيمو غوميث :

– بالتأكيد . وصدقني أن يدي ان ترتجفا عندها .

صمت جاكوب العجوز مذهولاً . وبعد ذلك ، عندما كان قد خسر أفضل حجارته ، تنهد قائلاً :

– يبدو أن بيترا ستموت .

لم يتأثر دون ماكسيمو ، وقال : « في هذه الحالة ، لن تحتاج إلى دفنها وهي حية » . أكل حجرين، وأدخل دامة بإحدى حجارته . ثم صوب إلى خصمه عينا ضمختها دمعة حزينة .

– ماذا أصابها ؟

فقال جاكوب العجوز شارحاً :

– لقد شمت رائحة ورود هذه الليلة .

فقال دون ماكسيمو غوميث :

– سيموت نصف أهل القرية اذن ، فلم يسمع حديث صباح هذا اليوم سوى الحديث عن تلك الرائحة .

كان على جاكوب العجوز ان يبذل جهداً مضنياً ، ليخسر مرة أخرى دون ان يغضبه . أدخل الطاولة والكراسي ، وأغلق الدكان ، ثم مضى يتجول في جميع الانحاء بحثاً عمن أحس بالرائحة . واخيراً لم يجد أحداً متأكداً من نفسه سوى توبياس . وهكذا رجاه ان يمر على بيته ، جاعلاً الامر وكأنه مصادفة ، ويقص كل شيء على زوجته .

لقد وفى توبياس بوعده ، وفي الساعة الرابعة ، ظهر في مدخل البيت مرتباً كما لو كان يقوم بزيارة ، حيث كانت العجوز قد أمضت طول مابعد الظهر وهي تهيء ملابس الترمل لجاكوب العجوز .

تقدم نحو الداخل بهدوء مما جعل المرأة تنتفض مذعورة ، وصرخت :

ـ أيها الرب المقدس ، لقد ظننتك الملاك عزرائيل .

قال توبياس :

ـ تأكدي اذن انني لست هو ،بل أنا ، وقد أتيت لأروي لك أمراً .

أصلحت من وضع نظارتها وعادت إلى عملها من جديد قائلة :

ـ أعرف ما ستقوله .

قال توبياس :

ـ أراهن أنك لاتعرفين .

ـ ستقول انك شعرت هذه الليلة برائحة الورد .

فسألها توبياس مكدراً :

ـ وكيف عرفت ذلك ؟

قالت المرأة :

— في مثل عمري ، يكون لدى المرء وقت كافٍ للتفكير ، حتى أنه ينتهي ليصبح متنبئاً .

كان جاكوب العجوز في الغرفة المجاورة ،لقد كان ماصقاً اذنه بالجدار الخشبي يسترق السمع ، فانتصب خجلاً ، وصرخ من وراء الجدار :

— مارأيك بهذا أيتها المرأة ؟

ثم دار من وراء الجدار وظهر في المدخل قائلاً :

— لم يكن الامر كما فكرت انت اذن ؟

فقالت دون أن ترفع رأسها :

— إنها كذبة اخترعها هذا الشاب . فهو لم يشم شيئاً .

قال توبياس :

— لقد كان ذلك حوالي الساعة الحادية عشرة ،وكنت عندها أُبْعِدُ السرطانات .

انتهت العجوز من اصلاح احدى الياقات ، وقالت باصرار :

— اكاذيب . الجميع يعرفون انك مخادع محتال .

ثم قطعت الخيط بأسنانها ونظرت إلى توبياس من فوق نظارتها وتابعت :

— ان ما لاأفهمه هو ، لماذا كلفت نفسك المشقة ، وطليت شعرك بالفازلين ، ولمعت حذاءك ، لتأتي إلى هنا وتسيء الاحترام فقط .

منذ ذلك الحين بدأ توبياس بمراقبة البحر . علق شبكة نومه في مدخل فناء بيته ، وصار يقضي الليل منتظراً ، ومذهولاً من الامور التي

تحدث في الدنيا بينما الناس نيام . فقد سمع خلال ليال عديدة خرفشة زحف السرطانات اليائس وهي تحاول تسلق الحبال ، ولقد انقضت عدة ليال قبل أن تتعب وتكف عن محاولتها واصرارها . وعرف كيف تنام كلوتيلدي . واكتشف كيف ان شخيرها الذي له صوت كصوت الناي يصبح أكثر حدة كلما اشتد الحر ، حتى يتحول إلى وتيرة واحدة ضعيفة في سكون تموز .

راقب توبياس البحر في البداية كما يراقبه اولئك الذين يعرفونه جيداً بنظرة ثابتة إلى نقطة واحدة في الافق ، فرآه يبدل ألوانه ، ورآه ينطفيء ويصبح مزبداً وقذراً ، ويقذف تجشأه المحمل بالنفايات حين تقلق الامطار الشديدة هضمه العاصف . وراح يتعلم ، شيئاً فشيئاً ، مراقبته كما يفعل من يعرفونه بشكل أفضل : دون النظر إليه تقريباً ولكن دون القدرة على نسيانه حتى أثناء النوم .

في شهر آب ، ماتت زوجة جاكوب العجوز . وجدت ميتة في فراشها في الصباح وكان عليهم القاؤها في بحر بلا أزهار كما يفعلون بالجميع . واستمر توبياس منتظراً. لقد انتظر طويلاً حتى أصبح الانتظار هو أسلوب حياته . وفي احدى الليالي ، وبينما كان يحاول النوم في الشبكة المعلقة ، أحس بأن شيئاً قد تبدل في الهواء . لقد كانت رائحة متقطعة ، كتلك التي انتشرت يوم أغرقت سفينة شحن يابانية حمولة بصل متعفن عند مدخل الميناء . ثم تماسكت الرائحة ولم تعد تتحرك حتى الفجر . وفقط عندما تملك توبياس شعور بأنه يستطيع امساكها بيده ليريها للآخرين ، قفز من شبكة النوم ودخل إلى غرفة كلوتيلدي ، وهزها عدة مرات قائلاً :

— هاهي هنا .

كان على كلوتيلدي ان تزيح الرائحة بأصابعها كما تزيح شبكة عنكبوت لتستطيع النهوض. ثم عادت لتستلقي على غطاء الفراش الدافىء، وقالت :

— ياللعنة .

وصل توبياس بقفزة واحدة إلى الباب ، وخرج إلى وسط الشارع ، وراح يصرخ . صرخ بكل قواه . أخذ نفساً عميقاً وعاد يصرخ ، ثم صمت وأخذ نفساً أعمق ، والرائحة ماتزال في البحر . لكن أحداً لم يرد عليه . فمضى يقرع الابواب بعنف ، باباً بعد آخر ، بما في ذلك البيوت المهجورة التي لايسكنها أحد ، إلى أن اختلط صخبه بصخب الكلاب ، وأيقظ الجميع .

كثيرون لم يشموا الرائحة . لكن آخرين ، وخاصة الشيوخ ، نزلوا إلى الشاطىء ليتلذذوا بها . كانت رائحة زخمة متماسكة لاتترك مكاناً لأي رائحة من روائح الماضي . وعاد بعضهم، وقد تعبوا من الشم، إلى بيوتهم . بينما بقيت الغالبية لتتم نومها على الشاطىء . وفي الصباح ، كانت الرائحة نقية جداً يثير استنشاقها الأسف .

نام توبياس طيلة النهار تقريباً . ولحقت به كلوتيلدي أثناء القيلولة ، وأمضيا مابعد الظهر في مداعبات في الفراش دون ان يغلقا باب الفناء . صنعا في البداية كالديدان ، ثم كالارانب ، واخيراً كالسلاحف ، إلى أن عادت الدنيا حزينة ومظلمة من جديد . وكانت بقايا رائحة ورد ماتزال في الهواء . وتصل إلى الحجرة بين الحين والآخر موجة من الموسيقى .

قالت كلوتيلدي :

ــ انها تأتي من ناحية كاتارينو . لابد ان أحدهم قد جاء .

كان ثلاثة رجال وامرأة قد جاؤوا . وفكر كاتارينو بان آخرين قد يأتون فيما بعد ، وحاول إصلاح الحاكي . وعندما لم يستطع ذلك ، توجه إلى بانشو اباريثيدو ، الذي كان يفعل كل شيء لانه لم يكن لديه أبداً مايفعله ، وكان يمتلك أيضاً صندوق عدة ويدين ماهرتين .

كانت دكان كاتارينو عبارة عن بيت خشبي منعزل أمام البحر ، له صالة كبيرة فيها كراس وطاولات صغيرة ، وعدة حجرات أخرى في الخلف . كان الرجال الثلاثة والمرأة يشربون صامتين وراء البوفيه ويراقبون بانشو أباريثيدو وهو يعمل ، ويتثاءبون بالتناوب .

بدأ الحاكي يعمل بصور منتظمة بعد عدة تجارب عليه . وما أن سمع الناس الموسيقى ، نائية ولكنها واضحة، حتى كفوا عن الحديث. ونظر بعضهم إلى بعض ولم يجدوا خلال لحظة مايقولونه ، لانهم تبينوا حينئذ فقط كم هرموا منذ سمعوا الموسيقى لآخر مرة .

وجد توبياس الجميع مستيقظين بعد الساعة التاسعة . كانوا يجلسون أمام الباب ، منصتين إلى اسطوانات كاتارينو القديمة ، بنفس الاستسلام الصبياني لمن يراقب كسوف الشمس . كانت كل اسطوانة تذكرهم بأحد ممن ماتوا ، وبمذاق الاطعمة بعد مرض طويل،وبشيء كان عليهم ، قبل سنوات عديدة ، ان يفعلوه في اليوم التالي،ولم يفعلوه بسبب النسيان .

انتهت الموسيقى نحو الساعة الحادية عشرة . ومضى كثيرون منهم إلى النوم ، موقنين ان المطر سيهطل ، لوجود غيمة داكنة فوق البحر . لكن الغيمة انخفضت ، وطفت لهنيهة فوق السطح ، ثم غاصت

في الماء . وبقيت النجوم وحدها في الاعلى . وبعد قليل ، مضت نسمات من القرية حتى منتصف البحر ، وعادت محملة بشذى الورد .

فهتف دون ماكسيمو غوميث :

ـ لقد قلت لك ياجاكوب . هاهي ذي الرائحة مرة أخرى . انني على يقين بأننا سنشمها كل ليلة منذ اليوم .

قال جاكوب العجوز :

ـ لاشاء الله ذلك . فهذه الرائحة هي الشيء الوحيد في الحياة الذي جاء متأخراً بالنسبة لي .

لعبا الدومينو في الدكان الخالية دون التفات إلىموسيقى الاسطوانات. فذكرياتهما قديمة جداً ، حتى انه لم تكن ثمة اسطوانات قديمة لبعث عواطفهما .

قال دون ماكسيمو غوميث :

ـ بالنسبة لي ، لاأؤمن كثيراً بهذه الأمور . فبعد هذه السنوات الطويلة وأنا آكل التراب ، ومع العديد من النساء اللواتي يرغبن بفناء صغير يزرعن فيه زهورهن ، لم يعد مستغرباً ان يشم المرء هذه الأشياء ، وأن يؤمن حتى بأنها صحيحة .

فقال جاكوب العجوز :

ـ ولكننا نشمها بأنوفنا بالذات .

قال دون ماكسيمو غوميث :

ـ ليس مهماً . ففي الحرب ، وبعد أن انهزمت الثورة ، كانت رغبتنا شديدة في جنرال ، فظهر لنا دوق مارلبورو ، بلحمه وعظمه . وقد رأيته بعيني هاتين ياجاكوب .

كانت الساعة قد تجاوزت الثانية عشرة . وعندما بقي جاكوب العجوز وحيداً أغلق الدكان ، وحمل المصباح إلى حجرة النوم . ومن خلال النافذة ، رأى الصخرة التي يرمون من فوقها الموتى وقد برزت واضحة أمام بريق البحر .

نادى بصوت خافت :

– بيترا .

لم تستطع سماعه . فقد كانت تبحر في تلك اللحظة على سطح الماء تقريباً في ظهيرة ساطعة في خليج البنغال . رفعت رأسها لتنظر من خلال الماء ، كما لو أنها تنظر من نافذة مضاءة ، في عابرة محيطات ضخمة . ولم تستطع رؤية زوجها ، الذي بدأ يسمع من جديد في هذه اللحظة صوت حاكي كاتارينو ، في الطرف الآخر من العالم .

قال جاكوب العجوز :

– لاحظي هذا ، منذ أقل من ستة شهور اعتبروك مجنونة ، وهاهم الآن يحتفلون بالرائحة التي سببت لك الموت .

أطفأ النور ودس نفسه في الفراش . بكى بكاء بطيئاً ودون ظرافة كبكاء العجائز ، ولكنه غرق في النوم فجأة .

وراح ينتحب في أحلامه :

– لو كان الأمر بيدي لغادرت هذه القرية . اني مستعد للذهاب إلى الجحيم لو كان لدي عشرون بيزو مجتمعة .

منذ تلك الليلة ، وطوال عدة أسابيع ، بقيت الرائحة في البحر : ضمخت خشب البيوت ، والاطعمة وماء الشرب ، ولم يبق مكان لا

يشمها المرء فيه . وقد ذعر كثيرون عندما وجدوها في البخار المنطلق من برازهم . الرجال والمرأة الذين جاؤوا إلى دكان كاتارينو رحلوا في يوم الجمعة ، ولكنهم عادوا يوم السبت وبرفقتهم حشد كبير . وفي يوم الاحد حضر آخرون . كانوا يتكاثرون كالنمل في جميع الاماكن ، يبحثون عن طعام وعن اماكن للنوم، حتى لم يعد المسير في الشارع ممكناً .

وأتي آخرون أيضاً . والنساء اللائي تركن القرية حين ماتت رجعن إلى دكان كاتارينو . كن أكثر سمنة وتبرجاً ، وجلبن معهن اسطوانات حديثة لم تذكر أحداً بأي شيء . وجاء بعض أهل القرية القدماء . والذين كانوا قد ذهبوا ليجمعوا الاموال في أماكن اخرى ، عادوا وهم يتحدثون عن ثرواتهم ، وان كانوا يرتدون نفس الملابس التي رحلوا بها . وجاءت فرق موسيقية وتومبولة ، وموائد يانصيب ، وبصارات ورماة مسدسات ورجال يلفون ثعابين حول أعناقهم ويبيعون أكسير الحياة السرمدية . واستمروا بالتوافد لأسابيع عديدة ، وحتى بعد أن هطلت الامطار الأولى وأصبح البحر عكراً واختفت الرائحة .

ومع آخر الوافدين ، جاء راهب . كان يتنقل فيجميع الاماكن ، وهو يأكل الخبز بعد غمسه في فنجان قهوة بالحليب ، وراح يحرم ، شيئاً فشيئاً ، كل ماجاء قبله : ألعاب اليانصيب ، الموسيقى الجديدة وطريقة الرقص على أنغامها ، وحتى عادة النوم الجديدة على الشاطىء . وفي احدى الأمسيات ، ألقى موعظة في منزل ميلتشور حول رائحة البحر قال :

— احمدوا السماء ياأبنائي ، فهذه الرائحة هي رائحة الرب .

فقاطعه أحدهم :

– وكيف استطعت معرفة ذلك يا أبتاه ، اذا كنت لم تشمه .

فقال هو :

– ان الكتابات القدسية تعطي تفسيراً لكل مايتعلق بهذه الرائحة . نحن هنا في قرية مختارة .

كان توبياس يتنقل من مكان إلى آخر ، وسط المهرجان ، كمن أصيب بالسرنمة . أخذ معه كلوتيلدي لتتعرف على النقود . وتخيلا انهما يلعبان بمبالغ طائلة على الروليت ، ثم أجريا حساباتهما ، فشعرا انهما أصبحا ثريين ثراء فاحشاً بالمال الذي يمكن لهما ان يكسباه . ورأيا في احدى الليالي ، ليس وحدهما فقط ، بل وكل الحشود التي ملأت القرية كميات مجتمعة من النقود أكبر بكثير مما كانت تستطيع مخيلتهم تصوره .

كانت تلك هي الليلة التي أحضر بها السيد هربرت . ظهر فجأة ، ووضع طاولة في وسط الشارع ، وعلى الطاولة صندوقين كبيرين طافحين حتى حافتهما بالاوراق النقدية . كانا يحتويان نقوداً كثيرة ، لدرجة ان أحداً لم ينتبه إليهما في البداية ، لانه لم يكن ثمـــة من يصدق ان هذا صحيحاً . ولكن ما ان بدأ السيد هربرت بقرع جرس صغير ، حتى اقتنع الناس اخيراً ، واقتربوا منه ليستمعوا إليه .

قال :

– أنا أغنى رجل في العالم . أملك نقوداً كثيرة ، لم أعد أجد مكاناً لأضعها فيه.وبما اني أملك اضافة إليها قلباً كبيراً لم يعد صدري يتسع له ، فقد قررت ان أجول في العالم لاحل مشاكل الجنس البشري .

كان ضخماً ، لونه أحمر قان ، يتكلم بصوت عال ودون انقطاع ،

ويحرك في الوقت ذاته يدين دافئتين ناعمتين تبدوان متعبتين دائماً من الحلاقة. تكلم طيلة ربع ساعة ، ثم استراح . بعد ذلك قرع الجرس مرة أخرى وراح يتحدث من جديد . وبينما هو في منتصف خطبته ، لوح أحدا هم بقبعته بين الجمهور وقاطعه :

– حسناً يامستر ، لاتتحدث كثيراً ، ولتبدأ بتوزيع النقود .

فرد السيد هربرت :

– ليس هكذا . فتوزيع النقود دون حساب ، هو اسلوب لاجدوى منه ، إضافة إلى كونه غير عادل .

حدد بنظره موضع الذي قاطعه ، وأومأ إليه ان يقترب ، وأفسح الحشد له الطريق .

ثم تابع السيد هربرت :

– وبالمقابل ، سيسمح لنا الآن هذا الصديق الفارغ الصبر ان نشرح النظام الأمثل لتوزيع الثروة .

مد يده وساعده على الصعود .

– ماسمك ؟

– باتريثيو .

فقال السيد هربرت :

– حسن جداً ياباتريثيو . ان لك منذ زمن ، مثل الجميع ، مشكلة لاتستطيع حلها .

نزع باتريثيو قبعته وأشار برأسه موافقاً .

– ماهي ؟

فقال باتريشيو :

– هده هي مشكلتي : انني لاأملك نقوداً .

– وكم تحتاج ؟

– ثمانية وأربعين بيزو .

أطلق السيد هربرت صرخة انتصار وكرر : « ثمانية وأربعين بيزو » ورافقه الحشد بالتصفيق .

تابع السيد هربرت :

– حسن جداً ياباتريشيو . قل لي الآن : مااللذي تعرفه بمهارة ؟

– اموراً كثيرة .

فقال السيد هربرت :

– أختر أمراً واحداً . . . الامر الذي تتقنه بشكل أفضل .

قال باتريشيو :

– حسناً . أستطيع محاكاة الطيور .

واتجه السيد هربرت إلى الحشد الذي راح يصفق من جديد :

– اذن أيها السيدات والسادة ، فصديقنا باتريشيو ، الذي يحاكي الطيور بشكل رائع ، سيقلد لنا أصوات ثمانية وأربعين طيراً مختلفاً ، وسيحل بهذه الطريقة المشكلة الكبرى في حياته .

بدأ باتريشيو بتقليد الطيور وسط صمت الحشد الذاهل . قلد جميع الطيور المعروفة بالصفير حيناً وبصوت من حنجرته حيناً آخر ، وأكمل

العدد بأصوات طيور لم يعرفها أحد . وفي النهاية طلب السيد هربرت من الحشد ان يصفق ، وقدم له ثمانية واربعين بيزو . ثم قال :

— والآن ، تقدموا واحداً بعد الآخر . سأبقى هنا إلى مثل هذا الوقت غداً ، لأحل المشاكل .

كان جاكوب العجوز قد علم بالحدث من تعليقات الناس المارين أمام منزله . وكلما سمع بخبر جديد كان قلبه يتضخم ، ويتضخم أكثر فأكثر ، حتى أحس به ينفجر .

سأل :

— مارأيك بهذا الغرينغو ؟

فهز دون ماكسيمو غوميث كتفيه :

— لابد انه يحب الناس .

قال جاكوب العجوز :

— لو كنت أعرف شيئاً لاستطعت الآن حل مشكلتي — وهي مشكلة ضئيلة الاهمية : عشرون بيزو فقط .

— أنت تلعب الدومينو بصورة جيدة .

لم يبد جاكوب العجوز اهتماماً لما قاله . لكنه ماان بقي وحده ، حتى لف رقعة الدومينو وعلبة الاحجار في جريدة ، ومضى ليتحدى السيد هربرت . انتظر دوره حتى منتصف الليل . واخيراً ، حمل السيد هربرت الصندوقين ، وودع الجميع حتى الصباح التالي .

لم يذهب إلى النوم، بل ظهر في دكان كاتارينو مع الرجال الذين

يحملون الصندوقين ، وتبعته جموع الناس ومشاكلهم إلى هناك أيضاً . ومضى يحلها شيئاً فشيئاً . لقد حل الكثير من المشاكل حتى لم يبق اخيراً في الدكان سوى النساء ، وبعض الرجال الذين حلت مشاكلهم . وبقيت أيضاً في آخر الصالة ، امرأة متوحدة تهوى ببطء بورقة كرتونية عليها إعلان دعائي .

فاتجه السيد هربرت نحوها صارخاً :

– وأنت ، ماهي مشكلتك ؟

فتوقفت المرأة عن التهوية ، وصرخت عبر القاعة .

– لاتحشرني في مهرجانك هذا . ليست لدي أية مشكلة ، فأنا قحبة وأنا راضية بهذا .

هز السيد هربرت كتفيه . وتابع شرب البيرة المثلجة إلى جانب الصندوقين المفتوحين ، منتظراً مشاكل جديدة . كان ينصبب عرقاً . بعد قليل خرجت امرأة من بين مجموعة كانت برفقتها على احدى الموائد ، وتحدثت إليه بصوت خافت . كانت مشكلتها هي الحصول على خمسمائة بيزو .

سألها السيد هربرت :

– ماهي تسعيرتك ؟

– خمسة .

فقال السيد هربرت :

– تصوري . سيكونون مئة رجل .

قالت :

– ليس مهماً . واذا ما حصلت على هذا المبلغ مجتمعاً ، فسيكونون آخر مئة رجل في حياتي .

تأملها . كانت فتية جداً ، وذات عظام هشة ، ولكن عينيها اظهرتا اصراراً بسيطاً .

قال السيد هربرت :

– حسناً . اذهبي إلى الغرفة ، وسأرسلهم إليك هناك ، ومع كل واحد منهم خمسة بيزوات .

ثم خرج إلى الباب وهز الجرس . وجد توبياس دكان كاتارينو مفتوحاً في الساعة السابعة صباحاً . كل شيء كان مطفأ . والسيد هربرت يشرف على دخول الرجال إلى حجرة الفتاة وهو نصف نائم ، ومنتفخ بالبيرة .

ودخل توبياس أيضاً . كانت الفتاة تعرفه ، وقد فوجئت حين رأته في حجرتها .

– أأنت أيضاً ؟

فقال لها توبياس :

– قالوا لي أن أدخل . أعطوني خمسة بيزوات وقالوا لي : لاتتباطأ .

سحبت الشرشف المبلل عن الفراش وطلبت من توبياس الامساك بأحد طرفيه . كان ثقيلاً مثل قماش لوحة رسم . عصراه بشدة من طرفيه ، إلى أن استعاد وزنه الطبيعي . ثم قلبا الفراش فسال العرق من الجانب الآخر . قضى توبياس وطره كيفما اتفق . ووضع قبل ان يخرج البيزوات الخمسة فوق كومة الاوراق النقدية المتنامية بجانب السرير .

أمره السيد هربرت قائلاً :

– أرسل لي ماتستطيعه من الرجال ، لأرى اذا كنا سننتهي من هذا الامر قبل الظهر .

فتحت الفتاة باب حجرتها قليلاً وطلبت بيرة مثلجة . كان هناك عدد من الرجال ينتظرون .

سألت :

– كم بقي ؟

وأجابها السيد هربرت :

– ثلاثة وستون .

أمضى جاكوب العجوز النهار كله بملاحقته حاملاً رقعة الدومينو . وأتى دوره في المساء ، فطرح مشكلته ، وقبل بها السيد هربرت . وضعا كرسيين وطاولة صغيرة فوق الطاولة الكبيرة ، في عرض الشارع ، وافتتح جاكوب العجوز اللعبة . وكان ان فكر بآخر حركة . وخسر .

قال السيد هربرت :

– أربعون بيزو ، وسأمنحك حجرين مسبقاً .

كسب مرة أخرى . كانت يداه تمسان الاحجار برقة . لعب وهو معصوب العينين ، بحدس مواقع الخصم وكسب دائماً . تعب الحشد من مشاهدتهما . وعندما قرر جاكوب العجوز الاستسلام ، كان قد أصبح مديناً بخمسة آلاف وسبعمائة واثنين وأربعين بيزو وثلاثة وعشرين سنتافو .

لم يفقد أعصابه . دون الرقم على ورقة وحفظها في جيبه . ثم طوى

رقعة الدومينو ، ووضع الاحجار في العلبة ، ولفها كلها في الجريدة ، وقال :

– افعل بي ماتشاء ، ولكن اترك لي هذه الاشياء . وأعدك بأني سألعب بقية حياتي حتى اجمع هذه النقود .

نظر السيد هربرت إلى الساعة ، وقال :

– أنا آسف من أعماق روحي . فالمهلة تنتهي بعد عشرين دقيقة .

وانتظر حتى تأكد من ان خصمه لن يجد أي حل وقال له :

– أليس لديك شيء آخر ؟

– الشرف .

فقال السيد هربرت شارحاً :

– أعني شيئاً يتغير لونه اذا مرت عليه فرشاة نقاش ماطخة .

قال جاكوب العجوز وكأنه يحل أحجية :

– البيت . . انه لايساوي شيئاً ، ولكنه بيت على أية حال .

وهكذا حصل السيد هربرت على بيت جاكوب العجوز . كما استولى أيضاً على بيوت وممتلكات آخرين ، لم يستطيعوا الوفاء بديونهم ، لكنه أمر بتنظيم اسبوع للموسيقى والالعاب النارية والرقص وأشرف بنفسه على المهرجان .

كان اسبوعاً لاينسى . تكلم فيه السيد هربرت عن المصير الرائع الذي ينتظر القرية ، بل انه رسم مخططاً لمدينة المستقبل ذات الابنية الزجاجية الضخمة وحلبات الرقص على السطوح المستوية الفسيحة . وعرض المخطط على الحشود . نظروا متعجبين ، وحاولوا العثور على

أنفسهم بين السائرين الذين رسمهم السيد هربرت بالالوان ، لكن هؤلاء كانوا يرتدون ملابس أنيقة لدرجة انه تعذر عليهم التعرف على انفسهم. لقد آلمتهم قلوبهم لكثرة مااستخدموها . وضحكوا ساخرين في ضباب الامل ، إلى ان قرع السيد هربرت الجرس ، واعلن انتهاء المهرجان . وعندها فقط ذهب ليستريح .

قال له جاكوب العجوز :

– ستموت بسبب هذه الحياة التي تعيشها .

فقال السيد هربرت :

– لدي نقود كثيرة ، إلى حد انه ليس ثمة سبب يميتني .

رمى بنفسه على السرير . ونام أياماً وأياماً ، وهو يشخر كالاسد ، ومضت أيام كثيرة ، حتى تعب الناس من انتظاره ، وكان عليهم ان يلتقطوا السرطانات لتأمين طعامهم . وغدت اسطوانات كاتارينو الجديدة قديمة جداً ، حتى ان احداً لم يستطع سماعها دون دموع ، فاضطر إلى إغلاق دكانه .

بعد مرور فترة طويلة من بدء السيد هربرت بالنوم ، طرق القس بيت جاكوب العجوز . كان البيت مغلقاً من الداخل . وكان تنفس النائم يستنفد الهواء شيئاً فشيئاً ، مما جعل الأشياء تفقد وزنها ، وبدأ بعضها يسبح في الفراغ .

قال القس :

– أريد التحدث معه .

قال جاكوب العجوز :

– يجب الانتظار .

– ليس لدي كثير من الوقت .

فقال جاكوب العجوز باصرار :

– اجلس وانتظر ياابتاه . وفي هذه الاثناء تقدم لي معروفاً بالتحدث معي . فمنذ فترة طويلة لاأعرف شيئاً مما يجري في العالم .

قال القس :

– ان الناس يهربون ، وعما قريب ستصبح القرية مقفرة كما كانت في الماضي . هذا هو الخبر الجديد الوحيد .

– سيعودون ثانية . عندما تفوح من البحر رائحة الورد من جديد .

قال القس :

– ولكن حتّى ذلك الحين علينا ان ندعم بشيء ما مَخيلة من يبقون هنا ووهمهم . فبناء المعبد أصبح أمراً ماحاً .

قال جاكوب العجوز :

– ولهذا السبب أتيت تبحث عن السيد هربرت .

قال القس :

– أجل . فالاميركيون يتصدقون كثيراً .

قال جاكوب العجوز :

– انتظر اذن ياابتاه ، فربما استيقظ .

لعبا الدومينو . كانت مبارة طويلة وصعبة ، استغرقت عدة أيام ، ولكن السيد هربرت لم يستيقظ .

استولى الاضطراب على الكاهن بسبب القلق . فمضى في جميع الانحاء ، وهو يحمل صحناً نحاسياً ، ويطالب الصدقات لبناء المعبد . ولكن ماجمعه كان قليلاً جداً . ولكثرة الترجي أصبحت توسلاته أكثر شفافية، وبدأت عظامه تمتليء بالاصوات ، ولكن أحداً لم ينتبه إلى ذلك . عندئذ وضع ملابسه في حقيبة ، ووضع النقود التي جمعها في حقيبة أخرى ، وودعهم إلى الابد .

قال للذين حاولوا ثنيه عن عزمه :

ـ لن تعود الرائحة مرة أخرى . علينا ان نواجه الحقيقة بأن هذه القرية قد وقعت في خطيئة مميتة .

عندما استيقظ السيد هربرت ، كانت القرية قد عادت إلى سابق عهدها . فقد خمّر المطر النفايات التي تركتها الجموع في الشوارع ، وأصبحت الارض من جديد مشققة وصلبة كالآجر .

تثاءب السيد هربرت قائلاً :

ـ لقد نمت طويلاً .

قال جاكوب العجوز :

ـ قروناً .

ـ انني أموت جوعاً .

وقال جاكوب العجوز :

ـ الجميع هكذا . ليس هناك حل آخر سوى أن تذهب إلى الشاطيء وتنقب عن السرطانات .

وجده توبياس وهو ينقب في الرمال ، وفمه مملوء بالزبد ، وذهل

لان الاغنياء في جوعهم يشبهون الفقراء . لم يعثر السيد هربرت على كفايته من السرطانات . وفي المساء ، دعا توبياس ليبحث معه عن شيء يؤكل في قاع البحر .

حذره توبياس قائلاً :

– اسمع. ان الموتى وحدهم الذين يعرفون ما يوجد هناك في القاع .

فقال السيد هربرت :

– العلماء يعرفون أيضاً ، فاضافة إلى بحر حطام السفن توجد سلاحف ذات لحم لذيذ . اخلع ملابسك وهلم بنا .

ذهبا . سبحا في البداية باتجاه مستقيم ، نحو الاسفل ، عميقاً جداً ، إلى حيث انتهى ضوء الشمس ، ثم ضوء البحر ، وأصبحت الاشياء مرئية بضوئها الذاتي فحسب . مروا مقابل قرية غارقة ، فيها رجال ونساء على صهوات الجياد، وهم يدورون حول كشك للموسيقى . كان يوماً رائعاً ، وكانت هنالك أزهار حية على الشرفات .

قال السيد هربرت :

– غرقت هذه القرية في يوم أحد ، حوالي الساعة الحادية عشرة صباحاً . لابد ان ذلك حدث بفعل زلزال .

انحرف توبياس باتجاه القرية ، ولكن السيد هربرت أشار إليه ان يتبعه نحو القاع .

قال توبياس :

– توجد أزهار هناك . وأريد ان تتعرف كلوتيلدي عليها .

قال السيد هربرت :

– تستطيع العودة إلى هنا بهدوء في يوم آخر . أما الآن فإني أموت جوعاً .

كان ينحدر منزلقاً كأخطبوط ، بضربات طويلة ورشيقة من ذراعيه . وفكر توبياس ، الذي كان يحاول البقاء قريباً منه ، بأنه لابد أن تكون هذه الطريقة في السباحة هي طريقة الاغنياء . وخرجا شيئاً فشيئاً من بحر الكوارث العادية ودخلا في بحر الموتى .

كانت هناك أعداد كبيرة ، حتى ان توبياس لم يصدق انه قد رأى مثل هذا العدد من الناس في العالم . كانوا يطفون على ظهورهم ، بلا حراك ، وعلى مستويات عدة من الارتفاع ، وكانت لهم جميعاً ملامح الكائنات المنسية .

قال السيد هربرت :

– إنهم موتى قديمون جداً . لقد احتاجوا إلى قرون ليصلوا إلى هذه الحالة من الراحة .

وفي مياه أعمق قليلاً ، مياه الموتى المحدثين ، توقف السيد هربرت ولحق به توبياس في ذات اللحظة التي مرت بها أمامهما امرأة شابة . كانت تطفو على جانبها ، مفتوحة العينين ، ويتبعها سيل من الازهار .

وضع السيد هربرت سبابته على فمه ، وبقي على هذه الحال إلى ان مرت آخر الازهار . ثم قال :

– إنها أجمل امرأة رأيتها في حياتي .

فقال توبياس :

– انها زوجة جاكوب العجوز . تبدو أكثر شباباً بخمسين عاماً من عمرها ، ولكنها هي . انني متأكد .

قال السيد هربرت :

– لقد جابت مناطق كثيرة . فهي تجر خلفها أزهار كل بحار العالم .

وصلا إلى القاع . دار السيد هربرت عدة مرات فوق أرض تشبه الاردواز المحروث . ولحق به توبياس . وحين اعتادا على عتمة الاعماق فقط ، اكتشفا وجود السلاحف . هنا كانت توجد آلاف منها ، ملتصقة بالقاع ، وثابتة تماماً حتى لتبدو وكأنها متحجرة .

قال السيد هربرت :

– انها حية ، لكنها نائمة منذ ملايين السنين .

قلب احداها . ودفعها برفق إلى الأعلى ، فأفلت الحيوان النائم من بين يديه وتابع صعوده نحو الأعلى . ابتعد توبياس من امامه . ثم تطلع إلى السطح ورأى البحر كله مقلوباً ، فقال :

– انه كالحلم .

وقال له السيد هربرت :

– لمصلحتك الخاصة ، لاتخبر أحداً بهذا . تصور الفوضى التي ستحدث في العالم اذا ما اطلع الناس على هذه الامور .

عندما رجعا إلى القرية كان الوقت قد قارب منتصف الليل . أيقظا كلوتيلدي لتسخن ماء . وذبح السيد هربرت السلحفاة . وكان على ثلاثتهم ، عندما شقوها ، ان يلاحقوا القلب الذي خرج من صدرها وراح يقفز في فناء البيت ليقتلوه مرة أخرى .

أكلوا حتى ماعاد بامكانهم أن يتنفسوا. وعندها قال السيد هربرت :

ـ حسناً ياتوبياس ، علينا ان نواجه الواقع .

ـ بالطبع .

فتابع السيد هربرت :

ـ والواقع هو ان هذه الرائحة لن تعود أبداً .

ـ ستعود .

وتدخلت كلوتيلدي في الحديث :

ـ لن تعود ، وأحد الأسباب هو انها لم تأت أبداً . فأنت الذي خدعت الجميع .

قال توبياس .

ـ لقد شممت الرائحة بنفسك .

فقالت كلوتيلدي :

ـ كنت نصف مخبولة في تلك الليلة . أما الآن فلست مؤمنة بأي شيء له علاقة بهذا البحر .

ـ على كل حال ـ سأرحل ـ قال لهما السيد هربرت ، ثم أضاف موجهاً كلامه إلى الاثنين :

ـ عليكما ان ترحلا أيضاً . هناك أمور كثيرة يمكن القيام بها في العالم ، فلماذا البقاء تحت وطأة الجوع في هذه القرية .

رحل . وبقي توبياس في الفناء ، يعد النجوم حتى الأفق ، واكتشف أن عدد النجوم قد ازداد ثلاث نجوم منذ كانون الأول الماضي . نادته كلوتيلدي إلى الحجرة . ولكنه لم يلتفت إليها .

فقالت باصرار :

ـ تعال هنا أيها الجلف . فمنذ قرون لم نفعل مثل الارانب .

انتظر توبياس فترة طويلة . وعندما دخل اخيراً ، كانت قد نامت . أيقظها نصف ايقاظ ، ولكنه كان مرهقاً ، حتى انهما خلطا بين الاشياء ولم يستطيعا في النهاية ان يفعلا الا مثل الديدان .

قالت كلوتيلدي بمزاج معكر :

ـ انك سارح الافكار . . حاول التفكير بشيء آخر .

ـ اني افكر بشيء آخر .

أرادت أن تعرف ماهو الشيء ، وقرر ان يخبرها شريطة أن لاتخبر به أحداً . فعاهدته كلوتيلدي على ذلك .

قال توبياس :

ـ توجد في قاع البحر قرية بيوتها بيضاء ، وعلى شرفاتها ملايين الأزهار .

رفعت كلوتيلدي يديها إلى رأسها ، وصرخت :

ـ آه ياتوبياس . آه ياتوبياس ، لاتبدأ الآن بحق حب الرب باثارة هذه الامور مرة أخرى .

لم يكمل توبياس حديثه . انقلب إلى الطرف الآخر من الفراش وحاول النوم . لكنه لم يستطع ذلك حتى الفجر ، عندما تبدل اتجاه الريح ، وتركته السرطانات ابنام بهدوء .

١٩٦١

ترجمة : صالح علماني

خوليو رامون ريبيرو
(البيرو)

* ولد خوليو رامون ريبيرو في ليما ، عاصمة البيرو ، عام ١٩٢٩ .

* مارس أعمالا ومهناً متعددة ، ويقول في مقابلة اجريت معه : « اشتغلت معلماً ، وبائع منتجات المطابع ، ومساعد محام ، وبواباً في فندق ، وجامعاً للصحف القديمة ، ومترجماً في وكالة أنباء ، وملحقاً ثقافياً في سفارة .

* فازت روايته « عبقريات أيام الآحاد الصغيرة » بجائزة بوبو ليبروس عام ١٩٦٥ .

* ترجمت معظم أعماله إلى الفرنسية والالمانية والانكليزية والهولندية والايطالية والرومانية وغيرها .

* من أعماله :

– طيور باشق عديمة الريش	قصص قصيرة	١٩٥٥
– قصص ظرفية	قصص قصيرة	١٩٥٨
– حكاية من سان غابرييل	روايـــــة	١٩٦٠
– الزجاجات والرجال	قصص قصيرة	١٩٦٤
– ثلاث حكايات متهيجة	قصص قصيرة	١٩٦٤
– عبقريات أيام الآحاد الصغيرة	روايـــــة	١٩٦٥

الفتاة ذات الندبة

جاءت بها العاصفة .

قدمت من الشمال . عابرة الرياح في عربة العجوز ماتياس . رأيتها تصل فسرى ضعف في ساقي . كانت ترتدي وشاحاً أحمر ،وشعرها مشعث ، بفعل الرياح المحملة بالرمل . كان الطقس سيئاً . شاهدنا العاصفة تأتي منذ أسبوع من الجنوب المظلم ، بينما كان فتات السحب يهرع في السماء ،أبيض كذيل بغلة ،والدلافين تقفز في البحر كالممسوسة : حلت العاصفة وباتت لدينا .

كان ذلك في شهر تشرين الثاني عندما تقترب اناث أسماك القرش لتلد على الشاطىء وهي تحك بطونها على رمال القاع . .

كانت الخيول تجر المراكب إلى مابعد الرصيف الذي يحمي الميناء ما ان تمنح العاصفة هدنة ، فيمضي الصيادون إلى أعماق البحر . لكنه كان ثائراً يمور فتخرج الشباك متشابكة بنباتات اليم وبالنفايات. بالاضافة الى بعض أسماك القرش الميتة أو المحتضرة . فيضيع الوقت في اصلاح الشباك .

وفجأة ، يتغير اتجاه الريح ، فتهاجم بوحشية من الشرق أو الجنوب. تغدو السماء فاحمة وتكنس الامواج المراكب : لابد من العودة إلى الشاطىء .

قبل ان تصل لايام ثلاثة انقلب مركب خدعته الرياح . ذهب البحر بالصياد ولم يعده . كنا نتحدث عن ذلك الرجل، كان اسمه « كالابريس » وكنت ادير ظهري للباب مستنداً إلى الطاولة . استدرت لحظتئذ كأنما نودي لي ، فرأيتها ، غص حلقي برشفة الجن . كانت السماء خلف النافذة قاتمة سوداء ، وكان بالامكان رؤية اعلان الصفائح المهترئة الذي يقول : « أهلاً وسهلاً » و « كوكاكولا » وعربة العجوز ماتياس وهي جالسة بجانبه تحادثه ، بلا عجلة ، بينما يحاول العجوز اشعال غليونه فتمنعه الرياح من ذلك .

– مارأيك يادكتور ؟

قالها رجل يجلس قربي ، وأضاف : « لم يسبق لنا ان رأينا امرأة جميلة كهذه » . رفضت « فلافيا» اليد التي مدها العجوز وهبطت قافزة . ناولها الجعبة وأشار لها برأسه باتجاه المنارة ، أو بيتي .

ناديتها من باب الحان .

لم أركض ، وهي لم تفعل أيضاً .

كانت متسخة بسبب الغبار ، والتعرق والريح، لكنها كانت نضرة.

ضحكت ، مسندة يديها إلى خصرها :

– ألاتنهار من المفاجأة ؟

ودعتني لأقبـّلها .

كذبت قائلاً : كنت عارفاً انك آتية .

شعرت ان القرية برمتها تحملق فينا . كانت قرية صيادين من الغاوتشو (١) وهي لاترد في الخريطة .

دلها « كاريثو » على مكاني . وحسناً فعل اذ فض السر .

كذبت : انك لم تتغيري .

– وأنت أيها الناحل ، ينقصك سن .

كنت قد فقدته تحت التعذيب ، لكننا لم نتحدث عن ذلك .

كذبت : حدث منذ سنة . شهّر أحدهم بي فبحثت عنه حتى وجدته وسألته لماذا لايُدخل لسانه في قفاه . وكان أقوى مني .

عاودت الضحك بعصبية ، ولمست بسبابتها ندبتها التي على الذقن .

كان الحر رصاصياً ، والهواء حامل .

– ٢ –

شاهدنا معاً في تلك الليلة ، عبر نافذة بيتي المشرعة ، انفجارات البروق وهي تضيء بيوت القرية . انتظرنا معاً الرعود ، وانفلات المطر .

– هل تطبخ ؟

– قليلاً ، بطاطا . . سمك . . .

وحيداً ، ومستنداً بمرفقي إلى النافذة ، كنت أقضي الليالي ، مداعباً زجاجة جن ومنتظراً النعاس أو المرض . عيادتي أرض ترابية ، وفانوس

(١) سكان البامبا الأصليون ، أو الهجين الناتج من اختلاط الاسبان بالهنود الحمر .

كاز . كانت تحتوي سريراً ، سماعة طبية، زوجين من الحقن، أضمدة، ابر ، خيط ، والنماذج المجانية للادوية التي كان يرسلها كاريثو من العاصمة بين الثمينة والاخرى . بذلك ، وبسنتين من الدراسة في الكلية ، كنت أتدبر أمري في ترقيع الرجال ومقاومة الحمى ، وكنت في ليالي السأم أتمنى حدوث فاجعة كيلا أشعر بأني غير ذي نفع .

لم أكن استمع إلى المذياع لان ذلك الشاطىء يحمل خطراً واغراء الوقوع على محطة اذاعة من بلدي .

ــ لم أصادف امرأة في هذه القرية . هل جرت تلك الأمور أيضاً ؟

ــ كما ترين .

ــ أكاد لاأتعرف عليك .

كنت أنام وحدي ، على سريري الفقير . نوابض الفراش اخترقته وبانت رؤوس اللوالب المعدنية المهددة . لابد من النوم متكوراً كيلا تصاب .

قلت لها منفعلاً الفكاهة :

ــ أجل . انتهت بالنسبة إلي الحياة السرية . لم يعد لدي مواعيد سرية ، ولا مواعيد مع نساء متزوجات .

صمتنا .

دخنت سيجارة.. اثنتين . ،

سألتها ، اخيراً لماذا جاءت . فقالت انها بحاجة إلى جواز سفر .

ــ أمازلت تزورها ؟

– أتفكرين بالعودة ؟ أتذهبين إلى فم الذئب ؟ ولم ؟

قلت لها : مادامت الامور على ماهي عليه فان فعلتها ستكون حماقة ، وانه لاوجود للبطولة عبثاً ، وان . . .

– هذا أمر يخصني أنا – قالت – سألتك اذا كنت ماتزال تزورها .

انفجر الرعد الاول في السماء .

قلت لها :

– مادمت تحتاجينه .

– وكم يطول ؟

– للآخرين يوم واحد . أما لك ، فاسبوع .

ضحكت وداعبت رأسي . قالت :

– لست على عجلة أيها الناحل .

سقطت قطرات المطر الاولى ، كبيرة ، حارة ، وارتفعت من الارض سحب البخار ، وجاءنا من التلال عطر النباتات المبتلة الاخضر .

في تلك الليلة ، وللمرة الاولى ، أعددت الطعام بهمة . طهوت لفلافيا سمك الكورفينا على الجمر بينما حضرت هي مرقاً مما وجدته في البيت . أكلنا وشربنا النبيذ ، والمطر ينهمر بشدة في الخارج .

ثم جاءت القبلات . كانت مغمضة العينين عندما ألبستها عقداً من فقرات سمك القرش كنت أحتفظ به من أجلها .

— ٣ —

بدت السماء في اليوم التالي صافية زرقاء . فخرجنا نبحث عن القواقع التي رمتها العاصفة على الشاطيء .

جزر البحر فحفرنا الرمل باحثين عن المحار وعدنا إلى البيت نحمل كيساً مليئاً منها . كانت الشمس تنتقم محرقة .

— ٤ —

التقينا أيام حظر التجول. كنا نمشي ونتعانق ويقبل أحدنا الآخر، ماان نشاهد زياً عسكرياً . أملت ضرورات الأمن القبلات الأولى ، أما التالية فكانت لرغبة فينا . كانت شوارع المدينة في تلك الايام خالية من الناس . كان التحدث خطيراً ، والصمت كذلك . . كانوا يلاحقوننا ، يحاصروننا ويصطادوننا كالفئران . المعذبون والمحتضرون يتبادلون الاسماء ويتلامسون برؤوس الاصابع .

كنت ألقي فلافيا في ملجأ جديد دوماً . ويتملكنا الرعب في دقائق التأخر .

كنا نسمع صفير الدوريات وضجيج خطوات الليل باتجاه الصباح متعانقين . كنا قد اكتشفنا أو سيطرنا على منطقتنا الحرة ، وكنا نشعر بضرورة الدفاع عنها ، فذلك حق لنا ، فلا ننام . يأتينا من الخارج صياح الديك ونداءات جامع الزجاجات . ضجة صفائح النفايات ، وربما صرخة أو اطلاق للنار . بعدها كان على جانب كبير من الاهمية ان نتناول الفطور معاً .

لم نتفوه أبداً بكلمة حب . كانت الكلمة تتسلل هرباً عندما نقول :

« انها تمطر » أو « انني على مايرام » وما كنا بحاجة إلى أكثر من هذا . كنت على استعداد لاطلاق الرصاص على ذاكرتها كيلا تذكر أمامي شيئاً عن رجل آخر .

كنا نقول :

— يوماً ما ، عندما تتغير الظروف .

— عندما نكون أكبر سناً وأهدأ بالاً .

— سيكون لنا بيت .

— وسنبقى فيه ، سوية ، مانشاء من الزمن .

— سيكون رائعاً .

مرت ليال ونحن نفكر باننا نناضل في سبيل ذلك : يخاطر الناس لكي يكون ذلك ممكناً .

وهاهي ذي قد عادت .

عادت لتجد الطقوس الصغيرة دونما تغيير . الطقوس : ان تبلل اصبعاً في كأس النبيذ وتمرره على الندبة التي تقسم ذقنها . ان تستعير ساقها من تحت الطاولة ، تدخين السيجارة ذاتها ، شرب الانخاب والكأسان ملتصقين ... الطقوس : نقل الدخان أو الخبز من فم إلى فم .

— ٥ —

طلع القمر ، مبتلاً ، قبل ان تغيب الشمس .

تمشينا لغاية الشاطىء الصخري. طير البطريق يتبعنا بطيران منخفض.

سبحنا في البحر عراة . لم يسبق لها أن جربت ذلك .

رأينا من بعد نقاطاً تكبر : قوارب الصيادين ، تعود ومستودعاتها مليئة بسمك القرش . . كنت أعرف ذلك الاحتضار الفظيع : الاسماك المختنقة تتقلب في الشباك موزعة عضات عشوائية عمياء قبل ان تهوي مكدسة .

هبت رياح الشمال الحارة .

الاسماك تسبح باتجاه معاكس للريح فيمساك الصيادون بها قرب الشاطىء .

مارسنا الحب على الرمال . لم يسبق لها ان فعلته هكذا .

عدنا بينما كانت تتلاحق على الرمال ظلال النورس .

ركبنا صهوة جياد الشاطىء التي تهوى البحر ، وعدونا بها ناثرين الرغوة . هبط الليل . امتطينا الجيـــاد عاريين . لم يسبق لهـــا ان فعلت ذلك .

اخترق القمر نصف السماء وارتفع المد .

— ٦ —

لن يجدك أحد هنا . ابق . ريثما تتبدل الظروف .

— وهل تتغير وحدها ؟

— وماالذي تنوين عماله ؟ الثورة ؟

— جلدي لايسمح لي بكل هذا .

— الحرب اذن ؟ حرب في صحراء . لك وحدك .

— الصحراء هي بلدك أيها الناحل . وأنا ، ماأنا سوى نملة ونحن

معشر النمل لانقوم باعمال كبيرة كالثورات والحروب . ننقل وريقات أو رسائل ، تساعد بعض الشيء .

– انها وريقات ، فقد بقيت هناك بعض النباتات .

– وبعض الناس أيضاً .

– أجل . الشيوخ ، الشرطة ، السجناء ، والمجانين .

– ليس تماماً هكذا .

– بل لاتريدين ان يكون كذلك . وأنا أيضاً ، بالطبع .

– لقد مكثت طويلاً في الخارج ، بعيداً . . لوقت طويل .

– وماذا في ذلك ؟

– وها أنا ذا قد اقتربت . وكأنني عدت . أتعرف أي شعور يراودني ؟

– يخيل إلي ، ولكن . . . .

– مايشعره الرضع لدى اكتشافهم العالم . يتأملون اصبع القدم الكبيرة ويكتشفون العالم ويشعرون بما أشعر به الآن، أتعرف هذا .

– أجل . اعرف .

– ذلك ماأشعر به .

– لايهم . الواقع ماتشعرين به أنت يافلافيا . فهو كما هو .

– وهل نستكين في الزوايا ونجهش بالبكاء ؟ هل نبالل المناديل في الزوايا ؟

– ستة ضرب سبعة يعطيك اثنين وأربعين بدلاً من أربع وتسعين ، وأنت تغضبين . من هو ابن العاهرة الذي يبدل الأرقام ؟

– قل لي ، أيها الناحل ، أصحيح مايقال . .

– وماذا يقولون ؟ أجهل مايقال .

– انك ماعدت تؤمن بشيء . انك لاتهتم بشيء .

– لانني محوت نفسي .

– لماذا ؟ أسألك .

– أتيت إلى قفا العالم . . وبالطبع ، أنا لاأصنع هنا التاريخ الكوني . لكنني تعلمت بعض الامور .

– هل أنت نادم ؟

– لاأؤمن بالعراك مع الذين في الاسفل بينما اصفر واصفق من الشرفة ، لا ، لا أؤمن بذلك .

– ومن الذي يؤمن ؟ لاأحد .

– لاأحد ، هذا ماتظنينه ، اليوم المباراة الكبرى ، اليوم ، الفتى يصارع الحقير – بالاحرى : الفتاة – توقفي لحظة وفكري قليلاً . فكري .

– لقد فكرت بالامر كثيراً أيها الناحل .

– ماذا تبقى بعد كل ذلك الدخان والبارود المحترق ؟ معسكر اعتقال ومقبرة .

– وهل بامكانك ان تبين لي كيف نسقط ديكتاتورية ؟ أبسهام من الورق ؟

– لاأعرف بأي شيء .

– اتسقطها من هنا ؟ بالتوجيه عن بعد ؟

– آه . أجل . البطلة الوحيدة تبحث عن الموت . لا . ليست فحولة البرجوازي الصغير ، بل انوثته .

– ماعندك هو أسوأ . الانانية .

– أو الجبن . انطقيها .

– لا . لا .

– قولي : نذل . قولي : هارب .

– لا .

– أتدرين ؟ انني أقرف من الالهة والقضاة . اقد سئمت . هل تسمعين ؟ بأي حق . .

– انك لاتفهم أيها الناحل .

– أنت التي لاتفهمين .

– ولم رد فعلك هذا ؟

– وأنت ؟

– أعرف أنك غني عن التجربة . حسناً ، لندع الموضوع . لاتكن أحمق .

– لكنك قلت أن . .

– وأنت قلت بدورك . هل نعاود الحديث ؟ حسناً، أنا التي أخطأت.

– اعذريني .

– لاداعي للخلافات، فمن الحماقة ان نتشاجر في الايام المقبلة . .

– أجل ، الايام القليلة .

– أيها الناحل !

– ماذا ؟

– لن نتشاجر بسبب توافه . ها ؟

– لكنها ليست توافه يافلافيا. لقد نزعت السرج ريثما يطلع الضوء. لاأحد يملك الحق في . . . أعرف ماأفعله ، وليس خوفاً .

– بالطبع أيها الناحل .

– أجهل ما اذا كانوا يبحثون عني ، لكنني واثق من أنهم لن يجدوني .

– حسناً أيها الناحل .

– لن يجدوني .

– أعرف ذلك .

– أذن ؟

– ولكن ، هل ستبقى على ما أنت عليه ؟

– وما الذي أنا عليه ؟

– هكذا ، هنا ، في هذا المكان .

– أو تعتقدين انه يروق لي أن أكون هنا . كالمبشر ؟

– اذا ؟

– اذاً ماذا ؟

– لا ، بدأ .

– أحياناً . . . أحلم أحياناً . . بأنني أبحث عن أناس ولا أجدهم . أبحث عن أماكن غير موجودة . واستيقظ مدركاً اننا لن نجتمع كلنا مرة أخرى ، فاشعر باعياء يفقدني رغبة الاستمرار .

– ولكن . قل لي ، ماالعمل .. ماذا بامكاننا أن نفعل ؟

– وهل تظنين انني كنت لابقى هنا لو علمت ؟

– أتعرف أيها الناحل ؟

– ماذا ؟

– كلنا أيتام .

– أجل .

– أيتام .

– أجل ، لكنني أحبك .

– ٧ –

رحنا لزيارة القبطان .

القبطان على اليابسة كمن في زيارة . مسكنه الحقيقي هو البحر ، مركبه « فوراخيدا » التي تضيع بعيداً عن الافق في الايام الرائعة .

لقد ثبت خيمة بين اشجار السنديان تحسباً للطقس السيء ، وفي ظلهايجلس لشرب المتة محاطاً بكلاب هزيلة. بدجاجات وبخنازير يرعاهاالله.

كانت له عضلات حتى في الحاجبين .

لم يستمع في حياته إلى نشرة عن الطقس، ولا استشار يوماً خارطة الابحار ، لكنه خبير بذلك البحر . أحياناً ، عند العصر ، كنت أمضي إلى الشاطىء لاراه عائداً . يقف على سطح مركبه وقد باعد ساقيه واسند قبضتيه إلى الخصر ، يقترب من الشاطىء . وكنت أتخيل صوته يلقي الاوامر لعامل الدفة . القبطان يقترب . على حافة الموجة العاتية : يركبها عندما يشاء ، يروضها : ويجعلها تأخذه بهدوء حتى الشاطىء . كان

القبطان يحسن مهنته . . يحبها ، وكان يسرني الاستماع إليه . اذا حدث لك ان أضعت شمالاً فانه مخبأ في الجنوب : علمني القبطان الاحساس بتبدلات الريح . وعلمني كذلك سبب وقوع اسماك القرش في الشباك ، وكيف لاتستطيع التقهقر ، وكيف انها لاتشم سوى رائحة الدم . وكيف تلتهم اسماك الكورفينا السوداء الاسماك الصدفية المستكينة في القاع : انها تبصق القشور مستلقية على بطنها ، وكيف تتضاجع الحيتان في بحار الجنوب المتجمدة ، وكيف تظهر فوق سطح الماء وقد تعانقت ذيولها .

لقد تجول القبطان في هذا العالم ، والاستماع إليه بمثابة القيام برحلة عودة ، من المصير إلى ميناء الانطلاق ، فتلاقي في الطريق الغموض ، والجنون ، وروعة البحر ، وأحياناً ، نادراً ، الألم الابكم أيضاً ، لكن الحكايات القديمة كانت أكثر مرحاً ، وكنت أتصور ان القبطان ، في سنوات شبابه ، قبل الندوب التي قلما يحكي عنا ، كان يمرح حتى وهو في الجنازات .

وبينما نحن نثرثر ، كانت تصل خيمة القبطان همسات منشار لاينتهي ، خوار البقر ، وطرقات الحذّاء الذي يهوي بمطرقته على لوح معدني يحمله فوق ركبتيه من أجل تطرية الجلود .

كان يحدثني عن مدينتي التي عرفها جيداً ، وبكلمة أدق ، عرف الميناء والخليج . . . وأكثر مايعرفه من المدينة هو أزقتها التحتانية ، البارات والفتيات ، واحدة واحدة . يسألني عن بعض المقاهي والحانات فأخبره انها اختفت ، فيصمت . ويبصق تبغاً .

كان القبطان يقول :

— لاأثق بهذا الزمان .

تحدثنا مرة عن مقهى يقع عند زاوية الحديقة ، وكان قد أغلق بشكل نهائي ، فقال لي :

– عندما تعمر الجدران أقل من الرجال فذلك يعني ان الامور لاتسير على مايرام . الاوضاع سيئة في بلدك . اني أدرك ذلك .

وكان يحكي لي عن قرية الصيادين تلك ، التي عرفت أيام عز عندما كانت قيمة كبد سمك القرش تساوي وزنه ذهباً ، وعندما كان البحارة يقضون الايام العاصفة عند دونيا فيكتوريا محتسين الويسكي الممتاز ولاعبين بالورق وقد جلست على كل ركبة عاهرة فرنسية ، بينما يلوح قزم بمروحة ، وينشد عازفو الجيتار قصائد الحب . رمق فلافيا بريبة . أرادت ان تستميله ، فكان يشخر . مزحت معه . تدللت ، بلا فائدة .

كان يحدثها عني :

– انظري يافلافيا – كان يقول لها – اسمك فلافيا أليس كذلك ؟ حسناً ، استمعي إلي جيداً . هذا الرجل لن يتحرك من هنا . لن يغادر المكان . اسمعت ؟ اننا نحتاج إليه .

– لكن ، أيها القبطان – كانت تحتج – أنت لا . .

– أبداً ، أبداً .

– لكنني لا . . .

– هنا في القرية – كان القبطان يقول – بعضنا للبحر والبعض الآخر للارض ، أما هو – وكان يشير إلي – فلنا نحن .

قطب في احدى الاماسي جبينه وحدثها بصوت خفيض كيلا أسمع ما يقوله :

– عندما جاء هذا الرجل إلينا – روى لها – قتل بنفسه الجواد الذي حمله . أطلق عليه النار .

ما كان يثق بفلافيا لكنه كان يصب لها المتة ويقدمها مرفقة بالبسكويت المصنوع من اليانسون وقصب الباراغواي الذي أجهل من أين يجلبه .

– وأنت أيضاً تعارضين كل شيء ، مثل هذا ؟ – سألها مرة – ألا يناسبك شيء ؟ فهو يشكو من كل الامور – شخر مشيراً إلي بسبابته .

روت له فلافيا قصة ميلاد ثائرة . قالت أنها في التاسعة من عمرها ذهبت إلى مركز الشرطة لاجراء معاملة الهوية الشخصية . وقالت انه كان هناك موظف بشاربين من الاسلاك جالساً إلى الجانب الآخر من الطاولة : « لون العينين » سأل الموظف . فخطت خطوة إلى الوراء وأجابت « أخضر » فقام ابن العاهرة وانحنى على الطاولة وقرر : « بني » .

لكن القبطان لم يضحك .

بصق النيكوتين وتأمل تبخر لعابه بفعل الشمس ، وطلب من فلافيا القيام بمهمة لدى عودتها إلى مدينتنا بأن تذهب إلى القلعة وتبحث في الجدار المطل على الخليج ، ووراء المدفع الاخير إلى اليمين – فمنذ نصف قرن قام بحفر علامة حب على ذلك الجدار الحجري .

– اذا صعبت قراءتها فاحفريها مرة أخرى .

كان ذلك ألطف ماسمعته فلافيا منه . لكنه كان اساوباً لطردها ، وقد تأكد ذلك فيما بعد .

– ٨ –

استيقظنا ليلاً على طرقات الباب والصياح . كادوا يهشمون الباب

فهرعت برفقة فلافيا إلى بيت الابتر خوستينو : انقابت السمكة وهو منهمك في حل الشباك عنها وعضته ، ففقد خوستينو ذراعه . كانت معرفتي به محدودة ، لكن الجميع يعرفون الحادثة .

تمايل فانوس الكاز المعلق في الكوخ . زوجة الابتر تعوي وقد ابعدت ما بين ساقيها . فخذاها متورمان بزرقة . على البشرة المشدودة غابة من العروق .

طلبت من فلافيا ان تغلي قدراً من الماء ، وأمرت الابتر المنفعل الذي كان يتعثر بكل شيء ان ينتظر في الخارج . جاء كاب واختبأ تحت السرير فأخرجته بالركلات .

ألقيت نفسي وروحي فوق بطن المرأة . كانت تعوي كالوحش ، تعوي وتسب : لا أحتمل ، انه يؤلمني كراخو ، انني أموت ، وهي تتفصد عرقاً . كان الرأس الصغير بين فخذيها ، لكنه يمتنع عن الخروج ، لايخرج ، فصرخت بدوري وضغطت بكل ثقلي دافعاً بطنها .

ضربت المرأة بقبضتها على عمود خشبي فكاد السقف ينهار على أثرها ، وأطلقت صرخة طويلة حادة . كانت فلافيا بجانبي .
وتجمدت من الخوف .

ولدت الطفلة وقد أحاط الحبل السري رقبتها.وجهها أزرق متورم، بلا ملامح،مغموسة بالزيت وبخراء أخضر وبالدم، وألم رهيب باد على وجهها . لم تكن ملامحها واضحة لكن الالم كان جاياً . وأعتقد أنني فكرت : مسكينة . هكذا ، بهذا الشكل المبكر .

كنت أرتجف من رأسي إلى أخمص قدمي ، أردت التقاطها لكنني فقدت يدي .

انزلقت .

قامت فلافيا بفك الحبل عن العنق .

وانتظرت .

فلافيا تمسكها من قدميها وتدليها في الهواء

ضربتها برفق على ظهرها .

الثواني تمر ،

لاشيء .

وانتظرنا .

أعتقد أن الابتر كان عند الباب ، راكعاً ، يصلي . المرأة تئن ، تشتكي بخيط صوتي . كانت بعيدة ونحن ننتظر والوليدة مدلاة .

عدت وضربتها على الظهر .

تدوخني تلك الرائحة القذرة الحلوة .

وفجأة ، احتضنت فلافيا الرأس وقربته من فمها وقبلته بعنف .

امتصت وبصقت ، ثانية مخاطاً أبيض،لعاباً . . فبكت الطفلة أخيراً.. لقد ولدت ، وهي حية .

ناولتني الطفلة فغسلتها . ربطت زوجاً من العقد القوية بخيط عادي ، وبشفرة حلاقة قطعت الحبل .

دخل الناس ،

فخرجت مع فلافيا .

كنا مرهقين وقد اعترانا شيء كالبله . مضينا لنجلس على الرمال ، عند البحر ، وبدون تفوه تساءلنا :

وكيف حدث ؟

كيف حدث ؟

فاعترفت :

– انها المرة الأولى . وكنت أجهل ما يجب فعله. كانت المرة الأولى.

فقالت :

– وأنا كذلك .

اسندت رأسها على صدري . شعرت بضغط أصابعها تنغرز في ظهري وحزرت أن الدموع حبيسة في مقلتيها .

سألت أو تساءلت بعد هنيهة :

– ترى ، كيف يكون للمرء ابن ؟ ان يكون لها .

وقالت :

– لن يكون لدي أبداً .

ثم جاء بحار أرسله الأبتر ليسأل فلافيا عن اسمها . كانوا بحاجة لاسم من أجل التعميد .

– ماريانا – قالت فلافيا .

ودهشت . لم أقل شيئاً .

ترك لنا البحار زجاجة كحول ، فشربت ، وشربت فلافيا .

– وددت دوماً لو أدعى كذلك – قالت .

وتذكرت انه الاسم الذي كنت أسجله في جواز السفر ببطء، ببطء؛ لتذهب .

— ٩ —

غمست الصور في الشاي لتتعتق . محوت حرفاً فحرفاً باحماض فرنسية كنت أحتفظ بها . « ديزان » فوق بصمة الابهام ، ثم عجينة الخبز وممحاة الحبر . كويت الصفحات بمكواة فاترة ، فتعرى الجواز ثم ألبسته شيئاً فشيئاً . طبعت أختاماً وتواقيع . ثم فركت الاوراق بالاظافر .

— ١٠ —

تقترب نهاية السنة . مضى شهر على قدوم فلافيا . ولد القمر وقرونه إلى أعلى . لقينا طير بطريق صغير تيبس جناحاه بالنفط. كان ينتظر ، بلا حراك ، مديراً ظهره للبحر .

بعيداً من هناك ، ليس كثيراً . أحدهم يشتم . أحدهم يتهشم . بعضهم يفقدون عقولهم بسبب العزلة والجوع . يضغط على زر فتئز الآلة، تفتح فكيها الفولاذيين . يرى رجل ولده المسجون منذ زمن بعيد ، عبر القضبان ، ويتعرف عليه من الحذاء البني الذي أهداه أياه .

— قل لهذه الكلاب ان تصمت .

فلافيا المذنبة . فبسببها كنا نتناول طعاماً ساخناً مرتين في اليوم ، ونتدفأ في الشتاء ، ونتمتع ، فقالت لي :

— قل لهذه الكلاب ان تصمت . اذا صمتت سأبقى .

— ١١ —

أوينا إلى الفراش متأخرين وأفقت وحدي .

سكبت كأساً من الجن . يدي ترتجف . ضغطت على الكأس . عصرته ، كسرته ، فأدميت يدي .

— ١٢ —

جاء كارينو بعد شهر من ذلك .

صعب عليه أن يخبرني .

لم أطلب تفاصيل . لم أشأ الاحتفاظ في ذاكرتي بميتتها الفظيعة ، فرفضت معرفة ما اذا كانوا قد خنقوها بكيس من البلاستيك أو في بركة ماء ونفايات ، أو أنهم فجروا كبدها بالرفسات .

فكرت كيف ان سعادتها في حمل اسمها « ماريانا » لم تدم طويلاً .

— ١٣ —

قررت الرحيل برفقة كارينو ، عند الفجر .

جهز لنا العجوز ماتياس الجياد . سيرافقنا .

انتظراني عند الجانب الآخر من النهر بينما رحت لاودع القبطان .

— أتسمح لي بمعانقتك ؟

كان القبطان يدير ظهره لي . استمع إلى تفسيري . فتح النافذة وتطلع إلى السماء . اشتم النسيم .

كان يوماً جيداً للابحار .

سخن الماء من أجل المتة . لم يقل شيئاً . وظل مديراً ظهره . سعلت .

— امض — قال اخيراً بصوت مبحوح — اذهب . سنحرق بيتك — قال لي — وكل ماهو لك .

ركبت صهوة حصاني وانتظرت .

فخرج وهوى بالسوط بقوة على مؤخرة الجواد .

عدونا خبباً .

ـ « أخت هذه الشغلة » فكرت . فكرت بنفسي ، بانني مصارع ثيران متقاعد،أعود إلى الحلبة وعلي ندوب أكثر من الاحلام.«أخت هذه الشغلة » لابد من وجود شيء ما . لابد من وجود شيء أفعله لتتحسن الاحوال . لايمكن الاستمرار هكذا ، لا أستطيع . لانستطيع . لابد من ان نعمل شيئاً فشيئاً ، لابد من وجود شيء آخر غير الهزيمة .

أنا رجل وحيد ، بلا ذاكرة أو مشروع . . . فحزنت على نفسي .

كنا نعدو خبباً .

وفكرت بجسد تلك المرأة الطري والعنيف . ستلاحقني حتى النهاية . سأجد رسالة منها ما ان أفتح الباب ، وعندما أنهار لانام على أرض أو سرير ما سأتنصت وأعد الخطوات على السلم خطوة فخطوة ، أو أزيز المصعد ، طابقاً فطابقاً ، ليس هذا خوفاً من الشرطة ، وانما رغبة مجنونة في ان تكون حية وتعود ، سأراها في وجوه الاخريات . سأبحث عن الاسم والصوت والوجه ، سأشم رائحتها في الشارع . ساسكر ، لكن ذلك لن يفيدني ـ فكرت ـ الا اذا سكرت بلعاب ودموع تلك المرأة .

ترجمة: عاصم الباشا

ماريو بارغاس يوسا

«البيرو»

* ولد ماريو بارغاس يوسا في مدينة اريكيبا (البيرو) في الثامن والعشرين من اذار ١٩٣٦ .

* درس الآداب والفلسفة في جامعة سان ماركوس في ليما ، وخلال دراسته مارس عدة أعمال ، كما بدأ بنشر قصصه القصيرة الأولى . وقد حصلت إحدى تلك القصص على جائزة اتاحت له السفر إلى أوروبا .

* منذ صدور كتابه الأول « القادة » عام ١٩٥٩ وهو يعيش خارج بلاده ولم يعد إليها الا زائراً عدة مرات .

* يعيش حالياً في اوروبا متنقلا مابين فرنسا واسبانيا .

* يمارس ماريو فارغاس يوسا الصحافة بالكتابة إلى عدد من الصحف والمجلات في عدة بلدان ، ويعمل استاذاً زائراً في جامعة ريو بيدراس (بويرتو ريكو) ، وفي جامعتي واشنطن وكولومبيا بالولايات المتحدة .

* عمل كمخرج سينمائي في الفلم المأخوذ عن روايته « بانتاليون والمفتشات».

* صدرت رواياته في عدد كبير من اللغات العالمية وفي عدة طبعات بكل لغة .

* أحرزت أعماله جوائز مختلفة ، ونالت روايته « البيت الاخضر » جائزة روميلو غايغو سنة ١٩٦٧ .

* من أعماله :

— القادة	قصص	١٩٥٩

- المدينة والكلاب رواية ١٩٦٣
- البيت الاخضر رواية ١٩٦٦
- الجراء قصص ١٩٦٧
- محادثة في الكتدرائية . رواية ١٩٦٩
- العمة جوليا والكويتب . رواية ١٩٧٧

زائــــر

تلعق الرمال واجهة الخان ، وتنتهي هناك : تنزلق النظرة من الثغرة التي تستخدم كباب أو عبر نبتة (الكاريشو) على مساحة بيضاء واهنة حتى تلتقي بالسماء .

التراب قاس وخشن خلف الخان ، وعلى مسافة تقل عن كيلومتر واحد تبدأ المرتفعات المغطاة بالعشب ، كل جبل منها أعلى من سابقه ، كلها متحدة تغرز قممها في السحب كأنها ابر أو فؤوس . إلى اليسار ، ضيقة ، متماوجة ، ممتدة على حافة الرمال ونامية بلا توقف حتى تنتهي بين جبلين ، بعيداً عن الخان ، تقع الغابة ، احراج ، نباتات برية وعشب يابس معوج ، تخفي كل شيء : الأرض المتشققة ، ثعابين الكوليبرا ، المستنقعات الصغيرة . لكن الغابة ليست سوى اعلان عن الأدغال ، تقليد لها : فهي تنتهي إلى منخفض عند قدم جبل صامد ، ذلك الذي تمتد وراءه الادغال الحقيقية . ودونيا ميرسيدتياس تعرف هذا ، فمرة ، منذ سنوات ، تسلقت سفح ذلك الجبل وتأملت من هناك ، بعينين مدهوشتين عبر لطخات السحب السابحة عند قدميها ، الأرض الخضراء الممتدة طولاً وعرضاً بلا انقطاع .

ودونيا ميرسيديتاس غافية الآن على كيسين . المعزى ، أبعد قليلاً ، تحفر الرمل ببوزها ، تمضغ نثرة من خشب باصرار ، أو تعب من هواء الأصيل الفاتر . تستقيم اذناها على حين غرة وتغدو جامدة . تفرج المرأة عينيها قليلاً :

ـ ماذا يحدث ياكوبرا ؟

يشد الحيوان الحبل الذي يوثقها بمربط. تنهض المرأة جاهدة وتقف. يبدو الرجل مرسوماً بوضوح على مسافة خمسين متراً وعلى خلفية الافق يسبقه ظله على الرمال . ترفع المرأة يدها إلى جبينها كمظلة ترمق المكان بسرعة ، ثم تبقى ساكنة .

الرجل قريب ، انه طويل ، ناحل وقذر ، شديد السمرة ، شعره مشعث وعيناه ساخرتان . يرفرف قميصه الذي فقد لونه فوق البنطال الصوفي ، وقد زم نهايتيه حتى الركب . تبدو ساقاه كقطعتي خشب أسود .

ـ مساء الخير ، أيتها السيدة ميرسيديتاس . ـ صوته منغم واستهزائي.

لقد شحبت المرأة . تهمس :

ـ ماذا تريد ؟

ـ لقد عرفتني ، أليس كذلك هيا ، ان هذا يفرحني . أريد تناول بعض الطعام من فضلك . وبعض الشراب . انني عطشان جداً .

ـ هناك بيرة وفواكه في الداخل .

ـ شكراً أيتها السيدة ميرسيديتاس . انك طيبة ، كالعادة ، ألا ترافقينني ؟

ـ ومن أجل أي شيء ؟

ترمقه المرأة بتوجس . انها بدينة ومتقدمة في السن لكن بشرتها ناعمة وهي حافية . .

– إنلك تعرف الحان .

– اوه – يقول الرجل بلهجة صادقة – لاأحب تناول الطعام وحدي. انه محزن .

تتردد المرأة لحظة ثم تسير نحو الحان جارة قدميها على الرمال . تدخل . تفتح زجاجة من البيرة .

– شكراً . شكراً جزيلاً ايتها السيدة ميرسيديتاس . لكنني أفضل اللبن . ومادمت قد فتحت هذه الزجاجة فلماذا لاتشربينها ؟

– ليست بي رغبة .

– هيا أيتها السيدة ميرسيديتاس ، لاتكوني هكذا ، اشربيها نخب صحتي .

– لاأريد .

تنم تعابير الرجل عن مرارة .

– أأنت صماء ؟ قلت لك ان تشربي هذه الزجاجة . صحة .

ترفع المرأة الزجاجة بيديها وتشرب ببطء جرعات صغيرة ، تلتمع جرة من اللبن على الطاولة الوسخة المثقوبة . هش الرجل بيده طارداً الذباب المحوم حولها ، يرفع الجرة ويرشف جرعة طويلة . شفتاه مطبوعتان بحلقة من القشدة ، لكن اللسان يمحوها بعد ثوان محدثاً صوتاً .

– آه - قال وهو يتلمظ - ماأحسن هذا اللبن أيتها السيدة ميرسيديتاس. مؤكد انه لبن المعزى أليس كذلك ؟ لقد راق لي كثيراً . هل انهيت الزجاجة ؟ لماذا لاتفتحين أخرى ؟ صحة .

تطيعه المرأة بدون تذمر . يلتهم الرجل ثمرتي موز وبرتقالة .

– اسمعي أيتها السيدة ميرسيديتاس ، لاتكوني خبيثة ، ان البيرة تسيل على رقبتك . ستبلل ثوبك . لاتهدري الاشياء هكذا . افتحي زجاجة اخرى واشربيها على شرف « نوما » صحة .

ظل الرجل يكرر كلمة « صحة » حتى صارت على الطاولة أربع زجاجات فارغة .

عينا المرأة زجاجيتان . تتجشأ ، تبصق ، تجلس على كيس فواكه .

– ياالهي – يقول الرجل – يالها من امرأة . انك سكيرة صغيرة أيتها السيدة ميرسيديتاس اعذريني لقولي هذا .

– ان ماتفعله مع عجوز مسكينة سيكلفك غالياً ياخامايكينو . سترى . لسانها معقود بعض الشيء .

يقول الرجل بسأم :

– حقاً ؟ بالمناسبة ، في أية ساعة سيحضر نوما ؟

– نوما ؟

– اوه ايتها السيدة ميرسيديتاس، انك فظيعة عندما ترفضين فهم الامور . في أية ساعة سيأتي ؟

– إنك أسود قذر ياخامايكينو . ان نوما سيقتلك .

– لاتتفوهي بهذه الكلمات أيتها السيدة ميرسيديتاس – يتثاءب – حسن ، أظن أن أمامنا متسع من الوقت .

ينهض ويخرج . يمضي صوب المعزى . يرمقه الحيوان بحذر وبدون ثقة . يحل وثاقها ويعود إلى الخان وهو يطوح بالحبل كمروحة ويصفر :

المرأة غير موجودة . فيختفي على الفور هدوء ايماءاته الشهوانية المتخاملة . يجول في المكان بخطوات مديدة وهو يكيل اللعنات . ثم يتقدم من الغابة الصغيرة وقد تبعته المعزى . يكتشف الحيوان المرأة خلف حرش ويبدأ بلعقها . فيضحك خامايكيتو وهو يتأمل نظرات المرأة الغاضبة المعزى . تنم عنه اشارة مقتضبة فتتجه دونيا ميرسيديتاس إلى الخان .

– حقاً انك امرأة رهيبة . أجل أيها السيد. ياللخواطر التي تراودك.

يربط قدميها ويديها ، ثم يحملها ويودعها الطاولة . ينظر إليها بخبث وفجأة ارتسم اليأس على محياها . الطاولة ضيقة . ومع انتفاضها تقترب من الحافة حتى تتدحرج اخيراً ، ثقيلة ، على الأرض.

– ياللمرأة الرهيبة . أجل أيها السيد – يكرر – تتظاهر بالاغماء وهي تسترق إليه النظر بعين واحدة . ليس ثمة دواء لعلتك أيتها السيدة ميرسيديتاس .

أدخلت المعزى رأسها في الغرفة وراحت ترمق المرأة بثبات .

* * *

يسمع صهيل الخيول مع نهاية الاصيل : مع زحف العتمة . ترفع السيدة ميرسيديتاس وجهها وتصغي وقد اتسعت عيناها .

– انهم هم – يقول خامايكيتو ، ويستقيم بقفزة واحدة .

مازالت الجياد تصهل وتراوح بين سنابكها . فيصيح الرجل من باب الخان بحدة :

– هل جننت أيها الملازم ؟ هل جننت ؟

في منعطف من الجبل ، يظهر الملازم ، من خلف بعض الصخور :

انه ضئيل الجثة ، مكور ، ينتعل جزمة ركوب الخيل ووجهه يتفصد عرقاً . يتطلع بحذر .

يكرر خامايكينو :

ــ هل أنت مجنون ؟ ماذا يحدث لك ؟

ــ لاترفع صوتك أيها الأسود ــ يقول الملازم ــ وصلنا لتونا . ماذا يحدث ؟

ــ كيف ماذا يحدث ؟ اطلب من رجالك أن يبعدوا الخيول . ألا تعرف مهنتك ؟

يحمر وجه الملازم ويقول :

ــ لست طليقاً بعد أيها الاسود . فمزيداً من الاحترام .

ــ خبىء الخيول وقص ألسنتها اذا شئت ، ولكن يجب ألا يسمع لها صوت . وانتظر هناك. سأعلمك باشارة ــ يفرج خامايكينو فمه والبسمة التي ترتسم على محياه وقحة ــ ألا تدرك ان عليك ان تطيعني الآن .

يتردد الملازم لثوان ثم يقول :

ــ الويل لك اذا لم يحضر ــ ويأمر بعد ان يدير رأسه ــ : أيها الرقيب ليتوما ، خبىء الخيول . .

يقول أحدهم من خلف التل :

ــ أمرك سيدي الملازم .

يسمع صوت حوافر ، ثم الصمت .

يقول خامايكينو :

ــ هكذا يعجبني . على المرء أن يكون مطيعاً . حسن جداً أيها

الجنرال ، برافو أيها القائد . أهنئك أيها النقيب . لاتتحرك من المكان . سأخبرك .

يريه الملازم قبضته ويختفي خلف الصخور. يدخل خامايكينو الخان. عينا المرأة تقدحان مقتاً . تهمس :

ـ ملعون . جئت بالشرطة . ملعون .

ـ ياللتربية ، ياإلهي ، يالتربيتك أيتها السيئة ميرسيديتاس ، ماجئت بالشرطة . لقد أتيت وحدي ، وقد التقيت بالملازم في هذا المكان . انك تشهدين بذلك .

تقول المرأة :

ـ لن يأتي نوما . وستأخذك الشرطة إلى السجن ثانية . وما ان يطلقوا سراحك حتى يقتلك نوما .

ـ ان عندك مشاعر سوء أيتها السيدة ميرسيديتاس . لاريب في ذلك . ياللتنبؤات . ياللتنبؤات .

ـ أيها الخائن ـ تكرر المرأة التي تمكنت من الجلوس وركنت متيبسة ـ هل تعتقد ان نوما أبله ؟

ـ أبله ؟ أبداً . انه نبيه ككاكاتوا (*) ولكن ، لاتيأسي أيتها السيدة ميرسيديتاس . أكيد انه سيأتي .

ـ لن يأتي. انه ليس مثلك . عنده أصدقاء. سيخبرونه ان الشرطة هنا.

ـ أتعتقدين ؟ لاأظن ذلك . لن يكون لديهم متسع من الوقت . فالشرطة جاءت من جهة أخرى ، من خلف الجبال ، وقد قطعت الرمال

---

* كاكاتوا : من طيور المحيط الهادي . يقلد الأصوات كالببغاء - الاسم من الملايو ، وهو قريب من الصوت الذي يحدثه .

وحيداً وكنت أسأل في كل القرى : « أما زالت السيدة ميرسيديتاس في الخان ؟ انهم اطلقوا سراحي ، وآنا ماض لادق عنقها ». لاشك أن أكثر من عشرين شخصاً قد هرعوا ليخبروا نوما بذلك . أمازلت تعتقدين انه لن يحضر ؟ ياألهي ، يالوجهك أيتها السيدة ميرسيديتاس .

— اذا ما مس سوء نوما — غمغمت المرأة ساخرة — فستندم لذلك طوال حياتك ياخامايكينو .

يكمش هذا منكبيه . يشعل سيجارة ويبدأ بالصفير . ثم يتجه إلى الطاولة ، يمسك فانوس الزيت ويوقده . يعلقه على خشبة أعلى الباب .

يقول :

— حل الليل . تعالي أيتها السيدة ميرسيديتاس . أريد أن يراك نوما جالسة عند الباب منتظرة إياه . آه . صحيح انك لاتستطيعين الحراك ، اعذريني ، انني أنسى كثيراً .

ينحني ويرفعها بين ذراعيه، ثم يتركها على الرمل، أمام الخان، يرتمي ضوء الفانوس على المرأة ويخيل بشرة وجهها ملساء. انها تبدو أكثر شباباً.

— لماذا تفعل هذا ياخامايكينو ؟

صوت دونيا ميرسيديتاس ضعيف الآن .

— لِمَ ؟ — يقول خامايكينو — انك لم تدخلي السجن . أليس كذلك أيتها السيدة ميرسيديتاس ؟ تمضي الايام وليس لدى المرء مايشغله . ان المرء يسأم كثيراً هناك . أؤكد لك هذا . ويعاني كثيراً من الجوع . اسمعي ، نسيت تفصيلاً واحداً ، لايمكنك البقاء فاغرة الفم كيلا تطلقي الصرخات لحظة قدوم نوما . ثم أنك قد تبتلعين ذبابة .

يضحك . يبحث في الغرفة ويجد خرقة . يكم بها نصف وجه دونيا ميرسيديتاس ويراقبها للحظة طويلة ، لاهياً .

— اسمحي لي بالقول ان مظهرك مسل أيتها السيدة ميرسيديتاس ، لاأعرف ماذا تشبهين..

* * *

يستقيم خامايكينو كالثعبان في عتمة أعماق الحان : بمرونة وبلا قعقعة . يركن منحنياً على نفسه وقد استندت يداه إلى الطاولة . على مسافة مترين أمامه ، ضمن مخروط الضوء ، تقبع المرأة جامدة ، وجهها متقدم ، كأنها تشم الهواء : لقد سمعت هي أيضاً .

كان صوتاً خافتاً ، لكنه شديد الوضوح ، قادم من اليسار ، وقد تجاوز ضجيج الصراصير . وها هو ثانية ، أطول : أغصان الغابة الصغيرة تطقطق وتنكسر . شخص ما يقترب من الحان .

« ليس وحده — يهمس خامايكينو — انهم عديدون » يدخل يده في جيبه ويخرج الصفارة ويضعها بين شفتيه . انه ينتظر ، بلا حراك .

تنتفض المرأة فيكيل خامايكينو اللعنات من بين أسنانه المطبقة . يداها تتلوى في مكانها وتحرك رأسها كالبندول محاولة التخلص من الكمامة . لقد خفتت الضجة . هل يسير على الرمل الذي يمتص صوت الخطوات ؟ وجه المرأة مدار إلى اليسار وعيناها تجحظان من محاجرهما كعيني تمساح مسحوق . « لتمد رآهم » تمتم خامايكينو . يضع رأس لسانه على الصفارة : المعدن حاد . مازالت دونيا ميرسيديتاس تهز رأسها وتغمغم بمرارة . يصدر عن المعزى ثغاء فينكفيء خامايكينو . يرى بعد ثوان ظلاً يهبط على المرأة وذراعاً عارية تمتد إلى الكمامة . ينفخ بكل قواه وهو يلقي

بنفسه على القادم . عم الصفير الليل كحريق وضاع بين السباب المتفجر يميناً وشمالاً ملاحقاً بخطوات متسرعة .

وقع الرجلان فوق المرأة . الملازم سريع : ما ان ينهض خامايكينو حتى تكون يداه قد تشبثت بشعر نوما بينما وجهت الاخرى المسدس إلى صدغه .

يحيط بهم أربعة جنود ببنادقهم .

ـ اركضوا ـ يصرخ خامايكينو بالجنود ـ الآخرون في الغابة . بسرعة انهم سيهربون بسرعة .

ـ قفوا ـ يقول الملازم . انه لايشيح بصره عن نوما الذي يحاول ان ينظر إلى المسدس شزراً . يبدو هادئاً . يداه تنسدلان على جانبيه .

ـ أيها الرقيب ليتوما . أوثقه .

يترك الرقيب ليتوما بندقيته على الارض ويمد الحبل الذي كان يعلقه على حزامه . يربط قدمي نوما ثم يوثق يديه . لقد اقتربت المعزى وبعد أن تشم ساقي نوما تبدأ لحسهما بعذوبة .

ـ الحيول أيها الرقيب ليتوما .

أعاد الملازم المسدس إلى قرابه وانحنى على المرأة . يفك الكمامة ويحررها . تقف دونيا ميرسيديتاس ، تنحي المعزى بضربة على ظهرها وتقترب من نوما . تمرر يدها على جبينه دون ان تنبس ببنت شفة .

ـ ماذا فعل بك ؟ ـ يسأل نوما .

ـ لاشيء ـ تقول المرأة ـ هل تود التدخين ؟

يصر خامايكينو :

– أيها الملازم . هل تعي انه على بعد أمتار من هنا ، في الغابة ، يقبع الآخرون ألم تسمعهم ؟ لاشك انهم ثلاثة أو اربعة ، على الاقل . ماذا تنتظر لكي ترسل من يبحث عنهم ؟

– صمتاً أيها الاسود – يقول الملازم دون ان ينظر إليه ، يشعل عود ثقاب ويشعل السيجارة التي وضعتها المرأة بين شفتي نوما . يبدأ هذا بمج أنفاس طويلة . يطبق على السيجارة بأسنانه ويافظ الدخان من منخريه جئت لامسك بهذا ، ولاأحد سواه .

– حسن – يقول خامايكينو – اذا لم تعرف مهنتك فتلك علتك ، لقد قمت بواجبي . أنا الآن حر .

– أجل – يقول الملازم – أنت حر .

يقول ليتوما :

– الخيول ، سيدي الملازم .

انه يمسك باعنة الجياد الخمسة .

– اركبه على حصانك ياليتوما – يقول الملازم – سيذهب معك .

يمسك ليتوما بمعونة جندي آخر نوما ، وبعد ان يحل وثاق القدمين يجلسه على صهوة الحصان . يعتلي ليتوما الجواد خلفه . يقترب الملازم من الجياد ويمسك بعنان حصانه .

– اسمع أيها الملازم ، ومع من سأذهب أنا .

– أنت ؟ – يقول الملازم وقد أدخل قدمه في ركاب السرج – أنت ؟

– أجل – يقول خامايكينو – ومن غيري ؟

فيجيب الملازم :

– أنت حر ، لالزوم لمرافقتنا . بامكانك ان تمضي حيث تشاء .

يضحك ليتوما والجنود من على صهوات جيادهم .

يقول خامايكينو :

– أية فرحة هذه ؟ – صوته يرتجف – : لن تتركني هنا ، أليس كذلك أيها الملازم ؟ أنك تسمع الاصوات التي في الغابة . كان ساوكي جيداً . لقد قمت بواجبي ، ولايمكنك التصرف معي هكذا .

يقول الملازم

– في حال اسراعنا أيها الرقيب ، سنصل « بيورا » مع الفجر . ويفضل السفر على الرمال ليلاً ، فالحيوانات تكل بقدر أقل .

– سيدي الملازم – يصرخ خامايكينو الذي امسك بأعنة حصان الضابط وراح يهزها بعصبية – لن تتركني هنا . لايمكنك الإقدام على فعلة مشينة كهذه .

يخرج الملازم قدمه من الركاب ويدفع خامايكينو بعيداً .

– علينا السير خبباً بين الحين والآخر – يقول الملازم – هل تعتقد انها ستمطر ايها الرقيب ليتوما ؟

– لاأعتقد ياسيدي الملازم . السماء منقشعة .

يتضرع خامايكينو وقد تورم عنقه :

– لايمكنك الذهاب بدوني .

تبدأ السيدة ميرسيديتاس بالقهقهة وقد أمسكت بطنها .

ويقول الملازم :

— هيا بنا .

فيصيح خامايكينو :

— أيهاالملازم ! ملازم ! أرجوك !

تبتعد الحيول ، بطيئة . ينظر خامايكينو إليها مذهولاً ، ضوء الفانوس ينير وجهه المشوه .

مازالت السيدة ميرسيديتاس تضحك عالياً . تصمت فجأة وترفع يديها إلى فمها كالبوق ، وتصرخ :

— نوما ! سآخذ لك الفاكهة في أيام الآحاد .

ثم تعاود الضحك ، بصوت مدو . . . وتصدر عن الغابة الصغيرة ضجة أغصان وأوراق يابسة تتكسر .

ترجمة : عاصم الباشا

هوراشيو كيروغا
«الأوروغواي»

* ولد هوراثيو كيروغا عام ١٨٧٨ . وبدأ الكتابة في السنوات الاخيرة من القرن الماضي للصحف . وكانت كتاباته القصصية حينئذ متأثرة باعمال موباسان ، ثم ادغار الن بو .

* انتقل عام ١٩٠٣ إلى مقاطعة ميسيونيس ، واشترى قطعة أرض واسعة هناك ليزرعها بالقطن ، لكن تجربته فشلت وألحقت به كارثة مالية . وقد كتب حول هذه التجربة قصة بعنوان « المرمر الباطل » .

* لكن حياته في ميسيونيس عمقت علاقته بالطبيعة ، وساهمت في صقل تجربته الادبية ، حتى أصبح الكاتب الأول في اميركا اللاتينية الذي يتناول الانسان وعلاقته بالطبيعة والبيئة ، ووصل به الامر إلى جعل عناصر الطبيعة أحياناً شخصيات اساسية في أعماله القصصية .

* مات منتحراً في بوينس ايرس عام ١٩٣٨ ، بعد أن عرف انه مصاب بداء عضال ، لاشفاء منه له .

* من أبرز أعماله القصصية :

- الصحراء ١٩٢٤
- المنفيون ١٩٢٦
- الرواد ١٩٢٩
- قصص حب وجنون وموت ١٩١٧
- الصخور المرجانية ١٩٠١
- حكايا الغابة ١٩١٨ (قصص للاطفال)

الرجل الميّت

انتهى الرجل ومنجاله من تنظيف المسكبة الخامسة في بيارة الموز . بقيت أمامه مسكبتان ، وبما أن الاعشاب البرية والخبازى ليست كثيرة فيهما ، فان المهمة المتبقية لديه كانت يسيرة جداً . ألقى الرجل في النهاية نظرة راضية إلى الشجيرات التي انتهى من تعشيبها ، واجتاز سياج الأسلاك ليستلقي قليلاً على النجيل .

ولكن ، عندما أنزل السلك الشائك ومر بجسده ، انزلقت قدمه اليسرى على قشرة منتزعة من نصبة السياج ، في نفس الوقت الذي أفات فيه المنجل من يده . وفيما هو يسقط ، خيل للرجل في تصور ناء جداً ، انه لايرى المنجل المطروح على الارض .

كان قد تمدد على النجيل ، مستنداً على جانبه الايمن ، كما كان يرغب . وفمه ، الذي فتح على اتساعه ، انتهى كذلك من الانطباق . انه في الوضع الذي كان يرغب فيه ، ركبتاه مثنيتان ويده اليسرى فوق صدره . الا انه وراء ذراعه وتحت حزامه مباشرة ، كانت تبرز من قميصه قبضة المنجل ونصف شفرته ، أما الجزء المتبقي فلم يكن ظاهراً.

حاول الرجل تحريك رأسه، بلا جدوى . ألقى نظرة مواربة إلى

قبضة المنجل التي كانت ماتزال مضمخة بعرق يده . وقدر في ذهنه مدى ولوج المنجل ومساره في بطنه ، وأيقن ، بعد عملية حسابية باردة وحتمية انه وصل إلى نهاية وجوده .

الموت . ان احدنا ليفكر كثيراً خلال مسيرة الحياة بأنه في يوم ما ، بعد سنوات ، بعد شهور ، بعد أسابيع وأيام تحضيرية ، سيصل بدوره إلى عتبة الموت . انه القانون المحتم ، المقبول والمنتظر ، مهما اعتدنا السماح لانفسنا بحمل الرضى في الخيال عن هذه اللحظة ، العليا بين جميع اللحظات ، التي سنلفظ فيها نفسنا الاخير .

ولكن ، في هذه اللحظة الاخيرة ، في هذا النفس الاخير ، ماذا عن الاحلام ، والقلق ، والآمال ، والآلام التي كانت موضع اعتداد في حياتنا ! ماالذي مازال يخبئه لنا هذا الوجود المليء بالقوة ، قبل زواله من المسرح الانساني ! هذا هو العزاء ، والمتعة ، والسبب في شرودنا الجنائزي : أبعيد جداً هو الموت ، وغير متوقع هذا الذي بقي علينا ان نحياه !

وبعد ؟ . . . لم تمض ثانيتان : الشمس مازالت في نفس موقعها ، الظلال لم تتقدم ميليمتراً واحداً . فجأة ، انتهت بالنسبة للرجل الممدد شرودات المدى الطويل : انه يموت .

ميت . يمكن اعتباره ميتاً في وضعه المريح هذا .

لكن الرجل يفتح عينيه وينظر . كم من الوقت مضى ؟ أية كارثة اجتاحت العالم ؟ أي خلل في الطبيعة أثاره هذا الحدث الرهيب ؟

سيموت . انها باردة ، مشؤومة ، وحتمية عبارة سيموت هذه .

الرجل يقاوم – لم يكن هذا الرعب متوقعاً بأي شكل من الاشكال !
ويفكر : انه كابوس ، هكذا هو ! ماالذي تغير ؟ لاشيء . وينظر :
أليست بيارة الموز هذه هي بيارته ؟ ألا يأتي كل يوم لتنظيفها ؟ ومن ذا
الذي يعرفها مثله ؟ انه يرى بيارة الموز تماماً ، بشجيراتها المتفرقة ، ذات
الاوراق العريضة المكشوفة للشمس . انها هناك ، قريبة جداً ، تفرقها
الريح عن بعضها البعض . لكنها لاتتحرك الآن . . . انه سكون الظهيرة :
لابد ان الساعة هي الثانية عشرة الا قليلاً .

ومن خلال شجيرات الموز ، هناك في الأعلى ، يرى الرجل وهو
فوق الارض الصلبة ، سقف منزله الاحمر . ويلمح الجبل وشجرة
القرفة . دون ان يستطيع الرؤية إلى أبعد من ذلك .. لكنه يعرف جيداً أن
طريق الميناء الجديد يمضي وراء ظهره ، وهناك في الاسفل ، باتجاه رأسه ،
يربض نهر بارانا النائم في قاع الوادي مثل بحيرة . كل شيء ، كل شيء
كما كان دائماً تماماً ، الشمس النارية ، الهواء الرنان والمتوحد ،
وشجيرات الموز المنفردة ، والسياج ذو الدعائم الغليظة والمرتفعة التي لابد
من استبدالها قريباً .

ميت ! وهل هذا ممكن ؟ أليس هذا اليوم هو يوم آخر من الايام
الكثيرة التي خرج بها من بيته فجراً وهو يحمل المنجل في يده ؟ أليس
حصانه ، مالاكارا ، هو الذي يقف هناك ، على بعد أربعة أمتار منه ،
يشم الاسلاك الشائكة بوقار .

أجل ! هنالك من يصفر . . . لكنه لايستطيع ان يرى من هناك ،
لأن ظهره إلى الطريق ، ثم يسمع وقع خطوات الحصان على الجسر
الصغير ... انه الفتى الذي يمر من هنا كل يوم في طريقه إلى الميناء الجديد،

في الساعة الحادية عشرة والنصف . يطلق الصفير دائماً . بين دعامة السور المنخورة التي تكاد تلامس حذائيه ، وسياج النباتات البرية الذي يفصل بيارة الموز عن الطريق ، يوجد خمسة عشر متراً أو يزيد . انه يعرف ذلك تماماً ، لأنه هو نفسه قاس المسافة عندما نصب الاسلاك الشائكة .

ماالذي يحدث اذن ؟ أهذه ظهيرة طبيعية أخرى من الظهيرات الكثيرة في مسيونيس ، في جبله ، في مربع مواشيه ، في بيارته قليلة الكثافة أم هي غير ذلك ؟ لاوجود لأي شك ! هاهو النجيل القصير ، ومخروطات الصخور ، والصمت ، والشمس الرصاصية . . .

لاشيء ، لاشيء قد تغير . هو وحده المختلف . منذ حوالي دقيقتين لم تعد لشخصه ، لشخصيته الحية ، أية علاقة بمرعى المواشي الذي كونه هو نفسه بالمعزقة ، طوال خمسة شهور متتالية ، ولابيبارة الموز ، التي هي من عمل يديه وحدهما ، ولا أسرته . لقد انتزع من كل هذا بفظاظة ، بصورة طبيعية ، بفعل قشرة ملساء ومنجل في البطن . وهاهو منذ دقيقتين : يموت .

الرجل المنهوك والمستلق فوق النجيل على جانبه الايمن ، يقاوم لتقبل ظاهرة بمثل هذه الخطورة ، أما المشهد الطبيعي الذي يراه . انه يعرف تماماً كم هي الساعة . . انها الحادية عشرة والنصف . . . فالفتى الذي يمر كل يوم قد مر لتوه فوق الجسر .

ولكن ، ألا يمكن ان يكون قد زل . . . ! كان مقبض منجله (عليه استبداله في أسرع وقت بآخر جديد ، لانه أصبح تالفاً) مضغوطاً تماماً ما بين يده اليسرى والسلك الشائك . بعد عشر سنوات في الغابة ، أصبح يعرف كيفية استخدام المنجل الجبلي على أحسن وجه . انه متعب من

عمله الذي أنجزه هذا الصباح فحسب ، وهو يستريح لهنيهة كعادته كل يوم .

وما الدليل ؟ . . . لكن هذا المنجل الذي أخذ يدخل الآن في شق فمه كان قد زرعه هو نفسه ، بقوالب من التراب المتماسك يبعد أحدها عن الآخر مسافة متر واحد ! وهاهي بيارة موزه ! وهذا هو جواده مالاكارا ، يلهث باحتراس أمام أشواك سلك السياج ! انه يراه تماماً ، ويعرف انه لايجرؤ على الالتفاف من حيث يضيق السلك ، لانه هو ملقي عند قدم السياج . انه يميزه جيداً ، ويرى خيوط العرق القاتمة التي تنزلق من العنق والردف . الشمس تهوي كالرصاص ، والسكون شديد جداً ، حتى أن أطراف أوراق الموز لاتتحرك . انه يرى كل يوم ، كما يرى اليوم ، هذه الاشياء ذاتها .

. . . انه منهك جداً ، لكنه يستريح وحيداً . لابد ان عدة دقائق قد انقضت . . . وفي الساعة الثانية عشرة الا ربعاً ، ستنطلق زوجته وابناه من هناك في الاعلى ، حيث البيت ذو السطح الاحمر ، ويتجهون نحو بيارة الموز ، ليدعونه إلى الغداء . انه يسمع دائماً ، وقبل سماع أصوات الآخرين ، صوت ابنه الاصغر الذي يريد الافلات من يد امه وهو يصيح : بيابا ! بيابا !

أليس هذا هو صوته ؟ . . . طبعاً ، اسمع ! انها ساعة مجيئهم . ويسمع فعلاً صوت الابن .

ياللكابوس ! . . . لكنه يوم من هذه الايام الكثيرة ، تافه مثلها جميعاً ، بالطبع ! . . ضوء مفرط ، ظلال صفراوية ، دفء صامت كدفء الفرن حول اللحم ، يجعل مالاكارا يتعرق وهو يقف ثابتاً أمام بيارة الموز المحرمة .

. . . متعب جداً ، كثيراً ، ولاشيء سوى ذلك . كم من المرات ، في ظهيرة كهذه الظهيرة ، عبر وهو في طريق عودته إلى البيت ، وسط هذا المرج الذي كان خراباً لدى قدومه إلى هنا ، وكان قبل ذلك مجموعة تلال عذراء ! وكان يعود حينئذ متعباً جداً ، بخطوات بطيئة ، بينما منجله يتدلى من يده اليسرى .

بامكانه ان يمضي بذهنه بعيداً لو أراد ، بامكانه لو أراد ان يغادر جسده للحظة ويرى من فوق القناطر التي شيدها هو بنفسه ، المشهد اليومي المعتاد : الصخور البركانية المغطاة بالاعشاب اليابسة ، بيارة الموز ورملها الاحمر ، السياج الذي يضيق عند اتصاله بالطريق . وان يرى فيما وراء ذلك المرعى ، الذي هو من صنع يديه وحدهما . وان يرى نفسه إلى جانب دعامة منخورة من دعائم السياج ، مستلقياً على جانبه الايمن وساقاه مثنيتان ، تماماً كما يفعل كل يوم ، وكأنه صرة صغيرة متوحدة فوق النجيل ، يرقد مستريحاً ، لانه متعب جداً . . .

لكن الحصان المخطط بالعرق ، والذي يقف ثابتاً باحتراس أمام شراسة الاسلاك الشائكة ، يرى كذلك الرجل الملقى على الارض ولا يتجرأ على اجتياز حقل الموز ، كما يرغب . وأمام الاصوات التي اقتربت منادية ــ بيابا ! ــ يصغي باذنيه لبرهة إلى الصرة المكومة . . وبعد ان يطمئن اخيراً ، يقرر المرور مابين الدعامة والرجل المستلقي ــ الذي قد استراح .

ترجمة : صالح علماني

ماريو بينيديتي
"الأوروغواي"

* ولد عام ١٩٢٠ في الاوروغواي .

* عمل موظفاً حكومياً ، لكنه استقال فيما بعد ليمارس مختلف الاعمال حتى ارغم على الرحيل مع حلول الديكتاتورية . (خمس سكان الاوروغواي يعيشون حالياً في المنافي لأسباب سياسية) .

* يعتبر من أكثر كتاب اميركا اللاتينية شعبية وذلك يعود إلى اسلوبه المتميز ، السهل الممتنع ، في معالجة أمور الحياة العادية لدى عامة الناس وخاصة فئة الموظفين .

* من أعماله القصصية :

- هذا الصباح (١٩٤٩) .
- الرحلة الاخيرة (١٩٥١) .
- سكان مونتيفيديو (١٩٥٩) .
- الموت ومفاجآت أخرى (١٩٦٨) .
- بكآبة وبدونها (١٩٧٧) .

* ومن أعماله الروائية :

- عيد ميلاد خوان انخل .
- الهدنة .

* له نتاج شعري واسع ، ومارس كذلك كتابة الاجناس الادبية الاخرى كالمسرح ، والدراسات ، والمقالات السياسية ، والاغنية الملتزمة ، والادب الساخر .

فندق صغير في شارع بلوميه

لعلها العادة القديمة في عدم التعرف على بعضهما بعضاً أمام الناس . والحقيقة انهما صمتا في المترو . كان يرنو إليها بين الحين والآخر فترسم هي بسمة حزينة لاأكثر . كانت ساعة اغلاق المتاجر ، والعربة مكتظة بالناس ، وتفوح من الحشد رائحةُ مزيج الابطين وعطر « شانيل » . كما في سنة ٦٥ — كان الوصول إلى محطة « فواجيرار » مواساة . حمل هو الحقيبة التي قدمت بها منذ ساعتين إلى محطة ليون . كانت تثلج بشدة .

— انشتري خبزاً ، جبن « غوويير » ونبيذ « بوجوليه » ؟

— أجل ، بالطبع ، كالعادة .

— كيلا نخرج للعشاء . .

— أحسن ، فالشارع مقرف .

— وعلى الاقل . . عندنا تدفئة مركزية في السقيفة .

— ماأحسن ذلك .

ابتاعا الاشياء ، وأضافا علبة « غولواز » وكبريتاً من أجله ، وشوكولا لها .

حملت هي الأكياس الجديدة بينما تابع هو بالحقيبة .

صعدا شارع كامبرون ، متلاصقين لدرء الثلج ، وسارا ببطء خوفاً من التزلج .

حيتهما السيدة « بنوا » في فندق شارع بلوميه الصغير بابتسامتها الحادة واللامبالية المعتادة . مدت إليها يدها ونطقت بالعبارة التقليدية : يسرها وصول السيدة « مينديث » (مدام ميندس) على مايرام .

ابتسمت هي وهمهمت بعبارة تقليدية اخرى كجواب .

تناول المفتاح وصعدا إلى الغرفة .

كانت سقيفة ذات نافذة وحيدة يتراكم الثلج على عتبتها . ثمة طاولة وكرسيان بجانب النافذة ، والسرير المزدوج مغطى بشرشف أزرق . على الجدار صورة باهتة للوحة رينوار . كانت البساطة وافرة ومضيافة .

ـ ماستطعت الحصول على الغرفة ذاتها . الـ ٤٢ مشغولة .

ـ لايهم ، انها جميلة ودافئة .

لكنها لم تخلع البالطو . كانت متجمدة . فتحت الحقيبة وراحت تخرج بعض الملابس بينما فتح هو باب خزانة قزمة .

ـ أفرغت لك الجانب الأيمن بكامله .

لم ترد، لكنها راحت ترتب ملابسها على الرفوف والمشاجب التي أفرغها من أجلها .

مضى نحو صنبور الماء ، فتحه ، وانتظر المياه الساخنة ، غسل يديه ثم أخرج المأكولات من أكياسها ووضعها على الطاولة ، خلع سدادة الزجاجة ، وقطع الخبز من منتصفه وبدأ يوزع شرحات الجبن عليه.

كانت ماتزال ترتب الملابس عندما اقترب من خلفها ووضع يده

على كتفها ، أمالت رأسها بذلك الاتجاه لتلمس به اليد ، أراد وقتها معانقتها .

– ليس الآن ، انني جائعة .

– وأنا أيضاً .

غسلت وجهها ، ثم جلست إلى الطاولة ، وراحا يقضمان الطعام بصمت لفترة طويلة .

– ياللمأدبة .

– أعترف أن هذا يكاد يكون عشائي اليومي .

– انه لشيء رائع . كنت ميتة من الجوع . فقد تناولت القليل من الطعام في القطار بسبب دوخة كنت أعانيها .

– والآن .

– الآن لا . النبيذ والجبن أعاداني إلى الحياة .

– عاد اللون إلى خديك . كنت شاحبة .

– من الجوع .

– ما كنت تأكلين بشهية في الماضي .

– في الماضي هنا أم في ماضي الاوروغواي ؟

– لا هنا ولا هناك . لقد كنت تفتقدين الشهية دوماً .

– ها أنت ترى أن الأمر ليس كذلك الآن . لعله ثأري . والحقيقة انني عانيت الجوع عام ٧٢ ، يوم اضطررت إلى الاختفاء ، جوع حقيقي .

– أعرف ذلك . كان الطعام في القلعة مقرفاً . طعام الكلاب لم يكن شهياً يوماً ، لكنه كان طعاماً على كل حال ثم ان وزني انخفض .

– أجل ، لقد تحسنت هيئتك .

– وأنت صرت جميلة .

– باه . . . .

– لست أدري ان كان جمالاً . فيك تعبير آخر . وكأنك أكثر أنوثة .

– يالطيف .

راحت تجمع قشرة الجبن في كيس ورقي صغير .

– وأنت ، هل تشعر بأنك أكثر رجولة ؟

– لاأدري . لكنني راض عن نفسي بشكل ما . لأني تحملت التعذيب ولم أتكلم . لم أخن . كان ذلك هو هاجسنا في تلك الايام القذرة ، عدم النطق ، عدم التفوه ، قبل كل شيء .

– أوتظن ان ذلك قليل ؟ انني هنا لانك صمتّ .

– ولهذا فقط ؟

– لا أعني لو أنك أفصحت لهم بما عندك لتوصلوا – على الرغم من اختفائي – إلى جمع المعلومات لالقاء القبض علي ، أو لمنعي من الخروج .

– ولهذا فقط أنت هنا اليوم ؟

– لاتكن غبياً . تعرف جيداً أنني جئت لرؤيتك .

– وأنا أيضاً كنت أرغب برؤيتك . وأرجو ان تشائي أنت ذلك أيضاً .

– وي ، ماأصعب هذه العبارة . . .

– انني عاجزة عن قولها ببساطة .

تنهدت :

ـ حسناً ، هانحن ذا هنا .

ـ في فندق شارع بلوميه الصغير . من كان يتصور عام ٦٥ اننا سنمر بما مررنا به ؟

ـ لاأحد .

ـ اسمعي ، أعتقد ان قوات الأمن كانت تجهل ذلك أيضاً .

ـ تجهل ماذا ؟

ـ مثلاً : انهم سيفقدون انسانيتهم بهذا الشكل .

ـ ربما ، لكن الاهم هو اننا كنا نجهل ما سنصير إليه . ياله من طبق سلطة تجريدية . ألا يبدو لك كذلك ؟

أمسك يدها :

ـ يبدو لي . لكنك الآن شيء محدد . وأنت تعجبينني ، لقد انتهى التجريد .

استعادت هي ابتسامتها الحزينة :

ـ و « لاورا » هي شي» محدد أيضاً . وتروق لك ـ أنت تعرف انني لاأعاتبك ، فأوسكار هو كذلك شيء محدد . ويروق لي . انها معلومات موضوعية . أليس كذلك ؟

ـ أجل بالطبع .

ـ أتعلم « لاورا » اننا سنلتقي في باريس ؟

ـ لم أجرؤ على إخبارها . وأقسم لك انه ليس عجزاً في صراحتي . لكنها تستعيد قواها ببطء . أحداث تشيلي كانت بالنسبة إليها كارثة ثانية .

– ومن الذي لم يعان منها ؟

– وهل يعلم اوسكار بالامر ؟

– أجل أوسكار يعلم .

– وكيف تقبله ؟

– بشكل حسن . أقصد ، أحسن مايمكن تقبل أمر كهذا . يدرك انه لن يكون واثقاً من علاقتي به مالم التق بلك ثانية .

– وأنت ؟

– ربما يحدث لي الامر ذاته .

– كلنا نفتقد الثقة . أليس كذلك ؟ أنا أيضاً ، علاقتي مع لاورا جيدة . وكانت لي علاقة بلك . لست أدري لو انفصمت بسبب خلاف شخصي ، بسبب شجار الازواج لكان الامر مغايراً . لكننا كنا زوجين رائعين . أليس كذلك ؟

– أجل ، كنا .

– تعالي .

واتجها نحو السرير دون تلامس . وراح كل منهما يخلع ملابسه مديراً ظهره للآخر .

– هل انتهيت ؟

– انتهيت . تعال .

واستدار ببطء . كما لو انهما عبدان في رقصة متوازية ، كما لو انهما يكرران طقساً قديماً . وتواجها ، عاريان . جذبها إليه ، فارتخت مستسلمة وراحت تنشج وهي تعانقه ، دون ان تتمالك نفسها ، ودون ان تحاول ذلك .

شعر هو بدموعها تبلل رقبته ، وشعيرات صدره . وانسلت دمعة أكبر من سواها إلى الاسفل لتستقر عند السرة .

كان يمرر يده بحنان على شعرها ، ويلقيه إلى الخلف ليقبل أذنيها ، بينما استمرت هي بالبكاء دون ان ينجلي ما اذا كانت تفعل ذلك من السعادة أم البؤس . أنزل يديه وراح يمعن بلمساته ، وبشكل لاشعوري راحا يميلان نحو السرير . واكتشف فجأة أن الدموع التي تسيل على وجهه يمكن ان تكون دموعه هو . كان متأثراً وملتهباً بالرغبة . وبدأت يداها تستعيدان ذلك الجسد الذي عرفته قديماً . مكملاً اياها . . .

وشيئاً فشيئاً تحول النحيب إلى شيء آخر . . .

* * *

مازالا مستلقيين . انه يدخن ، وهي تأكل الشوكولاته ، يده المتحررة ترقد على بطنها .

— لقد حطمونا .

— أجل .

— كسرونا .

— أجل .

— قطعونا شقفتين .

— أجل .

— هل أنت مصممة ؟

— انني كذلك .

— وأنا لاأعرف ، لاأعرف .

ــ لماذا ؟

ــ لاأريد الاساءة للاورا . لكنني لاأريد كذلك تحطيم ذاتي .

ــ انك محطم ، وأنا محطمة . لابد لنا من فهم ذلك . اوسكار ولاورا محطمان كذلك . لن نكون لهما بشكل كامل أبداً . واذا اجتمعنا أنا وأنت مرة أخرى ، لن يستطيعا العيش لانهما أضعف منا أنا وأنت . وفي تلك الحال لن يكون بمقدورنا التمتع بوجودنا . أليست هذه هي المسألة ؟ أم إني أجهلك !

ــ انك تعرفينني جيداً .

هبطت يده لمسافة قصيرة وتوقفت ، دافئة .

ــ سيكون صعباً . أليس كذلك ؟

ــ وبخاصة بدءاً من اليوم .

وغطت يدها يده .

ــ قطعونا شقفتين .

قالت :

ــ بل أكثر . قطعونا شقفاً عديدة صغيرة .

ترجمة : عاصم الباشا

ادواردو غاليـانـو

« الاوروغواي »

* ولد عام ١٩٤٠ في مونتيفيديو ، عاصمة الاوروغ واي .

* صحافي ورسام وقصاص وروائي مبدع .

* منذ سنوات طويلة وهو يعيش خارج بلاده مثله كمثل خمس سكان الأوروغواي الذين يعيشون في المنافي لاسباب سياسية . ومنذ غادر غاليانو وطنه تنقل مابين الارجنتين وكوبا وفنزويلا واسبانيا وغيرها .

* حصل على جائزة « كاسا دى لاس اميركاس » عام ١٩٧٨ عن كتابه : « أيام وليالي الحب والحرب » .

* أسس في منفاه الارجنتيني مجلة « ازمة » ، التي تعرضت لعدة اعتداءات من جانب العصابات الفاشية .

* أثناء اقامته في فنزويلا عمل مراسلا لوكالة الانباء الكوبية « برنسا لاتينيا » .

* يعيش حالياً في اسبانيا .

* من أعماله :

– اوردة اميركا اللاتينية المكشوفة دراسة		١٩٧١
(وقد صدر منها ثلاثون طبعة خلال السنوات العشر الماضية)		
– غواتيمالا : بلد محتل	دراسة	١٩٦٧
– صاحبة الجلالة ، كرة القدم	دراسة	١٩٦٨
– منابع العنف	دراسة	١٩٧٠
– انشودتنا	رواية	١٩٧١
– المدينة نمرا	قصص قصيرة	١٩٧٢
– أيام وليالي الحب والحرب	دراسة	١٩٧٨

ليست الأمور على ما يرام
ياكارميلو روسا (*)

ليست الامور على مايرام ياروسا عندما صعدت اليوم إلى المكتب وخلعت قبعتك البيريه بدون همة ومعطفك بكثير من الأسى وتلفيعتك كما لو انها كفنك الخاص وبين ضجيج آلات التلتايب ألقيت نظرة عديمة الحماس إلى الاوراق التي تنتظر الترجمة وهي دوماً الاوراق ذاتها أوراق بورصة أسعار الوول ستريت سوق القهوة وأمور أخرى تصنع ثراء أو بؤس الكثيرين الذين أنت كاتبهم المجهول ياروسا منذ سنوات كثيرة ياروسا يامن تصعد الآن ككل يوم من الطابق الاول بين ضجيج آلات التلتايب بعد محادثة بين السابعة والثامنة مساء مع صديقك المعلم الحبر الاعظم بودا غورو « سولانو » الذي يصلح من وضع نظارتيه ساعلاً مستشيراً قصاصات رسائل اغراق بين ضجيج آلات التلتايب يعلمك بما يحدث في بلدك قائلاً لك هذه المرة بالتأكيد متشائماً مظلوماً انه ليس ثمة اضراب في «استورياس» ولا كاتالونيين «فيرسوس»شرطة ولا باسكيين خاطفي الدمى ولا تقارير تعلن مرض السيد ولهذا بين ضجيج آلات التلتايب صعدت مطرق الرأس ناحلاً ميت النظرة عالماً انك سترقد هذه الليلة دون ان تشع في روحك حتى ولا أصغر الانوار ولا

(*) تقصد الكاتب في هذه القصة الاستغناء عن علامات الترقيم .

أمل ولا وهم ولا لهيب مخلص في هذه الليلة التي تحل كغيرها كثيراً في
هذا البيت الضيق المليء بالمجلات وبالصور ستنام بشكل سيء ياروسا
صلعتك مضطهدة على المخدة بالذكريات سعالك مع الكافور كنت شاباً
منذ أربعين سنة وأطلقت رصاصة ما في كاتالونيا صرخت الموت
للدكتاتورية جعلت امرأة ربما لم تكن جميلة تحبك وعرضت نفسك
للمخاطر دون ان تجهد هي نفسها لتتصل إليك فهي مشغولة بمسائل أعظم
أنت ياروسا بين ضجيج آلات التلتايب ترمق الورقة الاكثر تلوثاً
واستعمالاً القدر لتشرع في كتابة الحركة كانت اليوم خافتة بين عملاء
البورصة ولكن يلاحظ توجه بسيط نحو الارتفاع بين ضجيج آلات
التلتايب أنت المسؤول في المنظمة المنفية محكمة الاغلاق كروية وزير
بلا حقيبة ولا كيس للنقود شبح مكتب ينتزع سراً منذ عرفتك بين
ضجيج آلات التلتايب من أرشيف برقيات اليوم كل ماقد يهمك تظاهرات
محاكمات سرقات واجداً في كل نشاط طلابي سقوط نظـــام متوهماً
حتى بهذيان رجال الدين ياروسا مؤمناً انه بين يوم وآخر سيعود كل
شيء ليس إلى ما كان وانما إلى ما كان يمكن ان يكون وستعود شاباً مرة
أخرى دون ان تفكر ان لاشيء يعود إلى الماضي ان كل شيء يتحول
ويتعقد أكثر فأكثر ان ليس ثمة مشروع لايحطمه الواقع روسا لم التفكير
في هذه الامور تابع الكتابة كما أراك على الورقة ذات النسختين أسعار
النحاس تعرضت للهبوط لكن الحديد شهد ارتفاعاً طفيفاً بينما تسمع
عن يمينك وعن يسارك أحاديث حول أشياء لاتفهمها حياتك ركدت
منذ أربعين سنة مازال جزء منك يتجول في « رامبلا » ميتة في منظر
لم يعد له وجود لكنك تعيش في مدينة لاتعرف منها سوى نفق المترو
وثلاث شوارع تجتازها دون ان تراها مدينة تغيرت بدورها بين ضجيج

آلات التلتايب ارتفاع القهوة لكن الكاكاو استمر ضعيفاً آه لو تستطيع
تغيير الخبر وتقول العكس تدنت القهوة لكن الكاكاو سجل ارتفاعاً
لاختلاف الحياة حتى بالنسبة إليك ايها اللص الصغير المخفق سيء الحظ
الحالم العاجز بين الارقام الكبيرة التي تربط وتحل وفيا لمهنتك مسجل
أرقام في البورصة بطل المالية المجهول بينما أنت تتابع الحلم ياروسا
بين ضجيج آلات التلتايب تغزل وتطوح برأسك واضراب في مدريد
يسقط النظام الاشياء تتبدل يمكن تبين احتمالات « مسولانو » يريك بابا
ويا سقراطياً محمدياً ضرورة الاستمرار في الانتظار بداوا هذا الوزير
صدر مقال ليبرالي في منشور ما لاقى يهوى كل شيء وستعود يوماً ما
بين ضجيج آلات التلتايب إلى بيتك البرشلوني لتتحدث مع البواب صاحب
الحان حديثاً عن الزمن الحاضر وعن الزمن الماضي وقبعة البيريه فوق
شعرك الممتد الممشط جيداً ياأصلع الكافور ياجمجمة لم تعاقب تركت
دماغك في ضيعتك روحك في خرقة قذرة احرقها جندي ما أفكار شنيعة
سافلة تجول حقلاً قاحلاً روحك وتتابع هكذا انتظار سوق السكر الذي
مايزال نشطاً وحصل اللاعبون بالبورصة على أرباح معتدلة ياروسا السرير
البارد المرأة الحادة المنقشعة وأنت تنتظر تلفيعتك على المشجب والرجل
الذي يراك تشتري « لافانغوارديا » منذ عشر سنوات سائراً تحت المطر
غرناطة طالبان جريحان وشرطي أصيب برضوض قلق في مصانع سيارات
سيات يحدث شيء ما لحظة صعود الدرج والاوراق مكدسة هناك من
أجل الترجمة بورصة باريس ياروسا الحياة تهرب من بين أصابعك المترو
ليس صديقك هو جلادك الفرنسية لغة ميتة ومقتولة من قبلك تتحدث
اللاتينية بين البرابرة وهكذا ستموت يوماً ان تستيقظ ان تصل إلى
الوكالة ستبقى الاوراق في سلتها وسيقال ان حالماً شديد العنف قد اخترقك

ياروسا المنفي الزوج لم يمت السيد مراجعة البورصة أكثر أهمية من الرجال بامكان رقم ان يقتل الحس الذي هو خاصتنا انها روث قذر لن تستيقظ كل شيء على هذه الشاكلة ياروسا لاداعي للتمسك بالوهم بين ضجيج آلات التلتايب كل شيء يفيد يعلم من يجيد الاستماع لا مواساة للمعذبين الموت ممتع بلا أبدة بلا سلام بلا وطن بلا مجد بلاذكرى.

— ١٩٧١ —

ترجمة : عاصم الباشا



بيد روخوخي فيرا

«الاكوادور»

* ولد عام ١٩١٤ .

* صحافي ، وروائي ، وكاتب مسرحي وقاص اكوادوري .
* من أبرز الكتاب الأكوادوريين المنتمين إلى مايسمى جيل ال ٣٠ أو جماعة غواياكيل .

* من أهم اعماله الأدبية :

– اله الغابة (مسرحية)

– الحيوانات الطاهرة (رواية)

– حداد أبدي وقصص أخرى (قصص قصيرة)

وقد حازت مجموعته القصصية « حداد أبدي » على جائزة « خوسيه دي لاكوادرا » في الأكوادور عام ١٩٥٢ . وأعطت هذه المجموعة القصصية مؤلفها شهرة واسعة في وطنه وفي البلدان الاميركية اللاتينية الاخرى .

صورة الضحيّة

كانت المدينة التي استيقظت لتوها تقوم بخطواتها الاولى : رجال مازال النعاس يسيطر عليهم يدفعون عرباتهم البدائية ، حمالون قذرون يغادرون أماكن نومهم في مداخل العمارات ، امرأة متدينة مستعجلة تصطدم بساهر متأخر .

وكان الصغير فيليبه بارثيا يسير وسط البرد الذي ينفذ حتى العظام ، محتمياً وراء بضاعته : الجرائد التي مازالت دافئة بعد ان قذفتها المطابع الرجراجة للتو .

لقد أصبحت جولة الصبي الصباحية أقصر الآن . فمنذ اسبوع وهو يقيم في حانة عمه ، في ساحة فيكتوريا . لكن ماجعله يغادر بيت والدته هناك في حي غاراي ليس بعد المسافة ، وانما وجود دون اورالا ، الذي أثار دمه لى الحد الذي جعل أمه توافق على انتقاله .

سيبقى بعيداً عنها ، إلى أن يعود ميداردو بارثيا . قد يتأخر ، لكنه سيعود كما عاد في المرة الماضية . لم يتأخر يومئذ طويلاً . لقد ذهب بعد أن ربت على خد ابنه وعانق زوجته . وانتظرته هي ، دومينغا ، بصمت . وعندما رجع المانابي (١) الشرس ، عاد كل شيء إلى ما كان عليه من قبل.

---

(١) نسبة إلى مدينة في الأكوادور .

وبعد مدة قصيرة ، مضى من جديد . وقد تلفظ الآن بتحذيره :

— كما تعرفين يادومينغا . . من المطبخ إلى بيتاك . واذا أساء الوالد التصرف ، فاضربيه .

من المطبخ إلى البيت . . . لقد نفذت دومينغا الامر بحذافيره ، فكانت تمر مترفعة أمام نظرات الرجال الشرهة وكلماتهم البذيئة . وبعد مرور سنة ، أخرجت فيليبه من المدرسة وحولته إلى بائع صحف ، لأن أجرها من العمل كطاهية ، لم يكن يكفي لتغطية الميزانية البيتية . وبعد ستة شهور أخرى ، ربما لان الوحدة قد هزمتها ، جاء « دون اورالا » وأقام في البيت محتلاً مكان ميداردو بارثيا .

عندما ضربه آخر مرة ، هدده فيليبه قائلا :

— سأريك عندما يأتي أبي .

ضحك « دون اورالا » ساخراً . وبما ان دومينغا تدخلت لمواساة الطفل ، فقد اعترض الدخيل قائلاً :

— لاتعاقبيه أبداً أيتها المرأة . ستجعلين منه مخنثاً .

أيقول هذا الكلام عن ابن ميداردو بارثيا !

وكان حقده على الدخيل يتعاظم ، ويتعاظم كذلك شوقه لميداردو بارثيا ، الرجل الذي منحه القلب الرجولي ، والمخيلة القلقة ، والدم الفائر .

وفي إحدى الليالي ، في ظلام صالة للسينما ، عندما ظهر على الشاشة بطل مكسيكي متين البنية ، فرض نفسه بحضوره وبملامحه فقط ، وذكره بميداردو بارثيا ، هتف فيليبه وسط ضحكات جمهور المتفرجين : «بابا !».

وفيما بعد ، أثناء نومه ، اتى ميداردو بارثيا ، متسلطاً وشرساً كما هو دائماً . وصل بينما كان « دون اورالا » يضرب الطفل على أضلاعه ويوبخ دومينغا ، لتدخلها لحماية الصغير : « لاتعاقبيه أيتها المرأة . . . » وضربة واحدة من ميداردو بارثيا جعلت الدخيل يختفي ، وبقي ميداردو بارثيا في بيته إلى الابد .

لكن الواقع كان قاسياً في اليوم التالي . لقد فقد « دون اورالا » أعصابه لأن الطفل ذهب إلى السينما دون اذن منه ، فضربه بقسوة . وحينئذ كان ان قرر الذهاب إلى حانة عمه ليعيش هناك ، إلى ان تصبح عودة ميداردو بارثيا ليس حلماً فقط .

سيعود . لايمكنه ان يتأخر ،لأن الشجرة لاتستطيع الحياة بلا جذورها .

عند ناصية شارع المطبعة ، نبهه زميل له صغير كان قد تسلم كميته من الصحف قائلاً :

— أسرع ، ففي الصحيفة صورة الضحية .

وما ان حصل فيليبه على بضاعته ، حتى خرج يركض مسرعاً ، ويصرخ :

— « اليونفيرسو » ، مع صورة الضحية !

في الساعة السابعة صباحاً انتهى من بيع صحفه وعاد ليشتري كمية أخرى منها . لقد أصبح يهتم الآن بالازقة البائسة حيث تبسط الرذيلة أجنحتها الواسعة القاتمة . ان صورة الضحية هي طُعم فعال في هذه الاوساط ، فحتى النساء ذوات الحياة الحزينة ، اللواتي أمضين الليل بطوله دون ان يستطعن النوم ، كن ينهضن مستعجلات ليستعلمن عن الدم الاخير المهدور .

في الساعة التاسعة لم يكن قد بقي معه سوى نسخة واحدة . وقبل ان يظهر مشترٍ لها ، سيقرأ هو الشيء الوحيد المهم فعلاً في الصحيفة : صفحة الفكاهة . جلس على مقعد في شارع سان فرانثيسكو وفتح الجريدة بحثاً عن مادته التي يقرؤها . لكن ، وقبل ان يجدها ، اكتشفت عيناه حضور ميداردو بارثيا . لقد وصل كما كان يتصوره . انه هنا ، مثلما هو دائماً : هائج ومتَحدٍ . انه هنا إلى جانب دومينغا . ويقرأ فيليبه الخبر وهو مشوش :

موت إمرأة شقية على اثر طعنات من زوجها

. . . وقد ألقي القبض على الجاني ميداردو بارثيا .

لقد جاء ميداردو بارثيا اذن . لكنه لن يكون المنتقم المنتظر . هاهو ، ليس المنتصر على دون اورالا ، وانما على أسيره . وتمتم قلبه معنفاً : «أرأيت ياأبي ؟ كان عليك ان تقتل دون اورالا وليس أمي . . . » .

وفيما هو كذلك ، تحركت شفتاه ، بحركة آلية ، لتقدما للعابر الذي كان يمر امامه في تلك اللحظة :

— « اليونيفيرسو » مع صورة للضحية !

ترجمة : صالح علماني



خورخي لويس بورخيس
«الأرجنتين»

* ولد خورخي لويس بورخيس في بوينس أيرس عام ١٨٩٩ .

* بعثه والده – الطبيب الموسر – إلى سويسرا للدراسة . ومن هناك طاف في ارجاء اوروبا ، فزار فرنسا وألمانيا وانجلترا واسبانيا .

* عند عودته إلى الارجنتين سنة ١٩٢١ أنشأ مع بعض رفاقه مجلة « بروا » ليدعو من خلالها لافكاره « الماورائية » ، لكن المجلة توقفت عن الصدور بعد سنتين ، ثم مالبث أن شارك في انشاء مجلة ادبية اخرى هي « نوسوتروس » كما ساهم في تأسيس مجلة « مارتين فييرو » ، التي كان لها اثر كبير في الحياة الادبية الأرجنتينية .

* ترسخت مكانته كأبرز موهبة شعرية عرفتها الارجنتين منذ صدور ديوانه الأول « حماس بوينس أيرس » (١٩٢٣) ، وبعد ذلك بقليل (في١٩٢٥) نشر ديوانه الثاني « القمر من أمام » .

* فقد بصره منذ اواسط الخمسينات، وهو يعيش منذ ذلك الحين في ظلام دائم.

* يعالج في قصصه قضايا فلسفية ، وقد يستخدم لذلك شخصيات خيالية وخرافية للوصول إلى الأفكار التي يريد ، هذا اضافة إلى مقدرته اللغوية العالية

* اخيراً ، وبالرغم من مواقف بورخيس الرجعية في السياسة، فانه كاتب لايمكن لألد خصومه ان يتجاهلوه عندما يريدون الحديث عن الأدب الاميركي اللاتيني المعاصر .

الجنوب

الرجل الذي رسا في بوينس أيرس سنة ١٨٧١ كان اسمه جوهانز داهلمان ، وكان راعياً للكنيسة الانجيلية ، وفي سنة ١٩٣٩ ، كان أحد أحفاده ، ويدعى خوان داهلمان ، أميناً لمكتبة بلدية في شارع كوردوبا وكان يشعر بأنه ارجنتيني حتى أعمق أعماقه . جده لأمه كان ذاك المسمى فرانسيسكو فلوريس، من الفرقة الثانية في سلاح المشاة، والذي مات على تخوم بوينس ايرس مصاباً برمح من هنود كاتريل ، وفي نزاعه مع نفسه بين هذين النسبين ، اختار خوان داهلمان (ربما بدافع من الدماء الجرمانية) نسب هذا السلف الرومنسي ، أو ذي الميتة الرومنسية . ان اطاراً فيه صورة (داغريتيب) لرجل جامد الملامح وملتح ، وسيف عتيق ، والسعادة والحماسة التي في بعض الموسيقى ، والاعتياد على مقطعات مارتين فيرو ، والسنون ، والنفور والوحدة ، كلها دعمت هذا الكريوليزم الطوعي إلى حد ما ، وغير المتبجح على الاطلاق . وباحتمال بعض الحرمان ، استطاع داهلمان انقاذ مزرعة في الجنوب ، كانت لآل فلوريس ، وكان من عادات ذاكرته استحضار صورة أشجار الكالبتوس البلسمية والبيت الطويل الوردي اللون والذي كان لونه قرمزياً في يوم ما ، ان أعماله، وربما تكاسله أيضاً، كانت تحتجزه في المدينة . وصيفاً بعد صيف كان يقنع بفكرة ملكيته المجردة وبتأكده ان بيته ينتظره في مكان

معين من الريف . إلى ان حدث له ذلك الحادث في أحد الايام الاخيرة من شهر شباط لعام ١٩٣٩ .

يمكن للقدر ، وبغض النظر عن كل الاخطاء ، ان يكون قاسياً عند أدنى الهفوات. ففي مساء هذا اليوم،حصل داهلمان على نسخة غير مكتملة من **ألف ليلة وليلة** ، لـ « ويبيل » ، ولشدة تلهفه إلى تفحص هذه اللقية ، لم ينتظر نزول المصعد إليه ، بل صعد الادراج على عجل ، وفي الظلمة اصطدم شيء بجبهته ، أهو خفاش . . أهو عصفور ؟ ورأى الرعب مرسوماً على وجه المرأة التي فتحت له الباب ، وخرجت يده التي مرت على جبهته حمراء اللون بالدم . ان حافة مصراع طلي حديثاً ونسي أحدهم اغلاقه هي التي سببت له هذا الجرح . تمكن داهلمان من النوم ، لكنه استيقظ في الفجر وأصبح طعم جميع الاشياء منذ ذلك الحين فظيعاً ، لقد انهكته الحمى ، وأتت رسوم ألف ليلة وليلة لتشكل ديكوراً للكوابيس . كان أصدقاؤه وأقرباؤه يزورونه ويكررون له القول ، بابتسامة مبالغ فيها ، انهم يجدونه بألف خير . وكان داهلمان يستمع بنوع من الذهول الخفيف ويدهشه انهم لايعلمون بأنه في الجحيم . ومرت ثمانية أيام كأنها ثمانية قرون . وفي مساء أحد الايام حضر الطبيب المعتاد ومعه طبيب جديد وقاداه إلى مشفى في شارع الاكوادور ،لانه كان لابد من أخذ صورة شعاعية له ، وفكر داهلمان و هو في سيارة الإسعاف التي نقلته ، بأنه سيتمكن من النوم أخيراً في غرفة ليست هي غرفته . وأحس بأنه سعيد ومنفتح ، وعندما وصل ، نزعوا عنه ثيابه ، وحلقوا له شعر رأسه ، وثبتوه بأحزمة معدنية على محفة،وأناروه إلى حد العمى والدوار ، ثم فحصوه بالتسمع ، وغرز رجل مقنع ابرة في ذراعه . استيقظ وبه شعور بالغثيان ، كان معصوباً بالشاش ، في زنزانة بها شيء يشبه البئر ،

وفي الايام والليالي التي تلت العملية الجراحية استطاع ان يدرك بأنه كان مايزال، حتى ذلك الحين، في ضاحية من ضواحي الجحيم. لم يكن الثلج ليترك في فمه ادنى اثر من البرودة. وفي هذه الايام كره داهلمان بشكل دقيق، كره ذاته، وحاجاته الجسدية، وذله، واللحية التي كانت تنتفش في وجهه. قاسى بصبر من العلاج الذي كان مؤلماً جداً، ولكن داهلمان انفجر بالبكاء متأسياً من قدره، عندما قال له الجراح بأنه كان على وشك أن يموت بتعفن معوي. ان البؤس الجسدي والتوقع الدائم لليالي السيئة لم يدعاه يفكر بشيء على قدر من التجريد كالموت. وفي يوم آخر، قال له الجراح بأنه قد استعاد قواه وبأنه يستطيع، قريباً، الذهاب لقضاء فترة نقاهة في مزرعته. وجاء اليوم الموعود بشكل لايصدق.

كان في الواقع محباً للامور المتناسبة وللاخطاء الخفيفة في تسلسل الحوادث، لقد وصل داهلمان إلى المشفى في سيارة اسعاف وهاهي ذي سيارة اسعاف تقله الآن إلى محطة كونستيتوثيون. كانت أول برودة الخريف بعد عسف الصيف، تمثل رمزاً من الطبيعة لقدره كنتاج من الموت والحمى. لم تكن المدينة، في الساعة السادسة صباحاً، قد فقدت بعد جو البيت القديم الذي يصبه الليل فيها، كانت الشوارع مثل ممرات طويلة، والساحات كأنها أفنية. وكان داهلمان يتعرف عليها بسعادة وببداية دوار، فقبل ان تلمحها عيناه بلحظات، كان يتذكر النواصي، والاعلانات، والاختلافات الطفيفة في بوينس ايرس. وعلى الضوء الاصفر لليوم الجديد، كانت جميع الاشياء تعود إليه.

لاأحد يجهل بأن الجنوب يبدأ في الجانب الآخر لشارع ريفادافيا. وقد اعتاد داهلمان ان يكرر انه ليس أمراً متفقاً عليه وان من يجتاز هذا الشارع يدخل في عالم أكثر قدماً ورسوخاً. وفيما هو في السيارة كان

يبحث بين الابنية الجديدة عن النافذة ذات القضبان ، ومقرعة الباب ، وقنطرة البوابة ، والدهاليز ، والفناء الحميم .

في بهو المحطة تنبه إلى أنه مايزال لديه ثلاثون دقيقة من الوقت . وتذكر فجأة بأنه في مقهى في شارع البرازيل (على بعد أمتار قليلة من بيت يريغوين) كان ثمة قط ضخم يسمح للناس بمداعبته ، بألوهية متأنفة . دخل . وهناك كان القط نائماً . طلب فنجاناً من القهوة ، حلاها قليلاً ، وذاقها (لقد كان محروماً من هذه المتعة في المستشفى) وفكر ، بينما هو يمسح على الفرو الاسود ، بأن ذلك الملمس كان وهمياً ، وبأن ثمة زجاجاً يفصل بينه وبين القط ، لان الانسان يحيا في الزمن ، في التتالي والحيوان السحري ، في الحاضر ، في أبدية اللحظة الراهنة .

كان القطار ينتظر على الرصيف قبل الاخير . وذرع داهلمان العربات فوجد واحدة شبه خاوية . وضع حقيبته على الشبكة ، وعندما انطلقت العربات ، فتحها وأخرج منها ، بعد بعض التردد ، المجلد الأول من ألف ليلة وليلة . ان سفره مع هذا الكتاب المرتبط أشد الارتباط بقصة شقائه لهو تأكيد بأن هذا الشقاء قد انتهى ، وهو تحد مفرح وسري لقوى الشر المهزومة .

كانت المدينة ، على جانبي القطار ، تتفتت إلى ضواحي ، وقد أوقف هذا المشهد ثم مرأى الجنائن والضياع بعد ذلك بداية القراءة . والحقيقة ان داهلمان كان قد قرأ قليلاً ، ومن ذا الذي يستطيع ان ينكر ان قصة جبل النحاس وحكاية الجني وصانع المعروف كانتا رائعتين ، لكنهما لم تكونا أروع بكثير من ذلك الصباح ومن شعوره بأنه كائن . كانت السعادة تجذبه عن شهرزاد وعن معجزاتها الخارقة ، فأغلق داهلمان الكتاب واستسلم للحياة .

ان الغذاء (مع الحساء الذي قدم في أطباق من معدن لماع ، كما في أصياف الطفولة البعيدة) كان متعة هادئة ومشكورة .

غداً سأستيقظ في المزرعة . هكذا فكر ، وكان كما لو انه كان رجلين اثنين قبل زمن : الرجل الذي يتقدم عبر النهار الخريفي وعبر جغرافية الوطن . والآخر ، المحبوس في مشفى والخاضع لعبودية منهجية. رأى بيوتاً من القرميد دون ملاط ، خاوية وطوياة ، تنظر إلى مرور القطارات بشكل لانهائي ، رأى فرساناً في الدروب الترابية ، رأى مجاري مائية وبحيرات وعقارات ، رأى غيوماً طويلة براقة تبدو وكأنها من المرمر ، وكل هذه الاشياء كانت تمر بشكل عرضي كما لو انها حلم من أحلام السهل . وظن أيضاً بأنه رأى أشجاراً ومزروعات لم يستطع تسميتها ، لان معرفته المباشرة بالأرض كانت أقل بما لايقاس من معرفته الحنينية والادبية .

نام لوقت قصير ، ورأى اندفاع القطار في منامه . كانت شمس الظهيرة البيضاء . التي لاتطاق قد أصبحت الآن تلك الشمس الصفراء التي تسبق المغيب والتي لن تتأخر طويلاً حتى تصبح حمراء اللون . كما ان عربة القطار تغيرت أيضاً ، فهي لم تعد نفس العربة التي كانتها في محطة كونستيتوثيون ، عندما ابتعد القطار عن الرصيف : فالسهل والساعات الطويلة قد اخترقتها وغيرت من هيئتها . وكان ظل القطار المتحرك في الخارج يمتد متطاولاً نحو الافق . لم تكن هنالك بيوت أو أية اشارات انسانية تعكر تلك الارض البدائية . كل شيء كان امتداداً مترامياً ، لكنه في الوقت ذاته كان حميماً ، وسرياً بطريقة ما . ولم يكن يظهر في السهل الأجرد أي شيء أحياناً سوى ثور ما . كانت العزلة تامة ، وربما عدائية . واستطاع داهلمان ان يتوهم بأنه يسافر إلى الماضي وليس إلى

الجنوب فحسب . وشده من هذا الخاطر الخيالي مفتش القطار الذي نبهه بعد ان رأى تذكرته ، بأن القطار لن يوصله اليوم إلى المحطة المعتادة وانما إلى محطة أخرى ، قبل تلك بمسافة قصيرة ، وتكاد تكون مجهولة بالنسبة لداهلمان . (وأضاف الرجل تفسيرات لم يحاول داهلمان فهمها ولا حتى سماعها ، لأن آلية الامور لم تكن تهمه) .

توقف القطار بمشقة وسط السهل تقريباً . وعلى الجانب الآخر من السكة الحديد كانت المحطة ، وهي أكثر قليلاً من رصيف عليه عنبر صغير . . . ولم تكن هناك أية سيارة ، لكن ناظر المحطة رأى أنه قد يستطيع الحصول على عربة في متجر يبعد ، حسبما أشار ، حوالي عشرة أو أثنتا عشرة كوادرا .

وافق داهلمان على سير هذه المسافة معتبراً ذلك مغامرة صغيرة . كانت الشمس قد غابت ، لكن روعة اخيرة كانت تنبعث من هذا السهل الحي الصامت ، قبل ان يمحوها الليل . وليس لانه يريد ألا يتعب بل ليجعل هذه الاشياء تستمر طويلاً ، كان داهلمان يسير ببطء ، مستنشقاً رائحة الاعشاب بسعادة وقورة .

لقد كان طلاء ذلك المتجر أحمر داكناً في يوم من الايام ، لكن السنين خففت ، لصالحه ، من هذا اللون الفاقع . وقد ذكره شيء ما في هندسته البائسة برسم محفور على الرصاص ، ربما كان قد رآه في طبعة قديمة من بول وفيرجيني . كانت هناك بعض الخيول المربوطة إلى عارضة الحاجز . وخيل لداهلمان ، عند دخوله ، بأنه يعرف صاحب المحل ، ثم أدرك بأن شبهه بأحد موظفي المشفى قد خدعه . وقال له الرجل ، بعد أن سمع قضيته ، بأنه سيجهز العربة المكشوفة ، ليضيف عملاً آخر إلى

أعمال ذلك النهار وليشغل كذلك الوقت المتبقي لديه . وقرر داهلمان تناول طعامه في المحل .

كانت هناك مجموعة من الشبان يجلسون إلى إحدى الموائد وهم يأكلون ويشربون بصخب ، ولم ينتبه داهلمان لوجودهم في البدء . وعلى الارض كان ثمة رجل عجوز يقبع مستكيناً وهو يستند إلى المشرب . كانت السنون الطويلة قد قاصت حجمه وشذبته كما تفعل المياه بحجر أو كما تفعل أجيال البشر بعبارة حكيمة . كان قاتماً ، ضئيلاً وجافاً ، وكأنه خارج الزمن ، في أبدية ما . تأمل داهلمان بسعادة عصابة الرأس وعباءة الرعاة المصنوعة من صوف سميك ، والازار المربوط ما بين الساقين ، وجزمة الرعاة وقال لنفسه ، متذكراً مناقشات بلا طائل مع أعضاء أحزاب في الشمال أو مع أناس من وسط البلاد ، بأنه لم يبق رعاة وفرسان من هؤلاء الا في الجنوب .

جلس داهلمان مسترخياً بجانب النافذة . كان الظلام قد بدأ يخيم على السهل ، لكن رائحته وحفيفه كانا مايزالان يصلان إليه عبر قضبان النافذة الحديدية . أحضر له صاحب المحل سردينا ثم لحماً مشوياً ، ودفع داهلمان هذا الطعام إلى جوفه ببضعة كؤوس من النبيذ الاحمر . كان يتذوق الطعم الحريف بتكاسل ويترك نظرته ، الحالمة بعض الشيء ، تشرد في المحل . كان مصباح الكيروسين يتدلى من حمالة معلقة ، وزبائن الطاولة الاخرى كانوا ثلاثة أشخاص : اثنان منهم لهما مظهر العمال الزراعيين ، والآخر له ملامح مستهترة ووقحة ، وكان يشرب وهو يضع قبعته على رأسه . وفجأة أحس داهلمان بشيء يصيب وجهه برفق . وإلى جانب الكأس الزجاجي العادي العكر ، فوق أحد خطوط شرشف الطاولة، كانت توجد كرة صغيرة من لب الخبز. هذا هو كل شيء ، ولكن لابد ان أحداً قد قذف بها .

الذين كانوا على الطاولة الاخرى بدوا مشغولين عنه . وحار داهلمان وقرر اعتبار ان شيئاً لم يحدث ، وفتح مجلد **ألف ليلة وليلة** ، وكأنه يريد بذلك اغلاق الواقع . وبعد لحظات اصابته كرة أخرى من لب الخبز ، وفي هذه المرة كان العمال الزراعيون يضحكون . وقال داهلمان لنفسه بأنه ليس خائفاً ، لكنها ستكون حماقة لو انه سمح ، هو الذي في حالة نقاهة ، بأن يجره مجهولون إلى شجار مخز . وقرر الخروج . كان قد وقف عندما اقترب منه صاحب المحل وحضه بصوت ينذر بالخطر :

— لاتهتم لهؤلاء الفتيان ياسيد داهلمان ، انهم نصف سكارى .

لم يستغرب داهلمان ان يتعرف عليه الآخر ، لكنه أحس أن هذه الكلمات الاسترضائية قد أزمت ، عملياً ، الموقف . فاستفزاز العمال قبلها كان موجهاً إلى وجه عرضي . . إلى لاأحد تقريباً ، أما الآن فهو موجه ضده وضد اسمه وسيعرف الجيران ذلك . أزاح داهلمان صاحب المحل جانباً ، ووقف أمام العمال وسألهم عما يبتغونه بعملهم هذا .

وقف ذو الوجه المستهتر مترنحاً ، وعندما أصبح على بعد خطوة واحدة من داهلمان ، شتمه صارخاً ، كما لو كان يقف بعيداً جداً عنه. كان يحاول المبالغة في سكره ، وكانت هذه المبالغة تنطوي على شراسة وسخرية . وبين الكلمات القذرة والبذاءات ،شهر في الهواء مدية طويلة ، لاحقها بعينيه ، ولوح بها ، داعياً داهلمان إلى مبارزة . اعترض صاحب المحل بصوت مرتعش لأن داهلمان كان اعزل . وفي هذه اللحظة وقع أمر مفاجيء .

فالراعي العجوز الغائب عن رشده ، والذي رأى فيه داهلمان رمزاً

جنوبياً (الجنوب الذي كان **جنوبه**) ، طوح إليه ، من ركنه ، بمدية عارية سقطت عند قدميه . كان ذلك وكأن الجنوب قد قرر بأن يقبل داهلمان التحدي . انحنى داهلمان ليلتقط المدية وأحس حينئذ بأمرين : الاول ، هو ان هذا التصرف الغريزي الذي قام به يجعله ملزماً بقبول المبارزة. والامر الثاني هو ان السلاح في يده غير الخبيرة لن يفيده في الدفاع عن نفسه ، وانما في ايجاد مبرر لأن يقتلوه . لقد لعب بالمدية في يوم من الأيام مثل جميع الرجال ، لكن قدرته في المبارزة لم تكن لتتجاوز معرفة ان الطعنات يجب أن توجه إلى أعلى وان يكون حد المدية نحو الداخل. وفكر :

ما كانوا ليسمحوا في المستشفى بأن تحدث لي أمور كهذه .

وقال الآخر :

— فلنخرج .

خرجوا ، وان لم يكن لدى داهلمان أمل ، فانه لم يكن لديه أي خوف . وشعر ، وهو يجتاز عتبة الباب ، بأن الموت في مبارزة بالخناجر ، تحت السماء الفسيحة ، وبمبادرة ذاتية ، ستكون تحريراً له ، وستكون سعادة واحتفالاً لو انها جاءت في الليلة الاولى التي أمضاها في المستشفى ، عندما وخزوه بالابرة . وشعر بأنه لو استطاع حينها ان يختار موته أو أن يحلم به ، فانه كان سيختار أو سيحلم بهذه الميتة .

ويقبض داهلمان بقوة على المدية ، التي قد لايعرف كيفية استخدامها ويخرج إلى السهل .

ترجمة : صالح علماني

برناردو كوردون
«الارجنتين»

* ولد في بوينس ايرس عام ١٩١٥ .

* دخل عالم الادب بنشر روايته « افاق اسمنتية » عام ١٩٤٠ .

* مارس الكتابة في مختلف الاجناس الادبية ، لكنه برز في مجال القصة القصيرة .

* نقلت قصته « الياس كارديليتو » إلى السينما ، حيث احرز كوردون شعبية واسعة .

* ينقل باسلوبه الواقعي المتقن ، مزيجاً من الجنون ، والعنف ، والامل الذي تعيشه الطبقات الهامشية في مجتمع الاستهلاك ، وأولئك الذين تشكل المدينة بالنسبة لهم مسرحاً مؤلماً وغيرياً عليهم ان يجتازوه يوماً بعد يوم ، دون توقف .

* من اعماله القصصية ، المجموعات التالية :

- متشرد في تومبوكتو ١٩٥٦ .
- يوم أحد على النهر ١٩٦٠ .
- أحسن إلى الناس ١٩٦٨ .

* تعتبر أعمال كوردون من أهم الكتابات في مجال القصة القصيرة في اميركا اللاتينية .

الاضراب الأخير للزبالين

حدث هذا صباح ٢٢ كانون الاول .

كانت السيارة الشاحنة من موديل دودج ـ الوحدة رقم ٢٠٧ ـ التابعة للادارة العامة للتنظيفات تقوم بعملها في شارع ارينااليس .

كان فريقها المكون من أربعة عمال موزعاً على الرصيفين ، والشاحنة تتوسط الطريق ، الامر الذي اثار استنكار « ايسيدورو كاموسو » وهو رجل أعمال صناعي في الخامسة والاربعين من عمره ، كان يقود سيارته الفاليثت ذات اللوحة رقم ٩٠٥ ـ ٥٩٧ التابعة لمدينة بوينس ايرس .

ضغط ايسيدورو كاموسو على المنبه مراراً مطالباً الشاحنة ان تفسح له الطريق . أطل سائق الشاحنة من نافذته وألقى نظرة شاردة على الرجل المثار ، ولم يحرك سيارته الثقيلة مقدار شبر واحد ، وكان العمال في تلك اللحظة بالذات ينقلون براميل القمامة الكبيرة العائدة للبنايات ذات الأرقام ١٨٥٦ ـ ١٨٥٨ ـ ١٨٤٥ ـ و ١٨٤٩ من شارع ارينااليس ، تلك التي تفتقد أجهزة لحرق القمامة .

أشرنا إلى ان السائق قد أوقف سيارته الشاحنة في وسط الطريق ،

معرقلاً المرور ومبدياً لامبالاته حيال سائق السيارة السياحية الحانق . ولا بد ان نأخذ بعين الاعتبار بعض التفاصيل المتعلقة بالعمل . فالشاحنة تتوقف في وسط الطريق لتكون على مسافة متساوية من كلا الرصيفين حيث يجمع العمال براميل القمامة الثقيلة وغير المريحة . وليس من عادة سائقي شاحنات القمامة بالطبع تقديم تفسيرات حول هذه النقطة أو غيرها لسائقي السيارات التي يعرقلون طريقها ، بل يكتفون بنظرة لامبالية يوجهونها من غرفة قيادة ترفعهم أربعة أمتار عن سطح الارض . أغضب هذا السلوك ايسيدورو كاموسو فأضاف إلى المنبه شتائم عديدة وهيأ سيارته للتحرك مستعداً لكل شيء .

ترتفع حرارة الطقس في أواخر السنة ، ويزداد التوتر العصبي في بوينس ايرس . يحدث هذا على جميع المستويات ولكل الافراد .

لم يقبض عمال التنظيفات العيدية بعد ، وكانت ثمة شائعات نقابية مفادها ان الادارة لاتنوي دفعها هذه السنة .

أما رجل الصناعة كاموسو ، فكان — في اليوم ذاته — في طريقه لمقابلة بعض رجالات البنوك ليطلب اعتمادات تسمح له بدفع العيدية لعماله الذين يهددون بالاعتصام في معمله .

وتحت وطأة مشاغله هذه ، قام بمناورة يائسة ، فأدار مقود سيارته حتى النهاية وصعد بعجلتي اليمين على الرصيف مما سمح له بالمرور بجانب الشاحنة ، لكنه ، قبل ان يتابع سيره ، لم يصمد الصناعي كاموسو أمام رغبته في أن يقول للسائق بعض ما يدور في خلده . فأخرج رأسه من النافذة وصرخ :

— زبالة ، مكانكم داخل الشاحنة .

لم يكن أمام سائق الشاحنة مجال للرد . وكانت سيارته الثقيلة لاتسمح له بلحاق الصناعي . وكان كاموسو قد درس هذا الامر بدقة . ولكن ، في تلك اللحظة ، ظهر عامل يحمل على كتفه برميل قمامة وقام — بحركة خفيفة ودقيقة من ذراعيه ، كلاعب كرة سلة — برمي محتويات البرميل داخل سيارة الفاليانت عبر زجاج النافذة الخلفية . سمع ايسيدورو كاموسو الزجاج يتحطم وفكر بسرعة : « سيعوضه التأمين » لكنه، ما ان استدار حتى رأى مالا يعوضه أحد . ليس للشرف اسعار ، وقد شعر الصناعي نفسه مهاناً ، ورأى رمز امتيازه الاجتماعي . برميل من القمامة منتشر في سيارته الفخمة .

ملأت رائحة الاهانة والموت سيارته وخلعت قلبه . أوقف المحرك وقفز من السيارة ليحاسب الجاني. كان هذا رجلاً شاباً مفتول العضلات ، لكن هذه التفاصيل لم تثبط من همة الصناعي ، وسيعمل على توقيفه غير آبه بالتهديد ، حتى ولو جثا امامه طالباً المغفرة . أجل ، سيلقن هذا الحيوان درساً ، حتى ولو شغله الصباح كله . . اليوم كاملاً . لكن العامل الذي ألقى القمامة أبدى خبثه ، اذ اتسعت عيناه بايماءة الدهشة وفتح ذراعيه معتذراً :

— المعذرة . . . لقد انزلق البرميل . يالللاسف .

ثم صاح منادياً رفاقه :

— تعالوا أيها الشباب ، فقد وقع حادث .

وجد كاموسو نفسه محاطاً بأربعة عمالقة في عيونهم نظرات تصميم، وأفواههم تقهقه ساخرة ، فتملكه الرعب بقدر الحقد . عاد ودخل سيارته ، لكن قهقهات اولئك الرجال كانت غير محتملة ، كما لو انها تحقن احماضاً في دماغه .

أخرج مسدسه وترجل ثانية لمجابهة الرجال . أطلق النار على العامل الذي ألقى القمامة في سيارته .

رآه يهوي كما لو انه انزلق ، ثم انتهى .

ألقوا بايسيدورو كاموسو أرضاً وداسوه بالاقدام . دهسوا رأسه ببرميل قمامة ثم رفعوا زميلهم الجريح إلى حجرة القيادة ورموا جثة كاموسو في صندوق الشاحنة . شغّل السائق مكبس المجرفة الساحقة ، فابتلعت رجل الصناعة كاموسو .

أنذرت الشرطة . وظهرت في شارع «بلغرانو» سيارة دورية لاحقت شاحنة القمامة التي انطلقت هاربة باتجاه الجنوب في جادة« معركة لوس بوثوس ». وعند مستوى شارع الاستقلال تمكنت الشرطة من تجاوز الشاحنة ، لكن هذه لم تخفف من سيرها . وقال الشهود ان الدودج زادت من سرعتها بدلاً من ان تفرمل فصدمت سيارة الشرطة بقوة أكبر .

استخرجت من بين صفائح سيارة الدورية المعجونة ثلاث جثث وجريح في حالة خطرة . وتابعت الشاحنة هروبها نحو الجنوب بينما أرسلت دوريات اخرى لملاحقتها .

استطاعت سيارتا دورية من اللحاق بالشاحنة وفتحتا نيران المسلسات والبنادق الرشاشة ، الامر الذي أدى إلى مقتل أربعة أشخاص (من المارة) فالشاحنة المحمية بصفائح الفولاذ لم تخرج من السباق .

انتشرت حينئذ اشاعة تقول انه لاسباب سياسية ونقابية صدر أمر باعتقال أو قتل جميع عمال التنظيفات .

وسرعان ما اذاعت هذه الانباء اذاعة الاوروغواي مما حدا بسيارات جمع القمامة المنتشرة في شوارع بوينس أيرس إلى التوجه بأقصى سرعة صوب مزابل الجنوب .

عشرون ، خمسون ، ثلاثمائة شاحنة قمامة وصلت من المدينة ، شغلت عرض شارع « الكورتا » وشكلت حصناً في استاد نادي «أو راكان» ، وفي المزابل المجاورة ، وحول جهاز قياس الغاز الذي يرتفع بكتلته الباهتة في حي « باتريسيوس » ، لم تجرؤ الدوريات على الاقتراب من الشاحنات التي اصطفت وقد أديرت محركاتها استعداداً للقتال بصفائحها المتينة في الوقت الذي صدر فيه بيان عن اجتماع مندوبي عمال الادارة العامة للتنظيفات جاء فيه ان نقابتهم تعرضت لاطلاق النار من قبل أحد أعضاء الطغمة الحاكمة في البدء، ومن قبل الشرطة فيما بعد، مما دفعهم إلى إعلان اضراب لزمن غير محدد .

واجتمعت السلطات البلدية بدورها لتستمع إلى المحافظ الذي غمز بعينيه مخاطباً الصحفيين ومؤكداً ان أكثر الامور نباهة التي يمكن الاتيان بها هو « ترك أيام العيد تمضي ، فسرعان مايتفسخ الاضراب بعدها » .

مضت أيام آخر السنة التي يحتفل بها سكان بوينس آيرس بشهية رهيبة . وارتفعت في كل زوايا الازقة والشوارع تلال من فضلات الاحتفال . صدر أمر بحرق تلك القمامة لكنها كانت محارق فاشلة . لم ترتفع فيها النيران بل الدخان الزاحف الخانق .

وهكذا تم اكتشاف النوعية غير القابلة للعطب لقمامة بوينس آيرس . وكذلك ميزتها العجيبة في التكاثر بنسب هندسية متوالية .

عندئذ لجأت السلطات البلدية إلى استشارة القوات المسلحة . امتنع

العسكريون عن جمع القمامة معتبرين هذا العمل من اختصاص المدنيين. أضف إلى ذلك ماكان قد تسرب عن استغراقهم بتدبير انقلاب عسكري في الاشهر القادمة : ليس الوقت مناسباً لنشر القوات في الشوارع ، وخاصة في مهمة متعبة ومهينة كهذه .

دعي قائد القوات الجوية إلى قصف تجمع المعتصمين في المزابل ، فأجاب ان كثافة الدخان الذي يغطي المدينة يمنع عملياً القيام بأي نشاط جوي .

أما السادة ضباط البحرية الحربية فكانوا منتشرين على البلاجات والفيلات للاستجمام .

ونظراً لنقص القوات ، اضطرت السلطات للجوء إلى القوانين ، فأصدرت مرسوماً يمنع القاء القمامة أمام البيوت تحت طائلة الحبس غير القابل للكفالات المالية .

وقد نفذت أحكام المرسوم لمرات قليلة فقط ، لان احداً لم يلق قمامته أمام بيته مفضلين دوماً إلقاء قمامتهم امام بيوت الجيران . فنشرت تعليمات اخرى أشد ، ونتجت عنها ظاهرة تجارية غير عادية : ففي أيام معدودة نفدت من الاسواق أوراق الصر المزركشة بالأزهار والشرائط الملونة والمواد الاخرى المستخدمة في لف الهدايا .

كان الناس يخرجون من بيوتهم يعلو محياهم مزاج احتفالي وهم يحملون لفائف أنيقة وسلال متقنة الترتيب .

محتوياتها : قمامة (ترسل من قبل مجهول أو باسماء مستعارة للاصدقاء والاقارب) . لم يحتفظ أحد في بيته بقمامته ، لكن الجميع كانوا يتعثرون بقمامة الآخرين .

حدث اذن عكس ما حسبه المحافظ : فبدلاً من ان يتفسخ الاضراب راح التفسخ والعفن يهيمن على المدينة .

فتقرر ارسال مبعوث للتفاوض مع عمال التنظيفات المضربين ، ورجع بانباء لاتدعو إلى الارتياح . لقد انكر المضربون كونهم عمالاً للتنظيفات . والمنطقة التي يحتلونها كانت تبرق نظافة ، وبدلاً من ان تكون مزبلة في مدينة نظيفة غدت منطقة طاهرة وسط المزبلة الكبيرة . كان عدد المعتصمين هناك كبيراً ، فكانت تكفي ساعة واحدة في اليوم يقوم فيها كل منهم بواجبه استجابة للشعور بالمسؤولية المهنية ، أما ما تبقى من الوقت فكانوا يستهلكونه بالتفكير .

فقال المحافظ متوهماً :

ـ أيعني هذا ان الندم وجد طريقه إلى نفوسهم ؟

وأجاب المبعوث بحزن :

ـ لايبدو الامر كذلك .

ـ هل اخبرت المضربين بحالة المدينة ؟

ـ لم يدهشهم ذلك . قالوا انهم لاحظوا من خلال عملهم ان القمامة كانت تزداد يوماً بعد يوم ، ولاشيء سوى القمامة . وهم الآن يمتنعون عن جمعها ، يقولون ان الوقت قد فات .

ـ لقد هلكنا ! ـ صاح وزير الثقافة . وبعد ان منح نفسه جائزة الشعر الكبرى اختفى من القصر .

انهارت جبال القمامة نتيجة للتراكم المستمر وتدفقت في الشوارع كالفيضان ، محولة كل ماتلقاه إلى قمامة ، نصباً تذكارياً كان أو اشارة مرور ، أحد المارة أو مفتش أو أي شيء آخر من اشياء البلدية .

فضل سكان بوينس آيرس ملازمة بيوتهم مما سبب مقالات افتتاحية كثيرة ومطولة حول استعادة التقاليد البيتية السليمة . لكن الزبالة كانت تنمو داخل البيوت أيضاً كما في الخارج فياقي الطرفان عند الابواب والنوافذ . قبلات القمامة تلك كانت بمثابة المقدمة لمورات جديدة من النمو الانتاجي ، فقد منعت طباعة الصحف والمجلات بعد التأكد من ان الورق يشكل الجانب الاكبر من حجم النفايات . وقد رأينا كيف جرى استخدامه لتمويه الفضلات المهربة .

أثار حجز الحريات الصحافية استنكاراً دولياً ، فترجمت برقيات النقابة الدولية للصحافة الاستنكارية إلى أطنان من الورق الذي كاد يحجب القصر البلدي .

وكان ان ظهر ذلك العجوز المتدثر بشرشف مهترىء . تساق ذلك الشريد أو النبي قمة جبل القمامة الداخنة ، وأشار نحو الغرب . لم يسمع أحد ماقاله (فيما اذا كان قد قال شيئاً) لكن رتلاً طويلاً من المهاجرين تشكل على الفور .

لم يحقق الموظفون الساموون الذين أحرقوا انفسهم احتجاجاً (على الطريقة البوذية الفيتنامية) سوى اغناء تشكيلة القمامة والروائح بجثثهم . ولم يوقفوا الهجرة بعماهم هذا .

عندما حاذت قافلة المهاجرين ابراج الراديو - تيليفونية في ضواحي المدينة ، سمعت الاخبار الرسمية الاخيرة : « في خضم النهضة الاقتصادية ، انطلق سكان العاصمة بجبور في رحلة اجازاتهم المستحقة » . . . انكسر صوت المذياع واستحال صمتاً ثقيلا في اللحظة التي طغت فيها القمامة على قمم ابراج الارسال .

سيول صمغية تترافد وتعود فتتحد في دورتها وهي تتاوى كالثعبان الذي يلتهم نفسه . بلا بداية ولانهاية .

نبتت المادة الاساسية للمجرة والكوليبرى (١) وابتاعت طاقة فوسفورية غير جاذبة قافلة الفارين ، وراحت تمحو ذكرى المدينة .

وبقي سهل طاهر وفارغ — كما حل به عمال التنظيفات المضربين — في انتظار تأسيس جديد لمدينة بوينس آيرس .

ترجمة : عاصم الباشا

(١) كوليبرى : طائر ذبابي (طنان) .

هارولد كونتي

«الارجنتين»

ولد عام ١٩٢٥ .

عمل في مهن شتى ، وذاع صيته الادبي منذ أوائل الستينات . وحازت أعماله على جوائز عديدة ،
منها :

- جنوب شرق (رواية) جائزة فابريل ١٩٦٢
- كل فصول الصيف (رواية) جائزة بلدية بوينس ايرس .
- حول القفص (رواية) جائزة جامعة فيراكروث .
- مع اناس اخرين (قصص) وحيدا (رواية) جائزة بارال ١٩٧٢ .
- انشودة شجرة الحور كارولينا (قصص) جائزة كاسا دي لاس اميريكاس.

اختطفته عصابات اليمين الفاشي المتعاونة مع الحكومة الدكتاتورية عام ١٩٧٦ ، وما زال مفقوداً منذ ذلك التاريخ ، مثله مثل الكاتب المعروف رودولفو والش .

انشودة شجرة الحور كارولينا

« ياشجرة الخوخ عند بابي اذا لم أعد يوماً فالربيع آت ،
دوماً .. فأزهري ، أنت .. »
« شاعر ياباني مجهول »

يظن المرء ان أيام الشجرة متشابهة ،وبخاصة في حال الشجرة العجوز . لا ، ان يوماً من حياة شجرة هو يوم من حياة الكون .

ولدت شجرة الحور هذه هنا بالضبط ، وعلى الرغم من ان الحور يشتل فقد ولدت هذه وحدها. أطلت يوماً من بين الحشائش القاسية التي كانت تغطيها ، وكانت عشبة أخرى ، معرضة للرياح ، للشمس وللحشرات . وظنت الشجرة انها لن تكون غير ماهي عليه حتى فطنت إلى انها تجاوزت الاعشاب . وعندما اشتدت حرارة الشمس وغدا التراب دافئاً انتفخت أحشاء الشجيرة واستقامت منجذبة بقوة إلى أعلى ، نحو السماء ، حتى انها أحست في داخلها شيئاً كالطريق على الرغم من انها ماكانت تدري ماهي الطرق . فمـــا عرفت ذلك سوى في العـــام التالي عندما أصبحت الاعشاب بعيدة تحتها واكتشفت خلف الاعشاب أسلاكاً معدنية . وشاهدت الطريق وراء الاسلاك ، والطريق عبارة عن شجرة مستلقية على الارض ذات غصن هنا وآخر هناك ، كل أغصانها يابسة في الشتاء ، لكن رؤوسها تزهر في الصيف ، فكلها تنتهي بمجموعة

أشجار حقيقية ، ويسير البشر على تلك الطرقات بينما تدفع الرياح المجنونة سحب الغبار .

وكانت قد أدركت قبلئذ ماهو الغصن ، لأنها شعرت بجسمها يتسع هنا وهناك بعد أمطار آب ، وأحست ان بعضاً منها بقي هناك ، لم يتابع النهوض ، مال إلى جانب ونما محاذياً الارض بالضبط . انها الآن شجرة عجوز ، فقد مضى عليها اثنا عشر صيفاً . هذا ، مالم تخطىء الحساب . وهي تنمو الآن ببطء أشد بل انها تكاد لاتنمو . انها تطاق أوراقها في الربيع في المكان ذاته الذي شغلته في الصيف الماضي ، وتبزغ في أعلاها براعم ذات خضرة أكثر لمعاناً تبدو لحظة الغروب وكأنها تلتهب في داخلها . لكنها ، شجرة الحور ، لم تعد تبغي أكثر من هذا النور الصيفي العذب الذي يكسوها كوشاح . وهاهي ذي،شجرة الحور العجوز،غارقة في ذلك الضوء ، مليئة بالذكريات .

فبشكل أو بآخر كذا كانت منذ اثني عشر صيفاً . عندما بزغت من التراب ، ولم تكن عملية النمو أكثر من التفكير في حالها . الفرق الآن انها تذكر كل ذلك ، وتفكر بذاتها إلى الوراء ولاتلد من ذلك شجرة أخرى . هنا تكمن الشيخوخة ، ايتها الذاكرة الخضراء .

الوقت الآن بداية صيف ، وقد ارتدت كل أوراقها مرة أخرى ، أوراقاً تطلق لونها الاخضر الشديد الخضرة . (كل واحدة منها كشجيرة). وعند الاصيل ، عندما تميل الشمس إلى الغروب وتدخل بين الاغصان تشتعل شجرة الحور العجوز كقنديل أخضر ، عندئذ تأتي العصافير وتنتفض ضاجة بين الاوراق باحثة عن مكان للمبيت ، وهي اللحظة التي تنهال فيها الذكريات على شجرة الحور كارولينا . تذكر الليل ،

العصافير والصيف . تتذكر ، مثلاً ، فيما يتعلق بالعصافير ، أول من توقف منها على الغصن الاول ، ذلك الذي مابرح في الاسفل والذي كان وقتذاك في القمة ، وهو يكاد لايحمل أوراقاً وقد نخن كشجرة صغيرة .

كان ذلك الغصن في تلك الازمنة أكثر أغصانها حياة ، وشعر يومها بملامسة العصفور لبشرته وبارتعاشة كتلة الريش الصغيرة. ارتاح العصفور برهة ثم انطلق بعيداً .

وبعد صيفين من هذا ، عندما بانت له أول دار يقطنها الانسان ، وخلفها يبرق خطان من السكلك الحديدية ، جاء عصفور وبنى لنفسه عشاً على الغصن الاخير . قطع العصفور أعشاباً طرية ثم جدلها ليحولها إلى مسكن . وهكذا ادركت الشجرة ماهي الدار ، وصارت تعرف أية حياة تسكن البيوت ، تماماً كما سبق لها ان عرفت الطريق وحياتها ، تلك الشجرة العريضة المزهرة بالاحلام .

ينوس العشب عند طرف الغصن فتتجنب الشجرة الاهتزاز كثيراً على الرغم من أن رياح الاصيل المجنونة تروق لها ، وتبذل كل مافي وسعها من أجل تأمين الراحة والدفء لساكنها . فقد اطلقت ، على سبيل المثال ، كثيراً من الاوراق حول العش . مع نهاية الصيف خرجت الصيصان الوليدة من العش وأحست بها تتنقل فوق الغصن بسيقانها النحيلة المرتعدة وتستعد مراراً للطيران حتى ألقت بنفسها وارتمت على الهوء كورقة .

تكاد الشجرة في الصيف تكون عصفوراً : انها تكسو جسدها بريش تهزه الرياح . . . وتعلو ، اذا شاءت من بطن الارض إلى أعلى قمتها وتقفز من غصن لآخر ، طيراً خشبياً في قفصه الاخضر .

كان ذلك صيف اكتشاف سكة الحديد ، والذي قبله صيف اكتشاف الدار ، لكنها مارأت الدار كاملة حتى في السنوات التالية ، بعدها ارتقت

إلى أعلى . انها تشاهد اليوم من أعلى براعمها سقفاً من الصفائح المعدنية يشتعل بالشمس ومدخنة بيضاء ترسل عند العصر تاجاً من الدخان . ويحدث أحياناً أن تجلب الريح بعض الاصوات ، لكن الشجرة وصلت إلى الدار عبر أوراق الخريف المدفوعة بالرياح ، وأبصرت بعيونها الصفراء القديمة الانسان داخل الدار ، ناحلاً وقاسياً ، متشقق القشرة ، كقشرة الاغصان الاولى، والتقت امرأة تفوح منها رائحة دخان الخشب، وطفلين صامتين مشعثي الشعر كزغب فراخ الطيور .

لقد طرقت الشجرة باب الدار الخشبي المشقق بايديها الصفراء القديمة ، وبها داعبت جدران الطوب المكلس ، وركضت الايدي ، العيون والاجنحة الصفراء أمام المكنسة المصنوعة من الذرة الغينية ، وزحفت كلها إلى أعلى ثانية ، في الدخان العابق لموقد يعلن قدوم البرد وزمن اغفاءة الشجرة والارض .

يمر القطار من خلف الدار ، وكان لابد من النمو صيفاً آخر والانتظار ريثما تورق مرة أخرى وتعود العصافير حتى تتبين اللمعان الخفي لسكتين تقطعان الارض . كانت قد سمعت الضجة من قبل ، ذلك الضجيج القاتم الذي يهز الارض ، وذلك لان الشجرة تنمو تحت الارض كما فوقها . كانت تحت الارض ، شجرة رطبة ذات أغصان طويلة ، ندية وصدفية تنغرس في ليل الارض الفاتر ، وكانت تحيا وتحس من خلال ذلك الجزء بشكل رئيسي ، بفضل تلك الجذور يصبح يومها يوماً من حياة العالم ، واسعاً وعميقاً ، لان نبض الارض يرسل إليها كل انواع الاشارات . كانت الارض جسداً ندياً ممتلئاً بالحياة يتنفس بعذوبة تحت الاوراق والاعشاب وهي تمسك وتحمل كل ما على وجهها . وكانت

الحورة تتصل بالاشجار الاخرى عبر ذلك القلب الرطب ، فالى الشرق ، حيث تولد الشمس ، كان ثمة غابة . وقد رأتها صباح أحد الايام بعيونها الخضراء العالية فارتجفت أوراقها ملتمعة .

كانت الغابة أكبر الاشجار ، أكبرها وأروعها جميعاً . ومع حلول العصر ، عندما تكنس الشمس بميولها الاعشاب التي تبدو كلهب صغير وادع ، التهبت تلك الاشجار بنار عظيمة ، فصوبت شجرة الحور أحد أغصانها الارضية بذلك الاتجاه وتلقت جواباً .

لم تكن شجرة أكبر ، وانما غابة ، أي مجموعة من الاشجار .

لماذا ليست شجرة الحور هناك ؟ لماذا ولدت وحيدة ؟ أليست اختصاراً لغابة وكل غصن فيها شجرة ؟ فأجابت الغابة على هذه التساؤلات ، جاءها الرد من أخواتها ، ليلة بعد ليلة ، أجابت الاشجار على هذه الاسئلة وعلى أخرى غيرها بينما كانت الشجرة في وسط تلك العزلة التي ترهقها بالاسئلة وبالعصافير عند الغروب .

ان الاشجار لاتنام ، بل تنعس ، وبخاصة في الشتاء ، عندما تنزلق النجوم العالية على أغصانها مبتلة كقطرات الندى ، باردة .

في ذلك الوقت تزداد رهافة الاستماع لاصوات واشارات الارض. تخرج حيوانات الليل من أوكارها لتقرض الظلمات ، ويحلق طير أرق باتجاه ضوء بيت ما ، كتلة قاتمة تدب على الطريق ، تصفر الصراصير من بين الاعشاب كأنها أوتار زجاجية ، ينبح كلب من بعيد ، يتقلب الانسان في سريره ويفكر كم من الارطال ستنتج الارض المزروعة قمحاً ، وفي هذه اللحظة ، في هدأة الليل ، تعمل البذرة تحت الارض ، تشعر الشجرة بها تنبت ، تحس بمجهودها الصغير ، كيف تنتفخ وتنتشر شيئاً

فشيئاً في الطريق ذاتها التي رسمتها آمال الانسان الذي عاد إلى النوم حالماً بمدى بحري من السنابل الصفراء ..

وكان عبر الارض ان سمعت الشجرة القطار ، في ذلك اليوم الذي سرى فيه الضجيج داخل جذورها . وبعد ذلك بزمن ، بعدما لاحت لها دار الانسان ، شاهدت اخيراً ذلك البيت المجنون الضاج الراكض بمدخنة فوق الارض ، فأدركت ان أشياء كثيرة تنتقل من مكان إلى آخر اضافة للعصافير ، فوخزتها آلام الاستقرار ، فقد كانت في اوج شبابها آنذاك ولم تكن قد شاخت بعد . كل ماتقدر عليه هو الارتقاء نحو الاعلى في طريق قصيرة تتجه إلى السماء ، والطيران خريفاً بشكل أوراق اذا ما هبت عليها الرياح .

كان القطار يعبرها أحياناً ، فيصل الدخان إلى الحورة . وهذا يتعلق بالريح ، فقد علمتها العصافير كيف تستغل الرياح ، فحسبما تهب تهز الشجرة أوراقها كريش أخضر وتتصنع تحليقات راجفة . وتجتاز الريح صعوداً ونزولاً أحشاء القفص النباتي محدثة – تبعاً لتوزع الدغل – همسات وصفيراً يروق للشجرة الموسيقية .

انها تتعلم كل هذا مع السنين ، صيفاً بعد آخر ، وتغدو هذه المعارف مادة للتذكر شتاء . يقدم الشتاء إليها مع سقوط الورقة الأولى ، مع شعورها بأن أقدم الاغصان بدأت تغفو ثم يزحف النعاس نحو الداخل لكنه لم يصل أبداً إلى قلب الشجرة. تشعر باقتلاع بسيط ثم تحلق أُولى الاوراق فوق الارض . هكذا تكون البداية .

ثم يتساقط الباقي لتعبث الرياح بها،تنثرها ، تهرع وتختلط بأوراق أشجار اخرى بينما تغفو شجرة الحور كارولينا وتفكر هادئة بذلك

الصيف المنير القادم عبر الارض يحبو على اسوار نسغها الفاتر . تضفي الامطار قتامة على أغصانها وتلتمع القشرة كما لو انها من اللوز. ينكسر بعضها بفعل الرياح العاصفة فتوقظ الشجرة للحظة ، فهي تشعر بذلك الموت الصغير . لكنها مازالت متماسكة ، وتدرك انها ستحيا فصول صيف اخرى . في شهر أيلول * تلتقي الذكرى والحدث في أحضان الزمن فتصعد من عتمة الارض حكة تداعب بشرتها وتزيل الخدر من الاغصان فتبرعم شجرة الحور كارولينا مرة اخرى بطفرات خضراء .

صار الهواء فاتراً، وابتعد الرجل الذي تتأمله من قمتها وهو يعبر الحقل ويرمق العشيبات الخضراء التي ظهرت على وجه الارض .

تكون الشجرة ـ في أواسط تشرين الاول وقد ارتدت حلة الاوراق الثابتة الخضراء مرة أخرى ـ أوراقاً تبرق مع الشمس اذ تهزها النسمة عند الاصيل . الشمس في هذه الفترة من السنة أكثر ثباتاً ، وهي ترمي ظل الشجرة العظيم على الارض . وحدث في هذا الصيف ، بينما كانت الشمس عالية جداً والظل أكثر قتامة ، ان اقترب الرجل اخيراً من الشجرة ، رأته قادماً عبر الحقول ، أسود يمتطي حصانه المتفصد عرقاً . ترجل ودخل الظل ، خلع قبعته المغبرة ، وبعد نظرة منه إلى أعلى ونفس عميق عبه من الرطوبة العالقة بالاغصان أزال حبيبات العرق عن جبينه بكم قميصه ، ثم جلس عند أسفل الشجرة واتكأ على جذعها .

نام الرجل بعد قليل ورأى في حلمه انه شجرة .

ترجمة : عاصم الباشا .

---

* الربيع في نصف الكرة الأرضي الجنوبي . (م) .

فرانشيكو كولواني
"تشيلي"

* ولد فرانثيسكو كولواني عام ١٩١٠ في ميناء كيمتشي ، في جزيرة « ايسلا غراندي دي تشيلوي » .

* شارك منذ طفولته في حياة منطقة باتاغونيا القاسية كراع للاغنام . ثم حملته الحاجة إلى كسب قوته للعمل في البحر ، فعمل كبحار وكصائد حيتان .

* وقد اتاح له هذا التواصل مع الطبيعة معرفة المشكلة الانسانية في منطقة الجنوب القاسية .

* معظم شخصيات قصصه جاءت من تجربته المباشرة مما عزز مكانة أعماله ومنحها قيمة الوثيقة والشهادة .

* كتب قصصاً فضح فيها المجازر التي ارتكبها المعمرون والباحثون عن الذهب ضد هنود الاونا والياغان . كما كتب عن حياة ومشاكل رعاة الاغنام والبحارة باسلوب رشيق ولغة بسيطة .

* نال عدداً كبيراً من الجوائز الادبية في بلده .

* من أعماله القصصية :

– رأس هورنوس	١٩٤١
– غزاة انتارتيدا	١٩٤٥
– خليج بيناس	١٩٤٥
– أرض النار	١٩٥٦
– درب الحيتان	١٩٦٢

خمسة بحارة وتابوت أخضر

في يوم من أيام الشتاء الاولى وصلت إلى بونتا اريناس سفينة متخففة من ثقالات توازنها لدرجة ان نصف ريشة من رياش مروحتها كانت خارج الماء ، وكان تصفيحها الرصاصي اللون ، المقشر بعض الشيء بسبب تقلبات الطقس أو عمليات الطلاء في عرض البحر ، مشققاً يكشف عن بقع كبيرة من طلاء الاساس الاحمر بدت كجراح لم يتوقف نزيفها بعد .

لقد كان هذا النوع من السفن المتشردة يمر عرضاً في مضيق ماجلان أثناء رحلاته الطويلة ، واذا ماتوقفت في الميناء ، فانها تفعل ذلك لاصلاح خلل في آلاتها أو لعطل حيوي ألم بها ليس إلا .

طلبت هذه السفينة الاذن بدخولها من قيادة الميناء ، ولكنها رفعت إلى جانب راية الاذن على الصاري الامامي راية اخرى كبيرة من قماش أسود وأصفر ، وهي تعني « ميت على متن السفينة » .

وفعلاً ، بعد ابتعاد مركب السلطات البحرية المختصة عن السفينة ، أنزلت رافعتها زورقاً فيه أربعة مجدفين وريس ، اتجه بتجديف سريع نحو رصيف الميناء .

رسا الزورق قريباً من الرصيف الذي كان على من مستوى الماء بكثير نظراً لانحسار المد البحري في مثل هذا الوقت .

تسلق اثنان من طاقم الزورق الدعائم ووصلا إلى سطح الرصيف، فألقى إليهما الذين مازالوا في الاسفل بطرفي حبلين أخذا يسحبانهما بحذر، ليخرج من الزورق تابوت غريب مطلي باللون الاخضر بدا كما لو كانوا يسحبونه من أعماق البحر . وبالرغم من ان التابوت قد صنع دون اتقان ، فقد كان له الشكل التقليدي لصندوق الموتى .

وضع التابوت بحذر بالغ على حافة الرصيف ، وصعد البحارة الثلاثة الآخرون بعد ان ثبتوا الزورق . ثم حلوا الحبال التي كان التابوت مربوطاً بها ورفعوه ليضعوه على أكتاف أربعة منهم ، وانطلقوا مع خامسهم في موكب متكامل بحثاً عن مخرج الميناء . كانت الشوارع مغطاة بالثلج ، فأخذ البحارة يسيرون بحذر ، ويخطون بتردد ، مما جعل أكتافهم تتمايل وكذلك التابوت ، الذي أصبح يبدو بلونه الاخضر ، وكأنه قطعة من البحر محمولة على أكتاف هؤلاء البحارة .

عند مخرج الميناء سألوا أحد الحراس عن الطريق المؤدي إلى المقبرة، وتوجهوا إليها بخطواتهم الموزونة. كان وقت الظهيرة تقريباً، ولم يكن في الشوارع المقفرة والبيضاء أحد من المارة خلا شخص هنا أو هناك يمضي مسرعاً لتناول غداءه ، ولكن استعجال هؤلاء المارة القلائل ما كان يمنعهم من نزع قبعاتهم بخشوع أمام لقائهم بالموت ، وبعد ان يلتفتوا برؤوسهم عدة مرات ، يتوقفون ليتأملوا جنازة البحارة الاربعة الذين يحملون التابوت على أكتافهم الغريبة .

ولدى مرورهم في أحد المنعطفات التقوا بشخص قصير ، بدين ،

كشف عن رأسه الكبير ذي الانف الافطس ، وفي تصرف فريد ، انطلق يسير إلى جانب النعش ، خافضاً بصره وقد كست وجهه علائم الحزن ، كما لو كان من أقرباء الميت . انه ميكي ، الابن الاحمق لصانع الحلويات ، المعروف بعادته المأتمية في مرافقة أية جنازة يلتقيها في طريقه مبدياً أقصى مشاعر الاسى . . . ولكن لابد ان شيئاً غريباً كان في هذه الجنازة ، فبعد ان سار بضعة خطوات ، وضع قبعته على رأسه من جديد وغادر الموكب ، مستأنفاً تسكعه كأي مجنون طليق .

ما ان وصلوا خارج البلدة ، حتى صفعت حاملي التابوت ريح محملة بالثلج ، مما جعلهم يتبادلون الحمل على اكتافهم بكثرة ، مختارين الجهة الاقل تعرضاً للريح من التابوت لحماية وجوههم . وكان واحد منهم يمضي دائماً في المؤخرة ، مستريحاً ، بتناوب متجدد .

كان ترك التابوت في احدى هذه التبديلات من نصيب بحار عجوز بعض الشيء ، يتخلل الشيب شعره، فتوقف عن المشي تماماً ليستريح، بينما كان يمر بالمنديل على وجهه المبلل بمزيج من نتف الثلج والعرق الذي يتلألأ على جبهته . انه فوستر ، أكثر المقربين من مارتين مشعل الانوار في السفينة ، والذي يمضون الآن لدفنه . لقد كانا يتقاسمان نفس القمرة في السفينة « غاستيلو »، ومن يدري لأي سبب كان يتعرق إلى هذا الحد ... ربما لأن التابوت كان أثقل على كتفيه من ثقله على أكتاف رفاق مشعل الانوار الآخرين . . .

وفجأة ، اصطدمت عيناه بلوحة اعلان معلقة بشكل بارز على افريز أحد البيوت كتب عليها بحروف زرقاء وحمراء : « حانة هامبورغو » . ألقى نظرة وجلة على رفاقه الذين كانوا يبتعدون دون ان يلحظوا وقوفه ،

وهم يسايرون الريح بخطوات مستعجلة ، وعاد ينظر إلى اللوحة ليدخل مسرعاً إلى الحانة .

طلب من الخمار ، وهو أمام المنضدة ، كأساً مزدوجة من الجن ، وتناولها في جرعة واحدة ، ثم مر بظاهر كفه على شفتيه اللتين أعادتا امتصاص شاربه بلذة ، وأحس بأنه قد استراح أكثر ، ليس لان حمل التابوت كان أثقل عليه مما هو على الرجال الآخرين ، وانما لأمر يتعلق بمارتين مشعل الانوار ، وزميله في القمرة ، الذي ألقت عيناه ، وهما تدوران بالنظرة الاخيرة على الدنيا ، في عيني فوستر ، وفي روحه الوعرة بالجشع ، ثقلاً حاول هذا ازاحته دون جدوى.

وهو بالذات من اقترح دفنه على اليابسة وليس في البحر ، لخوفه من خرافة بحرية قديمة تقول بأن المدفونين في البحر يعودون دائماً إلى بيوتهم أو هم يترددون بكثرة على زيارة الاماكن التي عاشوا فيها ، مقدمين في أغلب الاحيان على الانتقام ممن أساؤوا إليهم . واذا كان ثمة جريمة أو ماشابه ذلك ، فإن الاسطورة تشيد بالانتقام الذي يتم بأن تتقمص روح الضحية روح القاتل ، إلى أن تصيبه بداء وتميته . . . خرافات، أكاذيب، ولكنها صحيحة أحياناً مثلها كمثل « أنوار سان تيلمو » التي تضاء في أعلى الصواري وتقاطعاتها قبيل غرق سفينة وهي وسط العاصفة .

وقبل ان تتجاوز السفينة رأس فروارد ، وهو آخر أرض يابسة في جنوب القارة الاميركية ، كان فوستر قد صنع على عجل ، بمنشار صغير ومطرقة ، الصندوق الخشن من خشب الصنوبر واضطر لطلائه بدهان أخضر اللون ، لانــه لم يكن على متن السفينــة باستثناء هذا الطلاء إلا القار الاسود ، ومن المستحيل استخدامه لان جفافه يتأخر

طويلاً . لقد بادر أمام القبطان وأصر على عدم الالقاء بجسد مارتين إلى البحر ، كي يستريح بسلام على الارض ،وربما تركه بهذا يستريح هو بسلام أيضاً . . . ، لأنه اذا مابقي طافياً على سطح الماء أو هائماً في أعماق البحر ، فان ذلك الثقل الذي يقلب على مزاجه آخر نظرة ألقاها عليه مشعل الانوار لن يريحه حتى لو شرب كل كؤوس الجن التي يستطيع أحتساءها خلال حياته .

لم يتمكن من مواصلة تأملاته ، فقد اقتحم حانة هامبورغو ، بصخب كبير ، رفاقه الاربعة ، الذين ما ان تنبهوا إلى انه ليس وراءهم ، حتى توقفوا برهة لينتظروه ، ولكن أحدهم ، كبحار ظمآن ، رأى عرضاً كذلك اللوحة الحمراء والزرقاء المعلقة على جدار البيت وقد كتب عليها حانة هامبورغو، ولم يداخلهم أي شك في ان رفيقهم الغائب قد دخل برأسه هناك ليشرب ببخل بعض الجرعات . فوضعوا التابوت في منخفض من الارض القريبة من البلدة ، مابين الرصيف والشارع ، كي يحولوا قدر الامكان دون اظهار التابوت المهجور الذي ينم وجوده عن قلة احترام ، واتجهوا في أثر ذاك السافل الذي دخل ليشرب وحده .

لم تكن دهشة فوستر قليلة لدى استقبالهم ، لكنه طلب جولة من الشراب للجميع ، وهو يصنع من أحشائه قلباً ، ثم طلب جولة اخرى وتقدم ليدفع الحساب ،وهذا أمر غريب لما عرف عنه من بخل . فقال له واحد منهم له شعر أحمر وفي وجهه ندب جراح بسكين وهو يضحك :

– هل ورثت مارتين حتى أصبحت كريماً هكذا ؟

– لقد كشفناك أيها العجوز الخبيث ! . . . . أراهن انك تنفق من النقود التي كان يخبئها مارتين في مكان لايعرفه أحد إلا أنت وهو !

مرر فوستر المنديل على جبهته من جديد وحاول الابتسام ، بينما كان يرفع الكأس إلى شفتيه ، ويدعو الآخرين لمشاركته بالايماء .

وقال آخر :

– وكنت ستشرب وحدك ، أليس كذلك أيها العجوز ؟

– لاتكونوا هكذا ، فدائماً كنت أشرب وحيداً . . انما بنقودي !

فهتف ذو الشعر الاحمر :

– أحضر لنا زجاجة كاملة من الجن اذن ! والعجوز فوستر سيدفع !

نزع الخمار سدادة قارورة صلصالية ووضعها على الطاولة . . .
اقترب البحارة وقرأوا على بطاقة القارورة : « لونه العنبري الشاحب دليل عتقه » ثم بدأوا يشربون .

كانت عاصفة الثلج في الخارج تتحول إلى تراكمات ثلجية ، واقتربت أجنحة الثلج وحدها لترافق مارتين ، كقربان من الرحابة فوق نعشه المهجور .

إذا التقى الاخضر بالأخضر
والاحمر التقى بمثيله ،
فلن يضيع شيء حينئذ ،
وكل سيتابع طريقه . . .

جميعهم كانوا يرددون هذه الاغنية التي كان يتذكر بها مشعل الانوار مارتين موضع الانوار عندما تلتقي المراكب المبحرة ليلاً ، وهي أغنية يرددها كل مشعل أنوار أو مدير دفة كي لايخطىء الاتجاه الذي عليه اتخاذه في تلك الظروف .

لقد أضيئت الانوار داخل الحانة أيضاً ، لان الليل قد أرخى سدوله في الخارج ،دون ان ينتبه البحارة لقدومه . انهم عمال بحر ، وصيادون، يشربون بصخب ، بينما الدخان القوي المنبعث من غلاينهم يملأ الحانة بجو ثقيل . وبين الحين والحين يضع أحدهم قطعة نقدية في شق صندوق الموسيقى الملتصق بالجدار ، فتنطلق في الجو أنغام عسكرية بولونية قديمة أو أنغام فالس ، مصحوبة بهدير طبول وصنجات .

نظر أحد البحارة من النافذة إلى الظلام ، وتأمل بنظرة حزينة كيف كانت ندف الثلج تتلاعب على الزجاج ، وكأنها سرب من الفراشات تسعى لاختراق الزجاج نحو النور ، ثم تنزلق كدموع كبيرة تخدش الزجاج المغطى بالبخار . ربما تكون الموسيقى،وتراقص أقدام الثلج المجنحة على الزجاج في ايقاعها المضطرب . . . ، هي التي استدعت إلى ذهن البحار فكرة ملحة ، فنهض ليقول شيئاً في اذن أحد العاملين في الحانة ، ثم وقف ساهماً لبرهة ، وقد اسند مرفقيه إلى المشرب وهو ينظر إلى رفاقه الاربعة ، كان فوستر العجوز غافياً والثلاثة الآخرون يشربون بشكل متقطع ، وقد غرقوا في الخمر . أطاق صفيراً مكتوماً لم يدركه سوى ذو الشعر الاحمر والوجه المجرح ، الذي اقترب من المشرب فوراً .

قال الاول :

— أتذهب معي لنستمتع في الخارج ؟

وأجاب ذو الشعر الاحمر وهو يفرقع بلسانه :

— آول رايت !

ولكنه أضاف متردداً على الفور :

— ومارتين ؟

فرد الآخر وهو يشير إلى الذين مازالوا على الطاولة :

— فليدفنوه هم . . . اذا كانوا يستطيعون ذلك !

تسللا خارجين وابتلعهما الليل . وبعد مرور وقت طويل انتبه الآخرون لغيابهما ، ولكن السكر كان متمكناً منهم ، إلى حد انهم ما عادوا يولون اهتماماً للوقت والظروف التي هم فيها .

قال أحدهم متلعثماً :

— هيا بنا . . . لندفن مارتين .

فقال الآخر :

— عندما يرجع الآخران !

وكان فوستر مايزال نائماً نوماً ثقيلاً ، ويستيقظ بين حين وآخر ليسحب يده فقط ، ويرفع بها — وهي تترنح — الكأس إلى شفتيه الذاويتين ، اللتين كانتا تنتعشان للحظات بملامسة الكحول الملتهب .

نشج أحدهم :

— يالمارتين المسكين !

وكرر الآخر مرتلاً :

— المسكين !

— اتذكر عندما دعانا جميعاً للشرب في توكوبيلا ؟

— أجل أذكر ، لقد دفع ثمن شرابنا بظرافته !

— لقد كان يعزف بالهورمونيكا التي لديه أفضل من هذه الموسيقى الشيطانية . . .

ومرت في ذهن السكارى للحظة صورة مشعل الانوار في السفينة « غاستيلو » التي لاتنسى ، لقد كان أفضل رفيق على متن السفينة ، وتذكروه وهو يبعث فيهم السعادة بهورمونيكته ،أو في تلك المناسبات، عندما لم يكن يمالك سنتاً واحداً في جيبه ، في أي بار من بارات أحد الموانىء ، حيث كان يخرج للرقص مع أحد رفاقه ، وهو يعزف الهورمونيكا مع ايقاع حقيقي من ملعقتين متعاكستين بين الأصابع ، ويضبطان ايقاع الرقص بالرأس ، بالجبهة ، بالجذع ، في رقصة وحشية وغريبة . وبعد اداء الرقصة التي تبعث الضحك في الزبائن ، كان مارتين ينحني محيياً ، فيدعى في الحال ليحل ضيفاً على جميع الموائد، ولكنه هناك لايستطيع ان يشرب دون مشاركة رفاقه المقربين...

– أتذكر غرق السفينة ماريا كريستينا ؟

– عندما خلع صدرية النجاة وألبسها لفوستر . . .

– لينقذه من الغرق ، لانه كان عجوزاً أكثر منه . . .

– وكاد أن يغرق وهو يضرب بذراعيه في البحر دون قميص نجاة...

– وهاهو العجوز الوغد ينام ، دون ان يكلف نفسه عناء دفن من أنقذ حياته . . .

– ونحن أيضاً . . .

– وهذان الخائنان اللذان ذهبا ولم يرجعا بعد . . .

– لاأحد . . . هيب . . . ، هب . . . انها لدنيا كلبة . . . مايكاد المرء يدير ظهره حتى ينساه الجميع ولايذكره أحد . . .

نشج أكثرهما سكراً وقـــد امتلأ وجهه بدموع كثيفة ، وأضاف مابين التفجع والبكاء :

– بالمارتين المسكين ! ... « اذا التقى الاخضر بالاخضر، والاحمر التقى بالاحمر، فلن يضيع شيء حينئذ، وكل سيتابع طريقه . . . »

أخذت صفارة احدى السفن تثقب الليل المتقدم بصوت متقطع ومكروب ، وسمع الصوت داخل الحانة، أعلى من الصخب والموسيقى . لقد كان نباحاً فيه شيء من صوت بشري يأتي من الفضاء الفسيح ، كان صوتاً زاعقاً ، مؤثراً . لقد كانت صفارة « غاستيلو » ، تطالب ببحارتها الخمسة الذين نزلوا إلى البر في مهمة رحمة . . .

– هيا . . . ، أيها البحارة . . . ، هنالك سفينة تنادي بحارتها منذ نصف ساعة ! . . .

هكذا هتف صاحب الحانة وهو يهز اثنين من البحارة الذين اغفوا على الطاولة التي جلسوا إليها في الساعة الخامسة .

لقد كلفه ايقاظهما جهداً كبيراً . ولحسن الحظ انه استطاع ايقاظهما في نفس اللحظة التي عادت بها صفارة السفينة إلى اطلاق حسراتها المكروبة والطويلة ، منادية من جديد على بحارتها ليلتحقوا بها قبل ان يحملها المد إلى مخرج المضيق .

وفيما هما يفركان عينيهما ، تعرف البحاران في الصفير المتقطع على صوت صفارة « غاستيلو » .

– انها هي ، سفينتنا !

وقال الآخر :

– انها تنادي للاسراع !

فتساءل أحدهما وقد جلا عنه النعاس قليلاً :

– ورفاقنا ؟

ورد عليه صاحب الحانة :

— لقد ذهبوا . . . منذ عدة ساعات . . . ، بحثاً عن وسائل أخرى للمتعة !

— وفوستر أيضاً ؟

— ومن هو فوستر ؟

— الاثنان الآخران ذهبا بحثاً عن نساء ، أما فوستر ، العجوز ، فيجب ان يكون معنا !

— آه ! —. . . العجوز ، أجل ، رأيت انه بقي معكم ، ولكنه اختفى منذ فترة من الوقت . . . لابد انه كلما أصبح أكبر سناً ازداد حباً للنساء !

وفي هذه اللحظة أخذت صفارة « غاستيلو » تنادي من جديد ، بصفيرها المتقطع ، على رجالها الذين ابتلعتهم البالمة ، فانطلق آخر زبونين في حانة هامبورغو ، وهما يضعان قبعتيهما على عجل .

واصطدما في الخارج بالليل ، لكن اللسعات الثلجية التي كانت تخرج لهما من الظلمات صفعت وجهيهما وانتزعتهما من السكر قليلاً .

فقال أحدهما، وقد تذكر بغتة التابوت الذي تركوه على الارض:

— ومارتين ؟

فهتف الآخر ، بصوت كأنه صدى لهذا الترتيل الثمل :

— لن ندفنه . . . !

— فلنصمت اذن . . . ، ولنتفق مع الآخرين في الزورق .

ورد الآخر :

— سيدفنه أحدهم غداً عندما يجلبونه !

واختفيا كظلين أكثر قتامة من الليل ذاته ، باتجاه الميناء .

ولكن أحداً من الميناء لم يجد أي تابوت في اليوم التالي ، لأن الثلج قد هطل طوال الليل مكوناً طبقة ارتفاعها حوالي متر من السماكة غطت ببياضها كل الاشياء ، وكان الثلج مستمراً بالهطول . كان متقطعاً ، ولكنه غزير بشكل لايسمح لأحد بالتفكير في البحث عن توابيت على أرصفة الشوارع في ذلك اليوم ، بل لافي ذلك اليوم ولافي الايام الاخرى التالية التي كانت ترسخ من متانة الطبقة الثلجية . . .

وبدا ماحدث كما لو ان مشعل الانوار مارتين قد عاد إلى البحر من جديد ، بعد مماته ، مثل أرواح أولئك الغرقى الذين يلاحقون آثار مخور سفنهم في الماء أو آثار من سببوا لهم العذاب في الحياة أو في ساعة مماتهم .

وفي ساعة متأخرة من صباح ذلك اليوم ، بدأ دون ايريكو ، صاحب حانة هامبورغو ، بتنظيف محاله ، وقد أصيب بالذهول عندما وجد وراء مجموعة من البراميل ، في حجرة مجاورة لمرحاض الحانة ، بحاراً عجوزاً أشيب ، لايزال نائماً بعد السكر .

فقال له وهو يوقظه بمقدمة حذائه :

— وأنت ؟

وأجاب فوستر متاعثماً ، بينما هو ينهض على قدميه ويفرك عينيه دون أن ينتبه بعد إلى المكان الذي هو فيه :

— أنا ؟ . . . أنا من بحارة « غاستيلو » . . .

— من السفينة التي نادت على بحارتها طول الليل ؟

— أجل ! . . .

ثم أضاف متلعثماً :

– هل ذهب . . . رفاقي . . . وتركوني ؟

– الآن تذكرت ، لقد سألوا عن شخص يدعى فوستر ! هل أنت فوستر ؟

– أجل ، أنا فوستر !

فقال دون ايريكو بلا مبالاة ، وبقهقهة بهيمية :

– وأنا الذي قلت لهم بأنك ذهبت مع الآخرين ...، بحثاً عن النساء!

– والسفينة ؟

– لقد أصبحت بعيدة ! فليس هنالك سفينة تنتظر بحاراً !

فدمدم فوستر وهو يفتش جيوبه بحثاً عن نقود :

– أعطني كأس جن من فضلك !

– لقد كنت بحاراً فيما مضى أيضاً ! وأبحرت خلال سنوات عديدة في السفينة « هاباخ » ، وقد تركتني السفينة أكثر من مرة وكنت أعود لألتحق بباخرة اخرى !

توقفت أسنان فوستر عن الاصطكاك بتأثير الجن ، فقد كان مخدراً بفعل برد الليلة الماضية ، وبعد ان استعاد تماسكه بكأس اخرى ، اتجه إلى الميناء .

قال له دون ايريكو محذراً :

– لاتخرج ، فالثلج يهطل بغزارة !

فأجاب :

– ليس مهماً ، فربما لاتزال السفينة هناك .

ورد عليه صاحب الحانة :

– لو انها كانت هنا لأطلقت صفارتها من جديد .

ومع ذلك ، نزل فوستر إلى الميناء ليتفحص الخليج المختفي وراء ضبابة من الثلج المتساقط ، وليجد هناك فقط زوارق مربوطة بقيودها ، ومراكب ساحلية ، وسفينة أو اثنتين من سفن شحن الصوف التي تأخرت لأمر ما . لم تكن الـ «غاستيلو » في أية ناحية ، ولا بد انها الآن في طريقها للخروج من المضيق ، متجهة إلى افريقيا ، ثم إلى أوروبا بعد ذلك ، وإلى البحر الأبيض المتوسط ، في رحلاتها الطويلة . وكما سمع كثيراً فان هذه هي الرحلة الأخيرة للسفينة ، فهي قديمة جداً ، وقد صدر أمر بمنعها من الابحار . لابد ان أحد تجار هيا كل السفن سيقتنيها ليفككها ويستغل بعض قطعها . . . قلبه المحزون انشق وكأنه طعن بخنجر . . . فاذا هو لم يلتق بالسفينة « غاستيلو » في ميناء آخر من موانىء العالم، أو اذا ما فككوها كما هو الاحتمال الاكبر ، فأين ستنتهي النقود التي خبأها مارتين في أعلى الصاري الأمامي، تحت أحد المصابيح ، بجانب سطح الصاري ؟ من هو المحظوظ الذي سيكون سيد هذا الكنز الصغير الذي اقترف من أجله أحقر عمل في حياته ، عندما لم يناول رفيقه كأس الماء والدواء في لحظات احتضاره ؟

كان ذلك في منطقة القنالات ، بعد قليل من اجتياز ممر ابيسمو ، عندما أحس مارتين بأن حالته تسوء وناداه ليكشف له عن المكان حيث خبأ مدخراته خلال سنوات ابحاره في السفينة « غاستياو » ، وهو المال الذي كان يفكر ان يتقاعد به ويعود إلى القرية التي نشأ بها ، في الاراضي

الداخلية من منطقة بونتي فيردى ، حيث مازالت تعيش أمه العجوز ، التي ستتحول إليها هذه المدخرات الآن . انهم يعرفونها في مركز قيادة شرطة « بيغو » لانها كانت تذهب إليهم لتتسلم المبالغ الشهرية التي اعتاد ابنها ارسالها إليها ، وهناك يستطيع فوستر ان يترك لها المدخرات ، ولكن اذا ما اتيح له بعض الوقت ، فمن الافضل ان يمضي بنفسه إلى القرية ليسلمها النقود . لقد كانت هذه هي رغبته الوحيدة والاخيرة !

ومنذ هذه اللحظة بدأت تبرز بداخل فوستر ، ببطء ولكن بتساطء، قناعة ما . وقال لنفسه : « ماهذا ؟ أيمكن أن أكون شريراً إلى هذا الحد ؟ لقد قام على العناية بمارتين خلال مرضه ، ولكن بعد ان كشف له السر ، أخذ شيء مريب يشوش كل ما يفعله مع المريض . فأصبح يعرض عنه ، بل واجتاحته رغبة جامحة في أن يموت بأسرع مايمكن حتى يتوقف عن هذا الغش الكثير . . . ولماذا يريد له الموت بعد كل شيء ؟ أمن أجل المال الذي في أعلى الصاري ؟ لا ! لايمكنه ان يكون شريراً إلى حد الاستيلاء على هذا المال ، الذي ادخره الآخر لنفسه ولعجوز بائسة !

واخيراً . . . سيرى ما الذي سيحدث لهذه النقود . . . لابد أن يوصل شيئاً منها إلى يدي العجوز . . . ، لانه كان مالاً وفيراً يكفي له ولها .

ارتعش وهو يكتشف في نفسه ، للمرة الثانية، هذا الخاطر المشؤوم! أهو شرير إلى هذا الحد ؟ واذا ماكان شريراً جداً هكذا في الواقع ، ولم يكتشف نفسه إلا الآن أمام هذا الحدث ، أمام هذا الامتحان من القدر فلماذا لايحتفظ بكل المال ويعتزل إلى الابد العمل في هذه السفن القديمة ، التي تتخذ لها مسارات مريبة وتحمل على متنها شحنات أكثر ريبة ، إلى حيث تنتهي رذالة الموانىء ؟ المال هو كل شيء في الحياة وهاهي فرصته !

أهذا ماجعله يتردد كثيراً ، أثناء احتضار مارتين ، عندما أراد اعطاءه كأس ماء مع الدواء الذي طلبه منه بالحاح يائس ! ألم يكن كأس الماء هذا يعني الاستمرار في الحياة لبعض الوقت ! ومن يدري اذا ما كانت الحياة كلها . . . . ، فمن ذا الذي يعرف نوايا الرب ؟

ومع ذلك ، فقد تباطأ في تقديم كأس الماء والدواء له ، كما لو أن قيداً لامرئياً كان يعوقه ، مكبلاً قدميه .

حتى ان مارتين نفسه تنبه إلى نوايا صديقه ، وعندها كان ان وجه مشعل الانوار تلك النظرة الغريبة إلى زميله الشرير . لقد كانت النظرة الاخيرة ، نظرة لحظة الموت ، لكن بريقها غمر القمرة ، وعبق في الجدران ، ولم تدعه ينعم بعدها ولو بالنوم .

بهذا البريق الذي من رعب وكراهية ، انتقلت تلك النظرة إلى الخلود ، وبقيت في الجو كنفحة أخرى من نفحات الألم أمام الشر الانساني . وبدأ يلفه هواء متخلخل أينما حل منذ اليوم الذي مات فيه مارتين ، وسواء أكان يدير ذراع دفة السفينة أم كان يكشط الطلاء في الخارج ، فقد كانت تعبق منه دائماً بقلق غريب .

وفي ساعة الهجران القاسية هذه ، عندما تأكد له بشكل حاسم ابحار السفينة « غاستيلو » مع كنزه الصغير المخبأ في أعلى الصاري إلى بحار أخرى ، أصبح الجو أكثر تخلخلاً ، بالرغم من الثلج المنهمر ، الذي كانت أزهاره البيضاء تأتي متعددة لتلامسه ، وكأن أحداً من بعيد يحاول التعرف على الرجل . . . ، متفاجئاً ان بامكانه ان يبادل نفسه فجأة بانسان آخر ، بهذا الشكل وبهذه . . .

انطلق فوستر يتسكع في الميناء كشبح يبحث عن شبح آخر . . .

وشيئاً فشيئاً راح يتنبه برعب إلى ان الخرافة البحرية آخذة بالاكتمال فيه وانه هو نفسه من كان يحمل الشبح الآخر في داخله .

الضياع ، الهجران ، عدم امتلاك المال ، ضاعفت كلها من تأنيب الضمير وأحدثت أثراً في سنوات حياته . واحتفظ بالسر وهو يضمحل ، فلم يسأل أحداً ولم يخبر أحداً بالقضية الغريبة للتابوت الذي كان يبحث عنه باجتهاد . . . لقد توالت الاحداث بشكل جعله يجهل تماماً المكان الذي ترك رفاقه التابوت فيه . ثم بعد ذلك ، تلك السكرة . . . ، حسناً ، لقد كانت تلك السكرة هي السبب في كل ما تلاها . . .

أين هي جثة مارتين ؟ أتكون قد انزلقت بشكل سحري على منحدرات ثلجية، وعادت إلى البحر من جديد، كي لاتتركه يحيا بسلام؟ أتكون روحه قد اندمجت في روحه شاطرة اياها إلى روحين وباعثة فيها الألم ، بينما لايزال جسده على وجه الارض أو هائماً في الاعماق البحرية ؟

استقصى في المقبرة بتكتم ، ولكن أحداً لم يفده بشيء . ولم يكن دون ايريكو ، صاحب الحانة ، يعرف شيئاً كذلك . الجميع كانوا يجهلون هذا الحدث السحري .

أصبحت حياته ضيقاً لايطاق. وهام مثل متسول من باب إلى باب، يشعل المواقد في الصباح بالمطاعم والحانات مقابل كسرة من الخبز أو كأساً من الخمر . ثم لم يعد بمقدوره بعد ذلك حتى الاستمرار في اداء هذه الأعمال البيتية التافهة ، فغاب عنه الكحول الذي كان يقيم أوده .

وفي صباح أحد الايام عثروا عليه متجمداً في مغارة صغيرة كونتها عوامل الحت في أحد الجروف القائمة خارج الميناء ، في الجهة الشرقية من البلدة . كانت سحنته تحمل ملامح جميع من يتجمدون ، وكانت عيناه

المفتوحتان ، الثابتتان ، تنظران بحدة نحو الشرق ، نحو مصب المضيق الذي تضيع في أفقه صواري تلك السفن القديمة المتشردة في البحار ، والتي تمر عرضاً في الميناء أو تدخله اذا كانت تريد اصلاح عطل ما أو انزال مريض إلى البر فقط .

وأتى مايسمى «صيف سان خوان القصير» ، فضاعفت شمس الجنوب من حرارتها لبضعة أيام ، مذيبة طبقات الجليد السميكة التي كونتها العواصف السابقة . وفي أحد الشوارع الخارجية ، المؤدية إلى المقبرة، ظهر في أحد الايام صندوق ميت غريب الشكل ، مطلي باللون الأخضر وفيه جثة متجمدة . لقد اثارت هذه اللقية السلطات ، فقامت الشرطة باجراء التحريات ، وتشريح الجثة ، ولكن أحداً لم يتوصل إلى أي شيء مؤكد .

ميكي وحده ، الابن نصف المجنون لصانع الحلوى ، عندما رأى التابوت وهم يخرجونه من حجرة الجثث لينقلوه إلى المقبرة ، حمل قبعته في يده وأنزلها إلى أحد جانبيـــه ليرافقهم ، وحاول أن يقول شيئاً ، فأشار بأصابعه الخمسة ، وهز يديه كما يفعل البحارة ، وأشار إلى التابوت بالحاح ، ولكن أحداً لم يفهم انه بهذه الايماءات إنما يريد ان يقول لهم : « **خمسة بحارة وتابوت أخضر** » .

ترجمة : صالح علماني

انتونيو سكارميتا

« تشيلي »

* ولد انتونيو سكارميتا في مدينة انتوفا غاستا (تشيلي) عام ١٩٤٠ .

* درس الفلسفة ، ثم المسرح في جامعة تشيلي ، ودرس الادب في جامعة كولومبيا في نيويورك حيث تخرج منها ببحث حول الكاتب الارجنتيني خوليو كورتازار .

* عمل استاذاً في جامعة سنتياغو دي تشيلي .

* اضطر لمغادرة وطنه بعد الانقلاب الفاشي الذي اطاح بحكومة الوحدة الشعبية عام ١٩٧٣ ، وهو يعيش في المنفى منذ ذلك الحين .

* يقوم حالياً بتدريس مادة الادب الأميركي اللاتيني في المانيا الاتحادية . وهو يمارس في الوقت ذاته كتابة السيناريو السينمائي والقصة القصيرة والرواية وقصص الاطفال .

* نال عدة جوائز أدبية في تشيلي ، كما حصل على جائزة « كاسا دي لا س اميركاس » عام ١٩٦٩ عن مجموعته القصصية « عار على السطح » .

* من اعماله الادبية :

- الحماس قصص قصيرة ١٩٦٧
- عار على السطح قصص قصيرة ١٩٦٩
- أيها الأولاد ، لقد ضيعتم أجمل وردة ١٩٧٦

المخابرة

وصل الصوت إلى اسماعه عندما حاذى نهاية سور الثانوية . وعلى الرغم من انه لم يستطع التكهن بمن ناداه منهما ، الا انه أدرك على الفور أنهما شرطيان .

وبينما كانا يقتربان منه تلمس برسغ يده اليمنى جيب السجائر ، وأحصى بشكل تقريبي الكمية التي استهلكها منذ الصباح .

اضطر إلى نقل الحقيبة والمعطف الواقي من المطر إلى اليد الاخرى ليرد المصافحة ، وقيام الشاب بمصافحته بحرارة تجاوزت لباقة المهنة لم يجعل الاستاذ يشك في توقعاته . وتمنى في اللحظـــة التي كان فيها الشاب الاجرد يتفحصه بدقة ،لو رأى طلابه في الحشد الخارج من باب المدرسة . لكن الفضول الذي راوده بهذا الشكل دفعه إلى التفكير باحتمال الخطأ في توقعاته ، فما ان حرر الشاب يده حتى استلمها الآخر ، الحليق والذي كان يزين ياقته بشريط شبيه بالذي يحيط بالقبعات .

– الرقيب لوبيث – صرح أصغرهما سناً وهو يحملق في عينيه وكأنه يؤكد بأن حفلة الابتسامات والمصافحة انما هي رمز ، ولاريب ان الاستاذ أصاب في حدسه . فقال المدرس وقتئذ :

– أيها السادة ، سبق وكنت موقوفاً لمدة شهر ، وقد أطلق سراحي لانعدام الادلة .

– أجل ياأستاذ ، بالطبع – قال الشاب الاجرد محركاً يديه بلا مبالاة ومضيفاً ابتسامة ربطها بايماءة من فكه الاسفل وحاول ان تكون موحية بالتفهم . وخلال الصمت الذي تلا عبارته حافظ على ابتسامته، مرهفة كمطواة ، بينما صلب رقيب الشرطة ذراعيه ووجه بصره نحو حركة السير في شارع « الاميدا » .

– ألا تذكرني ياأستاذ ؟

عاقداً حاجبيه ، حاول الاستاذ اصطياد شيء ما مألوف في ذلك الوجه الممسوح، اصطنع التفكير وهو يتلمس جيب السترة بحثاً عن النظارات، فوجه يمناه صوب القلب ناوياً اخراجها ، لكن الحركة بدت مهددة فلم يستطع الرقيب ملاحظتها دون انتباه متوجس ، فقال المدرس :

– النظارات .

كانت تزعجه الحقيبة الجلدية والمعطف فاضطر إلى الانحناء كالمريض ليضع نظارتيه فوق أنفه ، ثم عاد ليتوقف في فراغ سحنة محدثة .

– هيا، ياأستاذ – بادره هذا مشجعاً بايماءة جد ايطالية – لاتحرجني.

فضغط الاستاذ منخريه بامعان :

– طالب ، أليس كذلك ؟

فألقى الشاب بصره منشرحاً باتجاه الرقيب وأشار بالايجاب بينما عيناه مازالتا تستحثان المدرس .

– أقدر ، بالاعتمادعلى العمر ، انلك من السنوات الخمس المنصرمة .

– بالضبط ، تخرجت في السبعين .

– السبعين – كرر المدرس التاريخ مرتبكاً من النية التي انطوت عايها لهجة العبارة التي نطقها الشاب .

خداه يلتهبان ، لاشك ان وجهه محمر وكأنه جرع نبيذاً محرقاً . وسمع نفسه يقول بتهافت :

– حدثت أمور كثيرة . أمور كثيرة، ثم ان المرء يشيخ والذاكرة...

– فوينيتس – قاطعه الآخر لحظة – ميغيل فوينيتس ، رقم ١٧ .

فهمس المدرس :

– بالطبع . فوينيتس ، فوينيتس .

– تعين على في الامتحان تحليل قصيدة لـ « نيكانوبارا » وكنت تقول دوماً إنني أشبه شخصية تلك القصيدة .

بالشعر الاستاذ . . .

– آه . أجل : أجل . . . وكيف لا ؟

– وكنت في الصف الذي أهداك أعمال نيرودا الكاملة في نهاية العام الدراسي . كانت مغلفة بالجلد ومطبوعة على ورق انجيلي رقيق .

– أذكر ذلك . اذكره بالطبع .

– وكان شيئاً جميلاً – لاننا جميعاً وقعنا على الصفحة الأولى ، أتذكر هذا ؟

- وكيف لا يافوينيتس ؟ كيف لا ؟

هز الرقيب رأسه موافقاً ، وكأنه يشهد بصحة ذكريات المدرس . لكنه ، في الوقت نفسه كان لاهياً ، وربما راغباً في ركوب باص ينقله إلى ملعب سباق الخيل أو إلى استاد « سانتا لاورا » .

أحس المدرس بكاحليه لزجين ، كثيفين ، وكانه يغرق في اسفلت عسلي . وعند حلول الصمت الثاني كاد يقدم يمناه مرتين اشارة لضيق الوقت ولينهي اللقاء، لكن تبادل النظرات بين الرقيب والشاب الاجرد- شبيهة بنعرات المرفق ، اشارة غير بينة - منعته في المرتين ، وقد غدت اللباقة في منتهاها أكثر ايحاء بالتوقعات ، عمياء وغير محددة .

فبادر المدرس قائلاً :

- حسناً ؟

- ومات نيرودا - قال فوينيتس وهو يطيل اللفظ ، لاوياً رقبته ، ثم أكمل :

- من كان يتوقع ذلك ؟ شاعر مجيد للغاية . أليس كذلك أيها السيد ؟

- مجيد للغاية ، أجل ، مجيد للغاية .

- وحائز على جائزة نوبل كذلك .

لاحظ المدرس العجوز انذاراً في زاوية فم الشاب ففكر « دخنت خمس سجائر في الفصل وواحدة في الباحة ، باقي أربع عشرة ، أربع عشرة لاغير » واستبق تقنية الهجوم : انهم سيضعفون من الدفاع في البداية ، ثم يجسون فيجرحون ، يجرحون ، فتأتي النهاية « ثلاث عشرة » فكر عندما رفع الرقيب يده ليشعلها ، - لقد سبق لي ان اوقفت ، -

زفر المدرس لافظاً الدخان ــ واجروا معي تحقيقاً . لم يجدوا أدلة يا فوينيتس .

ــ أجل . انني أعرف ذلك ياأستاذ . وكيف لاأعرفك وقد كنت مدرسي لسنة كاملة .

كان قد وضع يده اليمنى على قنبه علامة الصدق ، وتعبيراً جديداً ، متكلفاً ، في ذقنه .

ــ انه أمر روتيني بحت . وليس هناك مايدعو للقلق . انني أقوم مع الرقيب بجولات هنا وهناك بين الفينة والاخرى ، وليس ثمة مشاكل معلك ياأستاذ . أليس كذلك أيها الرقيب ؟

ــ لامشاكل .

قدم الشاب الاجرد يده وهو يلقي نظرة صادقة ــ باسلوب نظرة صادقة ــ وعندما ضغطت كفه باطن يد المدرس العجوز وضع فوقهما يده اليسرى باخوة ــ باسلوب أخوي ــ أما الرقيب فلم يقل سوى : « فرصة سعيدة » . نقل المدرس حقيبة الواجبات المدرسية إلى ابطه الايمن وهو يعبر الشارع ، وراح يجفف عرق اليدين عاصراً المعطف الواقي من المطر .

في مقهى « انديانا بوليس » ضغط الفيشة اللدائنية الصفراء قبل ان يبدلها بفنجان قهوة . حركها شارداً داخل قبضته وكأنها نرد . ناول عاملة الصندوق على الفور قطعه نقدية وتحشرج صوته عندما طلب فيشة للهاتف ، علق معطفه هناك وأسند الحقيبة .

قبل ان يقرر تذوق القهوة ، حرك طويلاً الملعقة في الفنجان دون ان يضع فيه السكر ، ولدى اقتراب الفنجان من فمه غبش البخار زجاج

نظارتيه ، فجرع الرشفة الاولى مطبقاً جفنيه بشدة . وما ان أخرج منديله ليمسحها حتى أدار جسده قليلاً نحو اليمين فرأى الرجل البدين جالساً على بعد متر واحد منه وهو يرمق صفحة سباق الخيول في « الاخبار الاخيرة » .

انتهى من مسح الزجاجتين ثم رفعهما باتجاه نور الشمس الذي يتخلل ستائر تبغية اللون باهتة وأكمل مسح احدى الزجاجتين مزيلاً ذرة غبار كانت عالقة بالقرب من الاطار .

عندها ، أفرغ جرعة واحدة ما تبقى من القهوة ، ولانه شعر بثقة مطلقة في فراسته ، أخذ المعطف والحقيبة ولم يستخدم الهاتف .

ترجمة : عاصم الباشا

ماتشادو دي اسيس

" البرازيل "

* ولد جواكين ماريا ماتشادو دي اسيس في ريودي جانيرو عام ١٨٣٩ ، لاب مولد يعمل نقاشاً وام برتغالية تعمل غسالة ، وتوصل لأن يكون الكاتب البرازيلي الأكثر أهمية وتمثيلا لحقبته .

* لم يتلق في المدارس سوى التعليم الابتدائي ، أما ثقافته الاخرى فقد حصلها عن طريق التعليم الذاتي .

* بدأ حياته العملية كعامل مطبعة ، ثم مالبث أن عمل محرراً في صحيفة من صحف الريو . وفي هذه الفترة (عام ١٨٦٤) اصدر أول دواوينه الشعرية بعنوان « فراشات الشرنقة » .

* عمل موظفاً حكومياً ، وتقلب في عدة وظائف إلى ان أصبح مديراً عاماً للمحاسبة في وزارة المواصلات عام ١٩٠٢ .

* أصدر أولى مجموعاته القصصية عام ١٨٧٠ .

* توفي ماتشادو دي اسيس في التاسع والعشرين من ايلول عام ١٩٠٨ . وكان يعاني عدة أمراض، لعل أكثرها تأثيراً على حياته وشخصيته هي نوبات الصرع التي كانت تنتابه .

* من أبرز أعماله الادبية :

– مذكرات بلاس كوباس	(رواية)	١٨٨٢
– كونكاس بوربا	(رواية)	١٨٩١
– دون كاسمورو	(رواية)	١٩٠٠
– قصص منتصف الليل	(قصص قصيرة)	١٨٧٣
– عدة قصص	(قصص قصيرة)	١٨٩٦

الدبـــلوماسي

دخلت الخادمة الزنجية إلى صالة الطعام ، واقتربت من المائدة التي كانت محاطة بالناس ، ثم أسرت بكلمات إلى السيدة . يبدو انها طلبت منها أمراً مستعجلاً ، لأن السيدة نهضت على الفور . |

— هل ننتظرك أيتها السيدة اديلايدا ؟

— لاياسيد رانجيل ، سأعرد حالاً .

رانجيل هو الذي كان يقرأ في كتاب الحظ . قلب الصفحة وقرأ : « فصل حول من يحبك سراً » . انتشرت حركة عامة ، وتبادل شبان وفتيات النظرات باسمين .

كانت ليلة عيد سان جوان ، عام ١٨٥٤ ، في بيت من بيوت مانغيراس. وكان اسم صاحب البيت جوان فيغاس وله ابنة اسمها جوانا. وقد اعتاد الاحتفال بهذا العيد كل عام بين جمع من الاقارب والاصدقاء.

كانوا يشعلون في الحديقة موقداً لشواء البطاطا ، ويعقدون في بعض الاحيان حلقة للرقص أو يقومون بتبادل الأنخاب ، إضافة إلى قراءة الحظ . . كل شيء كان عائلياً .

ويقول جوان فيغاس الذي يعمل كاتباً في احدى المحاكم :

ـ لنر ، من سيبدأ الآن ؟ يجب ان تكون السيدة فيليسا . لنر ان كان هناك من يحبها سراً .

ابتسمت المعنية. انها سيدة اربعينية لا تملك شيئاً ثميناً، وليس لها أي دخل ، وهي تمضي ، تحت مظهر الورع ، محاولة اصطياد زوج لها. لقد كانت ظرافتها في الحقيقة شيئاً قاسياً، ولكنها طبيعية . انها النموذج المثالي لتلك الكائنات التي تبدو وكأنها خلقت لبعث المرح في الآخرين ؛ ألقت بالنردين ، و . . . صوتان صرخا معاً : رقم عشرة !

وقرأ رانجيل :

ـ أجل ، ثمة شخص يحبك ، ويجب ان تبحثي عنه في الكنيسة ، عند ذهابك للصلاة يوم الاحد .

جميع من كانوا حول المائدة هنأوها ، وابتسمت هي بأنفة ، مع أنها كانت تحتفظ في أعماقها بالأمل .

التقط آخرون النردين ، وقرأ رانجيل لكل منهم حظه . كان يقرأ بسرعة ، وبين الفينة والفينة كان ينزع نظارته وينظفها بطرف منديله الكتاني ، أو يستنشق رائحة عطر الورد الناعم الذي يستخدمه . لقد كان رانجيل شديد الاعتداد بنفسه وكانوا يطلقون عليه لقب « الدبلوماسي » .

ـ هيا أيها السيد الدبلوماسي ، استمر .

اهتز رانجيل ، ثم نسي قراءة أحد الحظوظ وهو يتأمل الفتيات الملتفات حول الطاولة ، أيحب احداهن ؟ . . فلنمض جانباً .

كان رانجيل عازباً ، نتيجة لاحداث وملابسات وليس لميول طوعية . كان قد مارس في شبابه الحب على النواصي ، ولكن شعور العظمة

استولى عليه فيما بعد ، وكان هذا أحد الاسباب التي جعلته يبقى أعزباً وهو في الاربعين ، وهذا هو سنه يوم الحفلة في بيت جوان فيغاس .

كان رانجيل يطمح للزواج من امرأة أعلى منه مقاماً ومن وسط أرقى من وسطه ، وقد أمضى عمره بانتظارها . وأصبح يرتاد حفلات الرقص التي يقيمها محام مشهور وثري كان يستنسخ له أوراقاً . وفي هذه الاجتماعات في بيت المحامي كان رانجيل يمضي الليل متنقلاً في الممرات ، مسترقاً النظرات إلى الصالون ليرى السيدات عند مرورهن ، ملتهماً بنظراته ظهورهن البديعة وقدودهن المثالية . كان يحسد الرجال الآخرين ويحاول تقليدهم . وكان يخرج من تلك الحفلات حانقاً وأشد اصراراً .

عندما لم تكن هنالك حفلات رقص ، كان يذهب إلى الاحتفالات الدينية ، حيث يتأمل بنظره بعض أهم سيدات المدينة ، أو يهرع إلى سرادق القصر الملكي في أيام المناسبات الاحتفالية ليرى دخول السيدات ذوات الشأن وشخصيات البلاط الهامة . وكان يرجع من هذه الاحداث دائماً كما يرجع من حفلات الرقص عند المحامي : هائجاً ، ومندفعاً ، وقادراً على انتزاع الامجاد بضربة حظ واحدة .

لكن السيء في الأمر هو ان « جدار الشاعر » كان ينتصب عادة مابين اليد والسنبلة ، ولم يكن رانجيل من الرجال الذين يقفزون جدراناً . لكنه في الخيال كان يفعل كل شيء : يختطف نساء ، ويدمر مدناً . . بل لقد رأى نفسه في أحد الايام وزيراً للدولة ، وفي يوم آخر ، لدى عودته من عرض عسكري ، نصب نفسه امبراطوراً .

وعندما أتم الاربعين من عمره ، كان قد خدع نفسه بأحلام من هذا النوع ، ولكنه في أعماقه كان هو نفسه . ورغم حديثه الكثير عن الزواج

فانه لم يجد عروساً ، مع أن أكثر من واحدة كانت ستوافق على الزواج منه بكل سعادة . لكنه بسبب من البروتوكول والاحتراس كان يفقدهن جميعاً .

وفي أحد الايام ، تأمل جوانا ، ابنة جوان فيغاس . وكان لجوانا عينان رائعتان هادئتان – عذراوان من أية علاقات ذكرية – ، وتسعة عشر عاماً من العمر . لقد حماها على كتفيه وهي طفلة لتتفرج على الألعاب النارية . فكيف سيتحدث إليها عن الحب الآن ؟ ومن جهة أخرى ، كانت صداقته بأهلها على مستوى يمكن ان يسهل له أمر الزواج . وتوصل رانجيل في النهاية إلى نتيجة : اما جوانا أو لاأحد .

لم يكن الجدار عالياً هذه المرة ، والسنبلة كانت قريبة . كان يكفي أن يمد ذراعه ليصلها . ومع ذلك ، فان رانجيل كان منهمكاً في الامر منذ شهور ، فهو لايمد ذراعه دون ان يتلفت ليرى اذا ما كان أحد قادماً ، واذا ما رأى أحداً فانه يداري الامر ويمضي مبتعداً . وكلما مد ذراعه قليلاً حدث شيء ما : فاما ان الريح تحرك السنبلة ، أو ان عصفوراً يقترب منه . وكانت هذه الاشياء كافية لجعل رانجيل ينسحب مبتعداً .

بهذه الطريقة كان الوقت يمضي ، بينما العاطفة تتغلغل عميقاً في كيانه ، وتجعله يعاني ساعات طويلة من اللوعة تتلوها أجمل الآمال .

لقد أعد اليوم رسالته الغرامية الاولى . وكان مصمماً على تسليمها اياها ، ومع ان فرصتين أو ثلاث فرص مناسبة قد سنحت له ، فانه كان يؤجل اللحظة . وهاهو ذا الآن، والرسالة في جيبه، يقرأ في حفلة جوان فيغاس لعبة الحظ بوقار عراف .

ثمة سعادة مخيمة على الجو . الجميع سعداء ، يتهامسون ويضحكون أو يتحدثون في وقت واحد . العم روفينو ، ظريف العائلة ، كان يمشي حول الطاولة وهو يدغدغ آذان الفتيات بريشة في يده . وجوان فيغاس ينتظر متململاً أحد أصدقائه الحميمين الذي لم يحضر بعد . انه كاليكستو . . أين هو الآن ؟

— افسحوا ، افسحوا ، اني بحاجة للطاولة ! فلنذهب إلى صالة الاستقبال .

انها دونيا اديليدا ، التي عادت وهي تريد اعداد مائدة العشاء الآن . خرج الجميع وكان ذلك الوقت هو أفضل وقت لرؤية كم هي ابنة صاحب البيت ، جميلة. رافقها رانجيل بعيني عاشق واسعتين . ذهبت إلى الشرفة للحظة ، بينما كان الآخرون يلعبون لعبة الحصال ، وتبعها . هذه هي اللحظة المناسبة لتسليمها الرسالة !

في أحد البيوت المقابلة كان ثمة أناس يرقصون . نظرت إليهم ، وفعل هو ذلك أيضاً . كانت هناك نساء مترفات ورجال أنيقون، رقيقون، بعضهم يضع أوشحة . وكان يلمع بين لحظة واخرى اكليل مامي ، أثناء الدوران الراقص . لقد كان رانجيل يعرف جيداً كل شيء عن تلك الحفلات ، وكان يروي مايعرفه لابنة جوان فيغاس مضيفاً إليها بعض التفاصيل التي لايمكن رؤيتها من خلال النافذة ، لكنه كان يخمنها أو يحزرها . لقد عاد شيطان العظمة ليسيطر على فؤاده . فقال ملمحاً :

— اني أعرف شخصاً يحسن التصرف في صالونات كهذا الذي مقابلنا .

فردت جوانا بسذاجة :

— حضرتك .

ابتسم مجاملاً ولم يدر مايقول ، فراح ينظر إلى الخدم وسائقي العربات ذوي البذلات الذين يقفون في الاسفل ويتبادلون الحديث أو يستندون إلى مظلات العربات الفخمة . لم يستطع رانجيل مقاومة الاغراء باظهار أهميته ، فبدأ بتمييز العربات : هذه هي عربة اوليندا ، وتلك عربة مارانغوابي . وكانت تتقدم عبر الشارع عربة جديدة توقفت أمام البيت المقابل . فتح الخادم باب العربة وهو يحمل قبعته بيده ، وخرج منها رجل وآنستان ، ثم خرجت سيدة ترتدي ملابس ثمينة . دخلوا في الممر وصعدوا الدرج المغطى بالسجاجيد والمزين عند بدايته بدنين كبيرين من الفخار . وفكر رانجيل بتسليمها الرسالة في هذه اللحظة .

— جوانا . . سيد رانجيل !

اللعنة على هذه اللعبة ! انهم ينادونه في اللحظة التي أعد فيها في رأسه ما سيقوله لجوانا وهو يضع الرسالة بين يديها . هرعت جوانا بخفة نحو المجموعة التي تلعب لعبة الخصال . ثم لحق بها رانجيل وجاس مقابلها . كانت السيدة اديليدا ، التي تدير اللعبة ، تأخذ الاسماء . فعلى كل شخص ان يمثل نوعاً من الازهار . قارن رانجيل ، الذي لم يكن يريد الظهور بمظهر المبتذل ، في ذهنه بين أنواع الزهور ، وعندما سألته سيدة البيت عن اختياره ، أجاب بتمهل وعذوبة ورقة :

— زهرة المارافياس ياسيدتي .

وتنهد جوان فيغاس قائلاً :

— وكاليكستو لم يحضر بعد !

— ولكنه قال بأنه سيأتي .

– أجل ، وقد نبهني إلى انه سيأتي متأخراً لان لديه سهرة أخرى في شارع كاريوكا ، وقال انه لن يتخلف عن المجيء ، ولكن كان عليه ان يكون هنا الآن .

وهتف صوت قادم من جهة المدخل :

– أطلب الاذن بالدخول لشخصين .

– أخيراً ! هاقد وصل كاليكستو !

ذهب جوان فيغاس ليفتح الباب. كان كاليكستو فعلاً هو القادم، لكنه جاء وبرفقته فتى مجهول ، قدمه للجميع :

– كيروز ، موظف في سانتا كاسا . انه ليس قريبي ، مع انه يبدو شديد الشبه بي . فمن يرى أحدنا كأنه يرى الآخر .

انها احدى مداعبات كاليكستو طبعاً ، لانه كان دميماً مثل شيطان بينما كان كيروز شاباً في السادسة والعشرين من العمر ، رشيقاً ، له عينان سوداوان وشعر أسود ، أهيف القوام ، وجميع الفتيات ازورين قليلاً لدى دخوله .

قالت صاحبة البيت :

– اننا نلعب لعبة الخصال ، ويمكن للسيدين ان ينضما إلى اللعبة اذا هما رغبا . هل تود اللعب ياسيد كيروز ؟

ورد المستجوب بالموافقة ثم مضى يصافح الحاضرين فرداً فرداً . كان يعرف اثنين أو ثلاثة منهم فتبادل معهم بضع كلمات . وقال لجوان فيغاس بأنه كان راغباً جداً بالتعرف إليه ، بسبب خدمة كان قد أسداها منذ زمن بعيد لأبيه . ولكن جوان فيغاس لم يتذكر ذلك ، ولاحتى عندما قدم له كيروز كثيراً من القرائن والادلة .

انضم الزائر كيروز إلى اللعبة ، وبعد نصف ساعة أصبح كواحد من أهل البيت . كان يلعب جيداً ، ويتحدث بلباقة وخفة ظل . وكانت له تلميحات طبيعية وعفوية،ولديه قائمة كبيرة من العثوبات الظريفة في لعبة الخصال ، وهذا مافتن الحضور . لم يكن بينهم في الواقع من يحسن ادارة اللعبة مثله ، بهذا النشاط وهذه الحيوية المنقطعة النظير ، فهو يمضي من جانب إلى آخر ، عاقداً من حوله الحلقات ومتحدثاً مع الفتيات وكأنه لعب معهن منذ طفولته .

– جوانا ، قفي فيذلك الركن . وأنت يادونيا سيساريا قفي على قدميك في هذا الجانب . . ولتدخل أنت يادون كاميلو من ذلك الباب . . لا ، لا ، انظر ، ليس هكذا . . . انتبه ، بطريقة . . .

كان رانجيل ينظر إليه مبهوراً وهو يقف جامداً في أحد الاركان . أي اعصار هذا واستمر الاعصار يعصف منتزعــاً قبعات الرجال ومبعثراً شعور الفتيات اللواتي كن يضحكن فرحاً . لم يكن من أحد هنا سوى كيروز ، وهناك كيروز ، وفي كل مكان كيروز .

وانتقل الدبلوماسي من الذهول إلى العذاب : لقد سقط الصولجان من بين يديه . لم يعد ينظر حتى مجرد نظرة إلى القادم الجديد ، لكنه في أعماقه كان يسميه البذيء ، والاحمق السعيد ، والمهرج الذي يبعث الضحك والمرح في الحفلات، لانها حفلات . ولكن حتى وهو يكرر لنفسه هذه الاسباب ، وأسباب أخرى ، لم يستعد حرية روحه . لقد كان يعاني في أعماقه من اعتداده بذاته ، والاسوأ من ذلك هو ان الآخر ، بذكائه وفطنته ، انتبه لهذا الامر .

وكما كان رانجيل يحلم بالامور الطيبة ، فقد كان يحلم بالانتقام

آلام ، على الاقل ، تضطر كيروز للانسحاب حتى يترك له المجال حراً .
ولكن لم يحدث شيء من هذا ، واستمرت الصالة مذهولة بكيروز .
وحتى جوانا نفسها ، المعروفة بصمتها وانطوائها ، كانت تبدو وكأنها
تهتز مع الآخرين ، أمام الشباب ذي الست والعشرين سنة .

تكلم عن الرقص ، فطلبت الفتيات من العم روفينو ان يعزف
مقطوعة على الناي . فقال العم روفينو :

– ماهذا ! لاأستطيع ، فالجرح يؤلمني .

وقال كاليكستو :

– ناي ؟ تريدون معزوفة على الناي ؟ لاشيء أسهل من هذا .
اطلبوا من كيروز ان يعزف شيئاً وسترون كيف يكون العزف . أحضر
الناي ياروفينو .

وعزف كيروز مقطوعة « لاكاستا ديفا » .

فكر رانجيل : « أية مهزلة ! معزوفة يعزفها حتى الصبيان في
الشوارع . »

كان رانجيل ينظر إليه خفية ليراه اذا ماأتخذ وضعية رجل جدي ،
ووصل إلى نتيجة مؤداها ان الناي ما هو إلا أداة موسيقية كريهة ومضحكة.
نظر إلى جوانا ورأى انها ، مثل بقية الحضور ، مصغية باهتمام للموسيقى .
وعندما انتهى العزف ، صفقت أقل من الآخرين ، مما جعل رانجيل
يسأل نفسه ان كان ذلك بسبب طبيعتها الانزوائية ، أم بسبب شعور خاص
كانت تعانيه . . . واستعجل أمر تسليمها الرسالة .

حان وقت العشاء ، واتجه الحضور إلى صالة الطعام . جلس رانجيل إلى المائدة مقابل جوانا ، مما بعث فيه السعادة كانت عيناها أجمل منهما في أي وقت مضى ، فيهما بريق ليس هو بريقهما المعتاد انهما تتلألآن .

وانساق رانجيل في تخيلاته،إلى حد الحلم بأنه ربح جائزة يانصيب ، وانه دفع قيمتها كاملة في شراء الحرير والمجوهرات لزوجته دونيا جوانا رانجيل ، دونيا جوانا فيغاس دي رانجيل . . . دونيا جوانا كانديدا فيغاس دي رانجيل .

— نريد تقدمة منك أيها السيد الدبلوماسي . كلمة من كلماتك ، من تلك التي تحسن اختيارها .

المائدة بأسرها طالبته بذلك متفقة مع العم روفينو . ولم يجد رانجيل بداً من الموافقة . سيتحدث بعد ان ينتهي من أكل فخذ الدجاجة هذا .

وبينما هو يأكل راح يجمع بعض الذكريات ، والافكار المتفرقة، والعبارات ، ليؤلف جملاً ومجازات .

انتهي ونهض واقفاً وهو منفرج الاسارير ، متمكناً تماماً من دوره الهام : فهو سيضع حداً للمزاح والنكات واللهو ، للانتقال إلى أمر مستقيم وخطير . نظر حوله ورأى الجميع ينتظرون . . ليس الجميع بالتمام : فجوانا لم تكن تهتم سوى بالنظر إلى كيروز ، وكادت نظراته تتقاطع في منتصف الطريق مع نظراتها . شحب لون رانجيل وأحس ان الكلمات تثور في حنجرته .

في الحقيقة انه لم يتكلم جيداً . لقد قدم نخباً أهداه إلى صاحب البيت وابنته،التي اسماها رؤيا الله المنقولة من دنيا الخلود إلى دنيا الواقع .

لقد استخدم هذه العبارة ذاتها منذ ثلاث سنوات ، ولكنه خمن بأنهم لن يفطنوا لذلك . وتحدث أيضاً عن هيكل العائلـــة ، ومعبد الصداقـــة ، وعن عرفان الجميل ، زهرة القلوب الطاهرة . كان يمط الجملة في هذه العبارات الضحلة المعاني ، ويجعلها تدوي . وباختصار ، ألقى كلمة في عشر دقائق ، أنهاها ، ثم جلس .

لكن الامر لم يقف عند هذا الحد . اذ نهض كيروز في الحال ليوجه كلمة تحية . فساد الصمت من جديد . ولملمت جوانا نظراتها سلفاً ، خجلة مما كانت تظنه سيقول .

- الصديق الكبير لهذا البيت ، السيد رانجيل ، تقدم بتحيته إلى احتفال الأب وابنته اللذين نحتفل اليوم بعيدهما . أما أنا فاني أحيي تلك السيدة التي يجب الاحتفال بعيدها كل يوم ، وأعني : دونيا أديليدا .

دوى تصفيق عاصف ، وتقبلت دونيا اديليدا التهاني من الجميع .

- ماما ، ماما !

هكذا هتفت جوانا وهي تنهض . ثم مضت لتحتضن أمها وتقبلها ثلاث أو أربع قبلات .

انتقل رانجيل من الغضب إلى اليأس ، وفكر بالذهاب ، لكن الأمل أوقفه . الأمل . . هذا الشيطان ذو العيون الخضر . من يدري لعل هذا كله ليس سوى نزوة طارئة لليلة واحدة ، أو غرام من غراميات القديس جوان ! وسيبقى هو في نهاية المطاف بمثابة صديق قديم للعائلة ، تستجاب كل طلباته . ثم ، هل لدى كيروز امكانيات للزواج ؟ وماهي هذه الوظيفة التي يشغلها في سنتا كاسا ؟ باه ! وظيفة عادية ! ثم تفحص ملابس خصمه فوجدها قشيبة وجديدة ، ففكر : « لابد انه دعي متأنق ،

ينفق كل شيء على أناقته ، أما الزواج فقضية جدية » . وربما كانت له كذلك أم أرملة وشقيقات عازبات . . بينما هو – رانجيل – وحيد .

– اعزف لنا ولو مقطوعة واحدة أيها العم روفينو .

– ماهذا ! لاأستطيع . فالناي يسبب لي عسر هضم بعد الطعام .

وأعلن رانجيل انه لن يعود إلى اللعب . كان يحس آلاماً في رأسه . لكن جوانا اقتربت منه وطلبت إليه ان يلعب معها. ولم يستطع الا القبول. جلسا متجاورين. كانت جوانا تتكلم كثيراً وتضحك . وكان رانجيل يستمع إليها ، وبعد قليل شعر بالتحسن . وبينما هو يلعب ، أحس فجأة بدوار في رأسه : الايماءات ، التحذيرات ، المخادعات للكسب . . . لكنه نسي في النهاية كل شيء : الورق واللعب ، والمدعوين ، وراح يحلم . . رأى نفسه مع جوانا ، يدوران في الفضاء ، تحت مليون نجمة مصفوفة للاضاءة لهما .

بدأ الفجر بالبزوغ ، وتطلعوا من النافذة ليروا خروج المدعوين في البيت المقابل . وفيما كان رانجيل ماضياً ليتفرج ، رأى مشهداً جعله يقف مذهولاً : رأى جوانا الجميلة وكيروز وهما يضغطان على أيدي بعضهما. . يشدان أيديهما بقوة وخفية .

وأقنع رانجيل نفسه بأن ذلك لم يكن سوى تخيلات ، فهو لايستطيع أن يصدق انه بامكان ليلة واحدة ان تربط قلبين هكذا : لكنه رأى انها الحقيقة ، وكل شيء كان يؤكد ذلك : نظراتها ، ضحكها ، وحتى الكلمات التي تبادلاها عند الوداع في الصباح .

ليلة واحدة ! بل أقل من ليلة ! مضى إلى بيته وألقى بنفسه في

الفراش ، لا لينام ، وانما لينفجر بالبكاء . ولم يبق منه كدبلوماسي أي شيء ، حتى ولا المظهر . . كان مجرد يائس مستلق على السرير ، يبكي مثل طفل صغير .

ذلك الشيطان المسكين ، المصوغ من غرور ، وبلادة ، وتكلف ، كان جوهراً بائساً مثله كمثل عطيل ، لكن نهايته كانت أشد قسوة .

فمغربي البندقية قتل ديدمونا ، أما عاشقتنا ، الذي لم يعلم بعواطفه الجياشة أحد، فقد أصبح بعد ستة شهور شاهداً على زواج كيروز وجوانا.

ولم تستطع الاحداث ولا السنوات تغييره . فعندما اندلعت الحرب مع باراغواي راودته كثيراً فكرة الاشتراك في الحرب كضابط متطوع. لكنه لم يفعل ذلك أبداً . ومع ذلك،فقد كسب، في خياله، عدة معارك وحصل على رتبة بريغادير .

ترجمة : صالح علماني

الفهرس

تشيلي

البرازيل

٢٥٠٠ ط ١ /٦/١٩٨٨

مكتبة بغداد

القصة القصيرة ، كما هو معلوم ، لوحة مصغرة لعالم تلتقطه من زاوية محددة تكشف عنها بأقوى مما تكشف اللوحات الوصفية الكبيرة أو الكتب العلمية المطولة . فرب خبر يقول حياة شعب ، وحدث يقول سيرة انسان ، بشكل يجعلك تتعرف في الخبر على شعبك ، وفي الحدث على جانب من شخصيتك كان خافيا عليك . والعالم الثالث مجموعة مآس كشف عنها أدباء افريقيا وامريكا اللاتينية في روايات وقصص قصيرة ترجمت أغلبها الى أغلب لغات العالم ورفعت بعض هؤلاء الأدباء الى مرتبة جائزة نوبل . فكأن التطلعات في هذا العالم محكوم عليها بالاحباط ، والحياة بالبؤس ، والمأساة الاكبر هي انتقال البؤس الى النفس حيث يصبح بعدا من أبعادها .

ففي احدى قصص المجموعة أن الرقابة الصارمة التي تمارسها السلطة القمعية قد صارت رقيبا ذاتيا شلت عفوية الفرد وقلصت قدرته على الحياة بشكل سوي . والحق أن كل قصة من قصص المجموعة هذه مأساة ذاتية ، فيها حقيقة الأحداث التي تتألف منها القصة .

والعالم الثالث ، رغم تنوعه ، متشابه في كثير من جوانب وجوده .

سعر النسخة داخل القطر
٤٠ ل.س

في الأقطار العربية مايعادل
١٠٠ ل.س

الطبع وفرز الألوان في مطابع وزارة الثقافة

دمشق ١٩٨٨